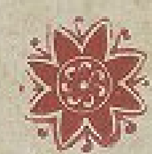
محمد جميل بيهم

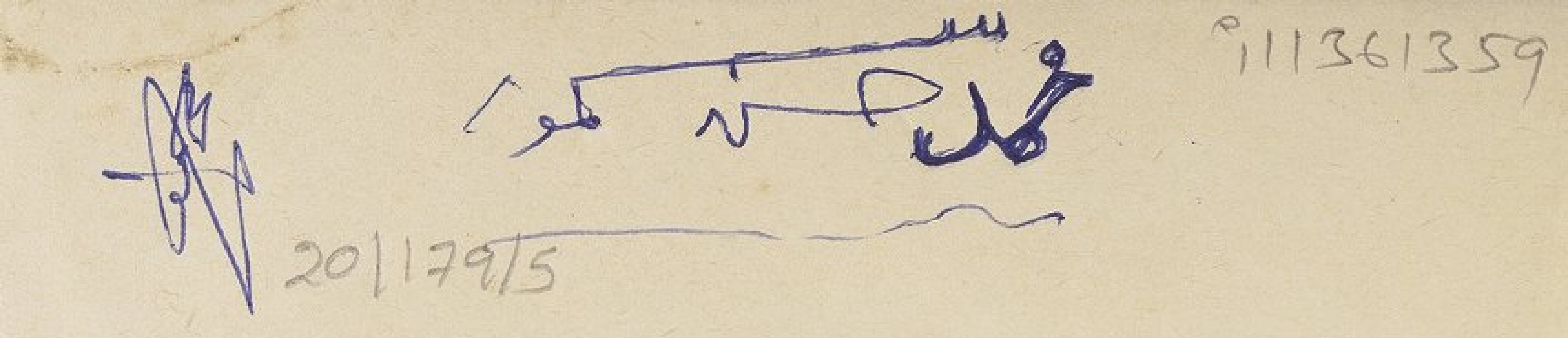
المرأة في حضارة العرب

والعرب في تاريخ المرأة



دار النشر للجامعيين





« كتاب ادبي بلون جديد اذ بينما يستعرض »
« تطور المرأة منذ فجر الاسلام حتى مطلع شمس »
« النهضة الحديثة في كل من المشرق والمغرب يتناول »
« تاريخ العرب والمسلمين خلال تلك الحقبة . وهو »
« الى ذلك يجمع بين متعة التاريخ ولذة الطرائف »
« النثرية والشعرية فضلاً عن النوادر . »



مقدّمة

اتيح لي في عهد شبابي الباكر ان ازور اوروبا اكثر من مرة للدراسة والاستطلاع ، وكنت ، ولا ازال ، اذا مررت بشيء لا اقنع بلذة النظر اليه ، وانما اقف عنده متأملاً مفكراً ، واحلل مصادره واهدافه . فكانت تلك الزيارات مدرسة لي مفيدة علمتني ما لم تزودني به المعاهد العلمية .

وكان من نتيجة هذا التماس المباشر بالغرب باكراً بروز صراع بين افكاري الموروثة ، ومقاييسي المكتسبة ، وبين مشاهداتي الطارئة ، ومسموعاتي العارضة التي تقوم على اعتبارات اخرى ، صراع جعلني ، حينما عدت لبلادى ، مزوداً باراء جديدة، وباهداف اصلاحية مفيدة. وكان ابرزها الحنين الى تحرير المرأة وتثقيفها ، واعدادها بالتربية لمواجهة زمن قادم غير زمننا .

وكان اول صوت ارتفع لي في الدعوة للاصلاح مناشدة قومي بان يعنوا عناية خاصة بنصف الهيئة الاجتماعية الذي كان محجوزاً عليه . فبالصحف ، وبالخطابات ، وبالمحاضرات ناشدتهم بأن يجبروا الجناح الكسير ليتسنى لهم التحليق ، على مستوى الامم ، في الأجواء الراقية . ولكن اصداء دعوتي كانت ترتدّ الي تهماً تتهمني بالزندقة ، وتعتبرني من الخوارج .

بيد اني لم ابال ، وانما ثابرت على هـذه الدعوة . وكان اول كتاب صدر لي عام ١٩٢١ هو كتاب « المرأة في التاريـخ والشرائع » . وقـد لاحظت حين صدوره ان العالم الاسلامي كان قد اصبح على استعداد كامل لقبول الدعوة الى تحرير المرأة رغم ما واجهته في وطني من انتقادات ، ذلك باني سرعان مـا تلقيت ، في وقت واحد ، رسالتين من قطر واحد يطلب مني مرسلاهما الاجازة لترجمة الكتاب الى اللغة الأوردية ، وهما السيدان عبد الحميد النعماني ، واسرار احمد السهروردي من علماء الهند فاجزتهما . ثم علمت من سيادة صلاح الدين سلجوقي سفير الأفغان بالقاهرة انه ترجمه ايضاً الى لغة بلاده .

وكان ذلك الرواج مما شجعني ايضاً على المضي في التأليف في هـذا الموضوع، فأصدرت تباعاً : « المرأة في التمدن الحديث » و « وفتـاة الشرق في حضـارة الغرب » . وقد اخبرني الدكتور محمد جواد مشكور احد اساتذة جامعة طهران ان الأول منهما ترجم الى اللغة الفارسية بعنوان (زن وتمدن جديد) .

وكنت اعددت في عهد الانتداب الافرنسي مواد كتاب آخر يكمل مـا بدأت به بعنوان « المرأة في الحضارة العربية الاسلامية » ولكن نداء الكفاح ضد الاستعمار كان قد حولني الى مواضيع اخرى فأهملت هذا الكتاب حتى اذا زرت القاهرة سنة ١٩٥٩ واقترح علي احد اصحاب دور النشر هنـاك اصدار كتاب في هذا المعنى كان هذا الاقتراح حافزاً لي للانكباب ، منذ ذلك التاريخ، على تأليف كتابي هذا ، الذي كنت في غفلة عنه ، عـلى رجاء ان يكون الحلقة الرابعة في سلسلة اسفاري عن المرأة . وان يكون تكملة للموضوع الذي عنيت به منذ فجر حياتي .

وهو كتاب وان كانت الغـاية منه كشف النقـاب عن وجه تطور المرأة العربية في النواحي الأخلاقية والثقافية والاجتماعية وذلـك في غضون

تعاقب العرب والفرس والترك وغيرهم على الحكم في الشرقين الأدنى والأوسط ، وابان تداول السلطة بين العرب والبربر في الاندلس والمغرب الا انه جاء في نفس الوقت تاريخا للعرب في المشرق والمغرب خلال تلك الحقبة . ويرجع ذلك الى ان الكتاب ، وقد تناول الموضوع بالتحليل والتعليق وربط الأسباب بالمسببات ، خلص الى تبيان التطور الذي أصاب الأمة العربية في تلك المراحل لما بين مصير النساء وبين افكار الرجال ومقاييسهم من ارتباط وثيق .

والى هذا فان الكتاب يعتبر جديداً بالنسبة للمؤلفات الأخرى التي اكتفى واضعوها امّا بالتحدث عن المرأة من ناحية من نواحيها ، او في ناحية من نواحي العالم العربي ، وامّا انهم اذ تناولوا كل ذلك جاءت اسفارهم تقتصر على سرد السير والاخبار والأشعار بينما أن كتابي هذا الذي يصدر ، بعد ان نعم العرب سياسياً باستقلالهم ، وتوحدت اجتماعياً اهدافهم ، وتقاربت جغرافيا اوطانهم ، وأصبحوا بالرغم عن كل الاعتبارات الأخرى أمة واحدة فهو يصدر كتاريخ عام لنساء أمة واحدة سواء أكانت على المحيط الأطلسي ، ام على البحر المتوسط ، ام على غيرهما من البحار . والى ذلك فهو تاريخ عام لأنه تدارك ما أهمله المؤرخون من الكلام عن القرون التي استأثر بها الأعاجم المسلمون بحكم البلاد تباعاً في المشرق وفي المغرب على السواء حتى عصر النهضة المعاصرة .

هذا وقد حاولت جهد المستطاع ان لا استسلم في كتابي هذا للعواطف التي طالما حملت اكثر المؤرخين على ذكر الحسنات دون السيئات متى تحدثوا عن اقوامهم ، وحملتهم على المبالغة في وصف المآثر . ذلك بأني توخيت ان يأتي الكتاب صورة حقيقية لواقع المرأة في تاريخ العرب ، وان يكون رسماً صادقاً لواقع العرب في تاريخ المرأة .

فعسى ان يجد القراء فيه لذة التاريخ المعلّل ، وان يجدوا فيه متعة ، بما فيهم

اولئك الذين يعتبرون التاريخ جافاً بالنسبة لأذواقهم ، ارجو ذلك لما حوى الكتاب من طرائف الاخبار ، والنكات الأدبية ، ولحفوله بالفكاهات والنوادر والاشعار مما يجعله مستساغاً عند الجميع .

بيروت: ٢٥ شعبان ١٣٨١ = ١ شباط ١٩٦٢ **محمد جميل بيهم**

الفصل الأول

المرأة العربيَّة في صدر الإسلام

كان الاسلام بالنسبة للعرب فيصلاً بين مرحلتين من مراحل حياتهم : مرحلة البداوة ومرحلة الحضارة . وكان صدر الاسلام عهد انتقال بين المرحلتين يجمع بين التراث القديم وبين التنظيم الحديث، فتجلت في هذا العهد البداوة وطلاقتها في احضان شرع يقيم الحدود ، ويعيّن الحقوق والواجبات ، ويقوّم العقائد .

وصدْر الاسلام ليس له تحديد معين بارقام السنين لا يتعداه ، وانما يقصد به عهد الرسول وخلفائه الراشدين ، واوائل عهد الامويين وذلك ابان ما كان العرب يتقيدون بالشرع في الاحكام ، ويقيمون الدولة، في دواوينها وجندها وتنظيمها المالي، على نحو ما هو مقرر عند الفرس والبيزنطيين، ويقتبسون من هاتين الامبراطوريتين اوليات الحضارة والعمران .

وعهد الانتقال هذا الذي خلف عهد البداوة ، وسبق عهد التمدن الاسلامي سجل تبدلاً كبيراً في الاوساط العربية من حيث تطور المجتمع . وكان هذا

التبدل نتيجة لتنازع البقاء وبقاء الانسب بين التقاليد الموروثة والعادات القديمة والاعتقادات ، وبين ما جاء به الاسلام من تنظيم مدني وديني ، وتوحيد عقائدي بالاضافة الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفي هذا الفصل انما نعني بما اصاب اخلاق المرأة العربية، في هذا العهد ، من التبدل والتطور . واذ نتكلم عن المرأة في هذا الفصل وفي غيره من الفصول فكأنا نشير ايضاً الى نصيب الرجل من التطور لأن كلا منهما هو عضو في هيئة اجتماعية واحدة يؤثر فيها ، ويتأثر بها ، هذا فضلاً عن تأثير الرجال الشديد بصورة خاصة على المجتمع النسائي .

اخلاق المرأة العربية في صدر الاسلام

للبداوة مزايا كثيرة تعتبر من اجل الصفات وأحمدها . وهذه الصفات التي هي وليدة حاجة المجتمع البدائي تصبح بحكم العادة والتقليد شرعة له عامة دونما حاجة لتدوينها .

لقد نوهنا في كتابنا « المرأة في التاريخ والشرائع » بما كانت عليه المرأة العربية في فترة الجاهلية من الاخلاق الفاضلة التي كانت تتفق مع المزايا البدوية الفطرية على رغم تسلط الرجل عليها واستئثاره بها . ونخص بالذكر منها الجرأة الادبية والشجاعة والعفاف والكرم والنجدة والوفاء .

وفي صدر الاسلام ظلت المرأة العربية تحتفظ بهذه الصفات المحمودة من جراء اتصال هذا العهد بالعهد الجاهلي ، ولأن الأسلام كان حريصاً على مكارم الاخلاق الى حد ان النبي قال : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. »

على ان الاسلام الذي جعل النساء شقائق الرجال اكسب المرأة العربية صفات جديدة لا عهد لها بها في العصر الجاهلي ، فضلاً عن انه اثار فيها عواطف

التدين والتطلع الى حياة اخرى هي خير وابقى ، وخلق في اوساطها تقيات وزاهدات ، وكان حافزاً لنشاطها للمساهمة في اعباء الانقلاب الكبير الذي قام به العرب في الاسلام . وان ايراد بعض مناقب المرأة في هذا العهد هو خير وسيلة للاحاطة باخلاقها ، وما كان للاسلام من اثر عليها . ولهذا فاننا نتحدث عن هذه المناقب واحدة بعد واحدة :

– ١ – شجاعة المرأة في صدر الاسلام

ما اروع هذا الكون في تنظيمه الطبيعي ؟ ومن اروع ما فيه ذلك الناموس الذي يجعل عالم الاحياء تبرز في كل من افراده القوى المادية والمعنوية التي تستلزم بقاء حياتهم وتنشد انتصارهم على كل ما يعترضهم. وعلى هذا الاساس فان الانسان في عصر البداوة، حيث لا معاقل تحميه ، ولا حصون تدرأ عنه، وحيث يكون كسبه بمقدار قوته ، كانت الشجاعة تبرز بين افراده، رجالاً ونساء ، وتحتل المقام الاول في ذلك العصر .

ومن هنا كانت الشجاعة في فترة الجاهلية مدار اهتمامهم وتقديرهم ، والمحور الذي تدور عليه مباهاتهم ومفاخرتهم . ثم ظهر الاسلام بينهم داعياً الى التحضر والايمان ، والعمل للدنيا اسوة بالعمل للآخرة[١]، وناهياً عن الغزو والعدوان ، ومحرماً قتل الانسان لاخيه الانسان. فكان المفروض ان يعتري الاعتماد على الشجاعة شيء كثير من الفتور ، وان يغشاها ما يغشى اهل الحضر من الانصراف عنها الى ما هم اشد حاجة اليه من الصفات التي تتفق مع حياتهم . بيد ان الامر جاء على عكس ذلك : فالاسلام لم يعزز الشجاعة فحسب ، بل امدها بقوى جديدة وحوافز لم تكن موجودة من قبل. ذلك بانه احتاج للكفاح عند ظهوره واضطر لاستعمال القوة حين عجزت الحجة والدعوة بالحسنى ، طوال ثلاث عشرة سنة ،

---

(١) « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض : وابتغوا من فضل الله » سورة الجمعة «العبادة عشرة اجزاء تسعة منها في الكسب الحلال » حديث .

عن اقناع المكابرين ، ورد اذى المتعنتين ، فدعا الى الجهـاد ، وبشر المجاهدين والصابرين بالنصر والأجر ، ووعـدهم بملك كسرى وقيصر ، وجعل شهداءهم احياء عند ربهم يرزقون . واكثر من ذلك فقد جعلهم جنوداً لله في الدنيا لقاء ما اعدّ لهم في الاخرة: جنة عرضها السماوات والارض : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة. يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون. وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن » سورة التوبة .

فاذا بالشجاعة تزداد قوة على قوة حين امتلأت قلوبهم بالايمـان ، واذا بها تبرز في الاوساط النسائية بروزاً قلما شهده التاريخ . ولا بدع فالمرأة ما زالت في كل عصر تبز الرجال في الاخلاص لعقيدتها ، والاندفاع في سبيل ايمانها . لذلك فان العربيات في عهد النبي والخلفاء الراشدين ، كن شريكات الرجال في وثبتهم الاجتماعية ، واظهرن من ضروب الشجاعة والتضحية مـا لا يعرفه عهد الجاهلية. ولا بدع فان لاختلاف الحوافز والغايات اثراً عظيماًفي تطوير الصفات : فبينما كان الحافز في الجـاهلية حب النصر والفخر اصبح في الاسلام حب النصر ، والمساهمة في نشر الدين وادراك الأجر مما يضمن خيري الدنيا والآخرة. ولو كان المسلمون يقيمون التماثيل لعباقرة ابطـالهم من السلف الذين جرت على ايديهم جلائل الاعمال لرأينا منها الكثير لنساء ورجال بهرت اقوالهم واعمالهم الناس يومئذ ، وما تزال تثير الاعزاز والاكبار . لقد نصبت فرنسا التماثيل لجان دارك ، التي رفعتها شجاعتها الى مرتبة القديسات ، ولجـان هاشت ، ومرغريت دانجو وغيرهن. وكم في صدر الاسلام من سيدات اذا ذكرت القداسة فهن في طليعتها ، واذا نوه بالبطولة فهن من رافعي راياتها ؟

● **في عهد النبي**

● لقـد لقي المسيح نصيرات أمينات التففن حوله ، وعطفن عليه ، اما محمد فقد وجد منهن المؤمنات الصادقات الشجاعات اللواتي استعذبن العذاب في سبيله وسبيل دعوته. فالى جانب خديجـة بنت خويلد، اول امرأة آمنت به اذ كذبه الناس ، وواسته بنفسها ومالها ، وشجعته على رسالته، يذكر

التاريخ فاطمة بنت الخطاب ، اخت عمر ، التي كانت واحدة من العشرة الذين سبقوا الى الاسلام . وكان ثباتها على دينها وصبرها على الاذى ، وشجاعتها ، من اسباب كسب عمر الى الاسلام، وتحقيق امنية الرسول الذي كان يقول « اللهم اعن الاسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب ، او عمرو بن هشام . »

ذلك كان في مكة حيث اقتصر محمد على الدعوة بالحسنى ، اما في المدينة ، حيث فُرض القتال بعد ان صارت المواعظ وحدها غير مجدية ، فقد انبرت المرأة للمساهمة في الجهاد ، فخفت الى ساحات الوغى جنباً الى جنب مع الرجال تروي ظمأهم ، وتضمد جراحهم ، وتثير حماسهم ، وربما اخترطت السيوف ، وتعرضت للحتوف ، او اقبلت على ارداء اعداء كان بعض الرجال يتحرجون لقاءهم .

وقد اشتهر في الشجاعة وقتئذ فريق كبير من النساء . نذكر منهن ام عطية التي روى قاسم أمين (تحرير المرأة ص ١٣٨) قولها: «غزوت مع رسول الله (ص) سبع غزوات ، وكنت اخلفهم في رحالهم ، واصنع لهم الطعام ، واداوي الجرحى ، واقوم على المرضى » . ونذكر ام عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، ثانية اثنتين شهدتا العقبة الكبرى ، واول مبايعة فيها للنبي . وقد شهدت غزوة أُحد ، وبيعة الرضوان ، ويوم اليمامة ، حيث كانت تقاتل مع ابنها عبد الله حتى قُتل المتنبي" مسيلمة . وقد قطعت يدها في تلك المعركة، وجرحت اثنا عشر جرحاً .

اما مواقفها في غزوة أحُد في السنة الثالثة للهجرة فكانت اكاليل غار على رؤوس النساء . قال الشيخ عبد الله عفيفي (المرأة العربية ج ٢ ص ٩٦) : « خرجت نسيبة في جيش المسلمين يوم أحُد تسقي الظماء ، وتأسو الجرحى . وكانت غرة الحرب وطلعتها للمسلمين ، ثم اشاحت بوجهها عنهم ، فتناولتهم سيوف المشركين تنهل من نحورهم ، وتطعن في ظهورهم ، فانكشفوا وولوا مدبرين ، الا عشرة او نحوهم وقفوا يدرؤن عن رسول الله ، ويحولون دون

الوصول اليه . هنالك جاء دور نسيبة ، فانتضت سيفها ، واحتملت قوسها ، وذهبت تصول وتجول بين يدي رسول الله، تنزع عن القوس ، وتضرب بالسيف ، وحولها من الغر المزاويد علي وابو بكر وعمر وسعد وطلحة والزبير والعباس ، وولداها حبيب وعبد الله ، وزوجها زيد بن عاصم . فكانت من اظهر القوم اثراً وأعظمهم موقفاً . وكانت لا ترى الخطر يدنو من رسول الله حتى تكون سداده ، وملء لهوته » حتى قال الرسول : « ما التفت يميناً ولا شمالاً الا وانا اراها تقاتل دوني » .

ولقد رآها الرسول يومئذ وهي تعصب جرحاً ينزف دماً في ذراع ابنها عمارة فما انتهت منه حتى دفعته للكفاح كرة اخرى وهي تقول له : « قم يا ابني فضارب القوم ، وجاهد في سبيل الله . » ويرمقها الرسول بنظرة حانية وهو يقول « ومن يطيق ما تطيقين يا ام عمارة؟ » (الاصابة واسد الغابة وطبقات ابن اسعد وسيرة ابن هشام).

وقد تحدث ابن هشام ايضاً في سيرته (ج ٢ ص ١٤٣) عن بطولة سيدة اخرى : صفية بنت عبد المطلب مقارناً بينها وبين حسان بن ثابت ، وقال : « ففي غزوة الخندق كان رسول الله مشغولاً باليهود ، وكانت صفية بنت عبد المطلب مع جماعة النساء في حصن بني حارثة ، فتقدم يهودي فرمى الحصن . قالت صفية لحسان بن ثابت ، وكان قد اعتصم بالحصن لوهن قلبه ، « قم يا حسان فاقتله . » فقال « لو كان معي هذا لكنت مع رسول الله واصحابه . » فقامت صفية فضربت اليهودي حتى قطعت رأسه . وقالت لحسان : « قم فاطرح رأسه على اليهود ، وهم اسفل الحصن » . فقال : « والله ما استطيع ذلك ! » قالت « فقمت فرميت رأسه على اليهود ، فادهش ذلك اليهود ، وقالوا : « لقد علمنا ان هذا – محمداً – لم يكن ليترك اهله خلواً ليس معهم احد فتفرقوا خائفين . »

والخبر هذا يعلي من قدر صفية الا انه لا ينقص من قدر حسان شاعر

النبي . فهو ان كان جباناً في القتال فله مواقفه حيث يصنع اللسان ما لا يصنع السنان . لقد كان الرسول ينصب بيده المنبر له ويقول : « اللهم ايّد حسان بروح القدس ما دافع عن رسولك . »

● عهد الخلفاء الراشدين في الحروب الخارجية

● ثم كان للنساء بعد النبي مواقف نبيلة حينما انبرى خلفاوءه لاخضاع الامم المجاورة من روم وفرس ، فانهن لم يتلكأن عن مرافقة الرجال ، والاشتراك معهم في القتال . وكان لهن في فتوح الشام ، كما كان لهن في فتح العراق آثار خالدات[١] . واذا كان بين نساء التمدن الحديث، الذي ساوى بين الجنسين ، وجعل المرأة تشعر بواجبها، مثل ام عطية وفاطمة العمرية واميمة ابنة قيس بن ابي الصلت وغيرهن ممن ابلين البلاء الحسن في الغزوات والحروب ، ابان عهد الخلفاء ، وذلك في صعيد خدمة المرضى والجرحى ، فان الدهر ليضن بامثال خولة بنت الازور الكندي في الفروسية والبسالة . ان المرء ليحار بأي موقفيها يشيد ويفاخر : أفي موقعة أجنادين ؟ ام في موقعة صحورا ؟ ولا بأس بأن نجمل من فتوح الشام للواقدي (ص ٢٨ - ٢٩) موقفيها هذين لما فيهما من بطولة وبسالة ، وان كان الواقدي قصاصاً في تاريخه .

«لما أسر ضرار بن الازور في موقعة اجنادين سار خالد بن الوليد في طليعة من جنده لاستنقاذه. فبينما هو في الطريق مرّ به فارس معتقل رمحه لايبين منه الا الحدق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوي على ما ورائه . فلما نظره خالد قال:

---

(١) قد نوه بالعربيات المؤرخ ادوار جيبون في كتابه تاريخ «الامبراطورية الشرقية» حيث قال : « ان الشجاعة التي اعربت عنها المرأة المسلمة في موقعة اليرموك ، وفي غضون حصار دمشق لاعظم مما يتناوله التقدير . »

« ليت شعري من هذا الفارس وأيم الله انه لفارس » ثم اتبعه خالد ، والناس وراءه ، حتى ادرك جند الروم ، فحمل عليهم وامعن بين صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم حتى زعزع كتـائبهم ، وحطم مواكبهم . فلم تكن غير جولة جائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء وقد قتل رجالا منهم ، وجندل ابطالاً . ثم عرض نفسه للموت ثانية ، فـاخترق صفوف القوم غير مكترث . وخامر المسلمين من القلق والاشفاق عليه شيء كثير . وظنه النـاس خالداً . حتى اذا قدم خـالد قال له رافع بن عميرة : « من الفارس الذي تقدم امامك ؟ فلقد بذل نفسه ومهجته ! » فقال خالد : « والله لانا اشد انكاراً واعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله . » وبينا القوم في حديثهم خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب والخيل تعدو في اثره ، وكلما اقترب احد منه الوى عليه ، فانهل رمحه من صدره ، حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به ، وناشده ذلك خـالد ، وهو امير القوم وقائدهم ، فلم يحر جواباً . فلما اكثر خالد اجابه ، وهو ملثم ، فقـال : « ايها الامير اني لم اعرض عنك الأحياء منك ، لانك امير جليـل ، وانا من ذوات الخدور ، وبنـات الستور . وانما حملني على ذلك اني محرقة الكبد ، زائدة الكمد » فقال خالد : « من انت ؟ » قالت : « انا خولة بنت الازور . كنت مع نساء قومي ، فاتاني بان اخي اسير ، فركبت ، وفعلت مـا رأيت ! » هنالك صاح خالد في جنده ، فحملوا وحملت خولة معهم ، وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على اعقـابهم . وكانت تجول في مكان علها تعرف اين ذهب القوم بأخيها ، فلم تر له اثراً ، ولا وقفت له على خبر . ولكنها بقيت في جهادها حتى استنقذ لها اخوها . »

ومن مواقفها الرائعة موقفهـا يوم اسر الروم النساء وهي معهن في موقعة صحورا . فلقد اخذت تثير نار الحميـة في قلوبهن ، وقالت : « خذن اعمدة الخيام ، واوتاد الاطناب ، ونحمل على هؤلاء اللئام . » فقالت عفراء بنت عفار :

« والله ما دعوت الى ما هو احب الينا مما ذكرت » ثم تناولت كل واحدة عموداً من عمد الخيام ، وصحن صيحة واحدة ، وهجمت خولة، وهجم النساء وراءها، وقاتلت بهن قتال المستيئس المستميت حتى استنقذتهن من الأسر .

هذا وما كانت ام الحرام الرميصاء بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت اقل اندفاعاً في سبيل الاسلام . وما احراها بأن تسمى « ام الحسام » . فهي لم تقنع بالبرّ متسعاً لجهادها ، ولكنها ركبت البحر يوم كان ركوبه كدود على عود، ورافقت زوجها حينما غزا معاوية بن ابي سفيان قبرص، واستشهدت في هذه الغزوة (٢٧هـ) . وقد دفنت في مدينتنا بيروت في جبانة قديمة كانت تدعى الخارجة . ثم نقل مقامها ، قبل سنين عدة ، الى جبانة الباشورة ، وذلك حينما عمدت البلدية الى تحويل الخارجة الى منتزه ، ومن ثم الى سوق تجارية .

ومثل ام الحرام في الشجاعة أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة ابن ابي جهل . فلقد قتل زوجها في أجنادين شهيداً في قتال الروم، فتزوجها هناك خالد بن سعيد ، وقتل صبيحة بنائه بها . فحملت ام حكيم عمود الفسطاط الذي قتل فيه خالد عند القنطرة التي بمرج الصفر ، وقتلت سبعة من الاعداء . ويقول البلوي (الف باء ج ٢ ص ٢١١) : « سميت تلك القنطرة قنطرة ام حكيم الى اليوم تذكاراً لشجاعتها . »

واما في حرب العراق فقد اشتهرت خزانة بنت خالد بن جعفر بن قرط التي خاضت مع سعد بن ابي وقاص المعامع والمعارك وحضرت فتوح الحيرة ونالت هنالك شهرة خولة بنت الازور في معارك الشام .

هذا وكانت الخنساء زعيمة شواعر العصر قد ادركها الهرم حينما تهيأ الجيش للرحيل الى القادسية . والهرم وان كان يحوّل اجسام الشجعان الى اداة غير صالحة للتنفيذ ، الا انه لا يمس ارواحهم لان الارواح شعلة من نور خالدة .

ولذلك فأنها، وقد نادى منادي الحرب ، اعربت عن شجاعة في شيخوختها لا تزال فتية ، والقت اعباء تنفيذ هذه الشجاعة على ابنائها الذين هم امتداد لحياتها. « لقد جمعت ابناءها الاربعة وخطبتهم قائلة : « يا بني انكم اسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذي لا إله الا هو انكم لبنو رجل واحد ، كما انكم بنو امرأة واحدة . ما خنت اباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم . وقد تعلمون ما اعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في في حرب الكافرين . واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية . يقول الله عز وجل ، «يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . » (آل عمران) . فاذا اصبحتم غداً، انشاء الله ، سالمين فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على اعدائه مستنصرين . فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، واضطرمت لظى على سباقها ، وجللت ناراً على اوراقها ، فيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلود والمقامة . » فمضى بنوها بنصحها ، عازمين على اعلاء كلمة الله ، وملء اعطافهم يقين في النصر ، وعلى السنتهم تراتيل يصغي لها سمع الدهر ، وخاضوا وطيس المعركة حتى جاء الحق وزهق الباطل ، ورفرفت راية الاسلام في القادسية خفاقة ، وولى الاعداء فلولا ، ولقي ابناء الخنساء نعيم الشهادة ، وشرف الخلود في رضوان الله ، وسمعت الحياة كلمة الايمان حين تخالط بشاشته القلوب فيهون الخطب ، ويسلس الصعب ، ويستفيض العزاء . وحين بلغ الخنساء استشهاد بنيها قالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وارجو من الله ان يجمعني بهم في مستقر الرحمة . » (الاصابة ج ٨ ص ٦٦ — ٦٧) .

● عهد الخلفاء الراشدين في الحروب الداخلية

ان شجاعة نساء صدر الإسلام لم تتجل في القتال الذي اشتبك به المسلمون مع مشركي العرب فحسب ، ولم تظهر في حروبهم ضد الروم والفرس فقط ، بل

برزت ايضاً على اكملها في المعارك التي نشبت بينهم من اجل الخلافة. وان التاريخ ليذكر عائشة ام المؤمنين في وقعة الجمل التي كانت بينها وبين علي ابن ابي طالب، وقد وُلي الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان. ليذكرها وهي تقود الجنود متأثرة بدموع الحاملين لقميص عثمان، وتحضهم على الثبات والصبر، وهم يصرعون تباعاً ولا ينكصون على الاعقاب دفاعاً عن حرم الرسول. وليذكرها وهي تثير فيهم الحماس رغم اصابة الجمل الذي كانت تركبه. ولما خسرت المعركة ردها علي الى المدينة معززة مكرمة بين سبعين واحدة من نساء صحابته.

وما كانت عائشة الا واحدة من كثيرات اشتركن في تلك المعارك الاسلامية، نذكر منهن الزرقاء ابنة عدي بن قيس من انصار علي. واني لأتخيلها وهي تركب الجمل الاحمر، تخطب الناس بين الصفوف في صفين، وتحض على قتال معاوية فتقول:

« ايها الناس انكم في فتنة غشيتكم فيها جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة. فيا لها من فتنة عمياء صماء، يُسمع لقائلها، ولا ينظر لسائقها. ايها الناس ان المصباح لا يضيء في الشمس، وان الكوكب لا ينفذ في الفجر، وان البغل لا يسبق الفرس، وان الزف (صغير الجصّ) لا يوازن الحجر. ولا يقطع الحديد الا الحديد. ألا من استرشدنا ارشدناه، ومن استخبرنا اخبرناه، ان الحق كان يطلب ضالته فاصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والانصار، فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل، وغلب الحق باطله، فلا يغلبن احد فيقول: « كيف واني ليقضي الله امراً كان مفعولاً ». الا ان خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير في الامور عواقباً. ايها الناس الى الحرب قدماً غير ناكصين. فهذا يوم له ما بعده. (العقد الفريد ج ١ ص ١١٣).

ومثلها كانت عكرمة بنت الاطرش وهي من اللواتي شهدن الوقائع مع علي،

واشتركن في معركة صفين . كانت تتقلد حمائل السيوف ، وتنادي انصار الامام نداء اثر نداء يحرك كل منها الجماد ، ويبعث النفوس الى التضحية . ومن قولها : « يا معشر المهاجرين والانصار امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم . فكأني بكم وقد لقيتم اهل الشام كالحُمُر الناهقة تصقع صقع البعير » .

واما ام الخير بنت حريش فكانت كالسهم تحت راية الامام ، سيفها مصلت في يدها ، وصوتها يلعلع في الفضاء قائلة : « جاهدوا قبل ان تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، ويظهر الظلم . » (فتاة الشرق في حضارة الغرب للمؤلف ص ٧٤). وكانت حين قتل عمار بن ياسر بين بردين زئيرين (كثيفي النسج) ، وهي على جمل أرمك (رمادي) وبيدها سوط منتشر الضفيرة كأنها الفحل يهدر في شقشقته ، تحض الناس على الانتصار لعلي ، والثبات (العقد الفريد ج ١ ص ١١٦).

وغير هؤلاء كثيرات ممن خضن المعارك الداخلية في عهد الخلفاء الراشدين . ومن اشهرهن هند بنت زيد بن مخرمة الانصارية .

● عهد الامويين في الحروب الداخلية

● قبل ان تستتب الامور للأمويين برزت انتفاضات ضدهم ، بعضها من اهل البيت ، وبعضها من قبل غيرهم من الهاشميين والخوارج . وساهم النساء فيها اجل مساهمة . وكما كان لعلي نصيرات كثيرات . فقد شايع بعضهن ابنه الحسين ، اشهرهن ام وهب زوجة مالك بن نسير ، وزينب الكبرى زوجة خولي بن زيد . وبلغ من شدة تأييدهما للحسين ان هاتين السيدتين رفضتا زوجيهما احتجاجاً على مشايعتهما ليزيد بن معاوية ، واشتراكهما في مقتل الحسين .

ولما مات معاوية ادعى عبد الله بن الزبير الخلافة في الحجاز ، فلما صار الملك الى عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ) بعث الحجاج لقتاله فحاصره في مكة ،

وطال الحصار حتى يئس ابن الزبير من النجاح ، ورأى نفسه بين امرين لا ثالث لهما : اما الانفة ومصيرها الموت ، واما الحرص على الحياة ، فالرضوخ . وهنا رجع الى امه اسماء بنت ابي بكر يستلهمها الرأي ، ويستشيرها في القتال او التسليم. وهنا برزت شجاعة اسماء . وماذا عسى تجيب ام ابنها في مثل هذا الموقف ؟ هل تؤثر حياته وان خالطتها ذلة ؟ ام تخالف طبيعة الامهات فتضغط على عواطفها وتسوقه للموت !؟

ان اسماء اختارت الشق الثاني فكانت اشجع من الخنساء . هـــذه دفعت اولادها الأربعة للجهاد ، وهي لا تعدم أملاً بنجاتهم ، واما اسماء فكانت ترى الموت ماثلاً امام عينيها حينما نصحت ابنها بأن يثابر على المقاومة ، وهي تترقب لهسوء المصير . قالت لعبدالله : « ان كنت تعلم انك على حق تدعو اليه فامض عليه ، ولا تمكّن من رقبتك غلمان بني أميـة فيلعبوا بك . وان كنت أردت الدنيا فبئس العبد انت . اهلكت نفسك ومن معك . وان قلت اني كنت عـلى حق ، ولما وهن اصحابي ضعفت نيّتي . فليس هذا فعل الاحرار ، ولا من فيه خير . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير ! واالله لضربة بالسيف في عزّ أحب إلي من ضربـــة بسوط في ذل ! » (بلاغات النساء ص ١٣٠ – ١٣٢) .

عاد عبدالله الى الحرب بتحريض امه فقُتل .أجل قـُتل ، ولو لم يقتل يومئذ لما فاته الموت بعدئذ . غير انه احيا ببسالته هذه ذكراً خالداً أبد الدهر ، كما سجلت اسماء بنصيحتها له ، التي املاها الاباء،شرفاً لم يدركه سواها،بل سجلت شجاعة لم يدركها الشهداء في ساحة الجهاد . فلقد يبلغ الحماس بالمقاتـــل الى حد يصعب معه التفكير بالموت بينما يظل التفكير عـــلى أشده حينما تستشار أمّ ، فتفضل موت ولدها على الحياة الذليلة . وان قول اسماء لابنها على اختصاره : « واالله لضربة بالسيف في عزّ أحب اليّ من ضربة بسوط في ذل » هـــو قول

اكثر بلاغة من قول عنترة العبسي :

لا تسقني ماء الحياة بذلة	بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنّم	وجهنم بالعزّ أطيب منزل

على ان شجاعة ابن الزبير ظهرت وهو صبي : مرّ به عمر بن الخطاب وهو يلعب مع الاولاد ، ففر هؤلاء مع رهبة من عمر وثبت عبدالله . فقال له عمر : « مالك لا تفر مع اصحابك ؟ » قال : « لم اجرم فأخاف منك ، ولم يكن في الطريق ضيق فافسح لك» (مجلة حضارة الاسلام ع ٤ س ٢) . هذا وقد بدرت في العهد الأموي أمثلة رفيعة على الشجاعة بين نساء الخوارج . فلما خرج شبيب ابن يزيدقائدهم على عبد الملك بن مروان كانت غزالة الحرورية تتعاقب وزوجها على قيادة الجيش بشجاعة وبسالة تذكران على الأيام . « وقد خرج الحجاج في جيش كثيف عدته اربعة الاف مقاتل ، وهو مستكمل الزاد والعتاد ، وخرجت له غزالة في اربعين من جندها ، فواجه جلداً لا قبل له به ، وبلاء خلع قلبه من الفزع ، وولى الأدبار بعد ان شكته غزالة بسنانها بين كتفيه . وقد عيّره بذلك عمران بن حطان بعد ان لج الحجاج في طلبه اذ كتب اليه :

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة	فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلاّ برزت الى غزالة في الضحى؟	بل كان قلبك في جناحيْ طائر
صدعت غزالة جمعه بعساكر	تركت كتائبه كأمس الدابر

غير ان غزالة لم تلبث ان قُتلت بسواد الكوفة في حملة ساقها الحجاج على اخيها شبيب سنة ٧٧ هـ . (الحافظ الذهبي ج ١ : ٨٧)

ويروي عبدالله عفيفي (المرأة العربية ج ٢ ص ١٠١) في سياق التنويه بقوة غزالة انها اقسمت لتصلينّ في مسجد الكوفة ركعتين، تقرأ في الاولى سورة

البقرة ، وفي الثانية آل عمران . والكوفة يومئذ معقل الحجاج ، ودار امارته. وينوه ايضاً عفيفي بايمان نساء الخوارج ، وثبات قلوبهن حين كان يؤتى بهن في صفد الأسار بين ايدي الخلفاء والامراء ، وأشاد الى ذلك بموقف البلجاء (ج ٢ ص ٧٧) .

وهكذا فان الاسلام وان حضّر العرب ، والحضارة متلفة للشجاعة ، فقد اذكى فيهم خصائصها وشمائلها ، ولم يجعل ذلك وقفاً على الرجال : « اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر ام انثى بعضكم من بعض . » سورة آل عمران .

٢ – الجرأة الادبية في صدر الاسلام

الجرأة الأدبية فضيلة من الفضائل ان دلت على شيء فانما تدل على سلامة المجتمع . ذلك لأنها لا تبرز ولا تنتشر الا حيث تسود الحرية ، ويُحترم الرأي . وهي الى ذلك تدل من جهة ثانية على الاعتماد على النفس ، ومن جهة أخرى على سماحة الحكام والأمراء .

وقد اشتهر عرب الجاهلية بالجرأة الادبية والصراحة لأن حياتهم البدوية كانت حياة ديموقراطيه في معناها الصحيح ، يكاد التفاوت فيها بين الطبقات والافراد يكون معدوماً ، او ان وجوده بحكم العدم لقلته . وقد ورث المسلمون في صدر الاسلام عن آبائهم في الجاهلية ، هذه الخلة المحمودة ، وظلت مألوفة بينهم لأن الدين حض عليها ، ولأن النبي وخلفاءه شجعوها بأعمالهم ، وبما اوردوا من الأمثلة العملية على الانصاف من أنفسهم .

والحوار الذي جرى بين الخنساء بنت خذيم الانصارية ، وبين النبي يصح ان يكون مثالاً على ما كانت عليه نساء ذلك العصر من التمتع بجرأة أدبية . فقد

أرادت تلك الآنسة ان تحيط علماً،هي وغيرها ، بحكم ديني . فجاءت النبي تسائله دون حياء ، او وجل ، في امر من امورهـا ، وهي تبغي ان يعلم الناس ان البنات احرار ، ولسن سلعة تباع وتشرى .

ففي المبسوط للسرخسي (ج ٥ ص ٢) ان الخنساء هذه قالت للنبي: «ان ابي زوجني من ابن اخيه ليرفع بي خسيسة ، وما لي رغبة فيما صنع بي ، فقـال الرسول (ص) « اذهبي فلا نكاح له . انكحي من شئت » فقالت : « اجزت ما صنع ابي ، ولكني اردت ان يعلم الناس ان ليس للاباء من امور بناتهم شيء!» ولم ينكر عليها الرسول مقالها .

وقد درج الخلفاء الراشدون على سنة نبيهم في اطلاق حرية الناس الأدبية على سجاياها ، وفي الاستماع الى الناقدين ولو كان النقد موجهاً اليهم .

لقد كان عمر بن الخطاب مهاباً بين قريش حتى ان المسلمين اعتزوا باسلامه، وحافظ على هيبته وصلابته في الاسلام حتى كان احياناً يبدي رأيه للنبي ، ولو كان معارضاً ، وذلك في الامور التي لا تتصل بالوحي . ومع ذلك فان امرأة لم تتهيبه في امر اعتقدت ان الصواب فيه الى جانبها ، وحملته على ان يعلن رجوعه عن رأيه .

وهى حادثة مشهورة رواها ابن الجوزي في كتابه التنظيم ، ونحن اذ نثبتها لا نأتي بشيء جديد ، وانما نتوخى بايرادها الدلالة على الجرأة الادبية التي كان يتحلى بها نساء العرب في عهد الخلفاء .

« ان الخليفة عمر لما ولي وبلغه ان اصدقة ازواج النبي خمسمائة درهم ، وان فاطمة كان صداقها على علي اربعمائة درهم ادى اجتهاده الى ان لا يزيد احد على صداق البضعة النبوية ، فصعد المنبر ، وقال بعد ان حمد الله واثنى عليه « ايها

الناس لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم ، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين . » فهاب الناس ان يكلموه ؛ فقامت امرأة في يدها طول ، وقالت : « بماذا يحل لك هذا والله يقول : « وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً . » فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل اخطأ . »

على ان هذه الجرأة الأدبية جاوزت عصر الخلفاء الراشدين بقوة الاستمرار، وشملت الخلفاء الأوائل من الامويين ، وكان حلم معاوية ممداً بأجلها . ان الحياة الملكية التي بدأت في الاسلام بحكم الأمويين كان من شأنها ان تقضي على الشمائل الفطرية التي يتخلق بها الشعب العربي ، ولكن مشاركة مؤسسي الدولة الاموية في هذه الاخلاق بالاضافة الى سعة صدر معاوية ، كانت تفسح لها المجال للامتداد الى زمن اطول .

وحسبنا ان نرجع الى الجزء الاول من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ونقرأ تلك المحاورات التي نشبت بين معاوية وبين الوافدات عليه من انصار علي كأروى بنت عبد المطلب ، وسودة بنت عمارة ، وأم سنان بنت جشمة ، ودار ميه الحجونية . حسبنا ان نرجع الى ذلك لنقدر الانفة والجرأة والاعتماد على النفس والصراحة ، تلك الصفات التي كان يتحلى بها نساء ذلك العصر ، ولنقدر ايضاً في المؤسس الاول لملك الأمويين حلمه ودهاءه وبعد نظره . على ان المقام وان لم يكن يتسع لذكر هذه المحاورات فلا أقل من ايراد نماذج منها :

« حج معاوية فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها دارمية الحجونية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فجيء بها فقال : « ما جاء بك يا ابنة حام ؟ » فأجابته : «لست لحام ان عبتني : انا امرأة من بني كنانة » قال « صدقت أتدرين لمَ بعثت اليك ؟ » قالت : « لا ، لا يعلم الغيب الا الله . » قال « : بعثت اليك لأسألك علامَ احببت عليا وأبغضتني ، وواليته وعاديتني ؟ » قالت :

«أو تعفيني ؟ » قال « : لا اعفيك !» قالت : « اما اذا ابيت ، فاني احببت علياً على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية . وأبغضتك على قتال من هو اولى منك بالأمر ، وطلبتك ما ليس لك بحق . وواليت عليا على ما عقد له رسول الله(ص) من الولاء ، وحبه للمساكين ، واعظامه لأهل الدين . وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى» !قال: « فكذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ،وربت عجيزتك » قالت : « يا هذا بهند ،والله،كان يضرب المثل في ذلك لابي !» (وهند ام معاوية) .

قال معاويه : « يا هذه اربعي على نفسك فانا لم نقل الا خيراً . انه اذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها ، واذا عظم ثدياها تروى رضيعها، واذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها ! » فرجعت وسكنت . ثم قال لها : « يا هذه هل رأيت علياً ؟ » قالت « : اي والله » قال : « فكيف رأيتيه ؟ » قالت :« رأيته ، والله ، لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك ! » قال : « فهل سمعت كلامه ؟ » قالت : « نعم والله ؛ فكان يجلو القلوب من العمى ، كما يجلو الزيت صدأ الطست . » قال : « صدقت . فهل لك من حاجة ؟ » قالت : « او تفعل اذا سألتك ؟ » قال : « نعم » قالت : « تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها . » قال : « تصنعين بها ماذا ؟ » قالت : « اغذي بألبانها الصغار ، واستحيي بها الكبار ، واكتب بها المكارم ، واصلح بها بين العشائر. » قال« فان اعطيتك ذلك فهل احل عندك محل علي بن ابي طالب؟»قالت: «سبحان الله او دونه ؟ » فانشأ معاويه يقول:

اذا لم اعد بالحلم مني عليكم فمن ذا الذي بعدي يُؤمل للحلم ؟
خذيها هنيئاً،واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : « اما والله لو كان علي حياً ما اعطاك منها شيئاً » قالت : « لا

والله ، ولا وبرة واحدة من مال المسلمين ! »

على ان حلم معاوية تعدى هذا الحد حتى وسع اللواتي حملن السيوف في صفوف علي كالزرقاء بنت عدي ،وام الخير بنت حريش . فلما استتب له الأمر استقدمهما اليه وحاورهما ، فكانت كل واحدة منهما مثلاً حياً على الوفاء ، وعلى الجرأة الأدبية : الخلتين اللتين كانتا لا تزالان حلية العصر .

استقدم معاوية الزرقاء عزيزة مكرمة ، فرحب بها ، وهش لها ، وقال لها :

« كيف حالك يا خالة ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ » قالت : « خير مسير ، كأني كنت ربيبة بيت ، او طفلاً ممهدا . » قال : « بذلك أمرتهم . فهل تعلمين لم بَعثت اليك ؟ » قالت : « سبحان الله أنى لي بعلم ما لم اعلم ؟ وهل يعلم ما في القلوب الا الله ؟ » قال : « بعثت اليك لاسألك : ألست راكبة الجمل الاحمر بصفين بين الصفين توقدين الحرب ، وتحثين على القتال ؟ فما حملك على ذلك ؟ » قالت : « يا امير المؤمنين . انه قد مات الرأس ، وبتر الذنب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر . » قال لها : « صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ » قالت : « ما احفظه . » قال : « لكنني والله احفظه . لله ابوك لقد سمعتك تقولين (وذكر مقالتها التي اسلفتها .) ثم قال : « والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه . » فقالت : « احسن الله بشارتك ، يا امير المؤمنين وأدام سلامتك ، مثلك من بشر بالخير ، وسر جليسه . » قال : « وقد سرك ذلك ؟ » قالت : « نعم لقد سرني قولك . فأنى بتصديق الفعل ؟ » قال : « والله لوفاؤكم له بعد موته احب اليّ من حبكم له في حياته !! أذكري ما حاجتك . » قالت : « يا امير المؤمنين اني قد آليت على نفسي ألا اسأل اميراً أعنت عليه شيئاً ابداً : ومثلك اعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلب . » قال : « صدقت فاقطعها ضيعة أغلتها في اول سنة

عشرة آلاف درهم ، وردها والذين معها مكرمين . (العقد الفريد ج ١ ص ١١٣) .

واستقدم معاوية ايضاً ام الخير واكرم وفادتها ، ثم تحدث اليها بعد ذلك فكانت تلين كلما لان ، وتخشن كلما خشن . فاذا عاود اللين قائلاً : « ليس لهذا اردناك . » أجابته في قوة المؤمن : « انما اجري في ميدانك . اذا اجريت شيئاً أجريته . » وراح يسألها عن عثمان ، وطلحة ، والزبير ، وهي تقول ، في ذلك كله ، بالحق حتى ردها عزيزة مكرمة الى مأمنها (عفيفي المرأة العربية ج ٢ ص ١٦٤) .

وهذه المحاورات وامثالها التي دونها التاريخ دليل على ان ملك الامويين العضود لم يستطع ان يطمس ما كان عند اهل ذلك الجيل من الشمائل التي تعود لعصر البداوة . ذلك لان الاخلاق هي بنت الزمان ، ولا يبدلها الا الزمان ؛ ولأن الاسلام دين فطري جاء مؤيداً لتلك الأخلاق الفاضلة. على ان هذه الاخبار وان كان وجود المبالغة فيها محتملاً الا انها على كل حال ، وقد تواردت تشير الى ما كانت تتحلى به نساء العصر ، فضلاً عن رجالهم ، بالجرأة الأدبية والصراحة والحرية .

بيد ان معاوية بن أبي سفيان داهية العصر ، الذي كان لهذه الجرأة مشجعاً، قضى نحبه ، وأصبحت نوادر حلمه مضرب الأمثال في التاريخ . ومع ذلك فقد ظلت الجرأة الأدبية ناشطة زمناً بعده ، ولا سيما عند الاعراب . فعلى رغم ما استفاض من انباء شدة عبد الملك بن مروان ، ومحاولته اخفات صوت الحرية حتى انه نهى عن الكلام بحضرته ،وحتى انه اعرب في خطبة له عن كرهه ان يؤمر بمعروف حيث قال : «والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه » فعلى رغم ذلك كله فان التاريخ يروي لنا ان تهديده ووعيده ذهبا ادراج الرياح في استئصال جذور الحرية . وآية ذلك ما رواه ابن حجة الحموي

في كتابه ثمرات الاوراق (على هامش المستظرف ج ١ص ٥٢)عن حوار عبد الملك مع عزة كثير ،وبثينة جميل حيث قال: «دخلت عليه بثينة وعزة فانحرف الى عزة وقال: «انت عزة كثير ؟ قالت: « لست لكثير بعزة ، لكنني أم بكر .»قال ، وقد أراد التلميح بسلوّ محبها لها ،« أتروين قول كثير :

«وقد زعمت اني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغير ؟»

فأجابته، وهي تريد انكار ذلك على عشيقها كثير ،وتوري بشغفه بها : لست اروي هذا ، لكنني أروي قوله :

«كأني انادي او أكلم صخرة من الصم لو تمشي بها العصم زلت»

ثم انحرف الى بثينة،وقال :«انت بثينة جميل ؟»قالت:«نعم يا امير المؤمنين» قال: «ما الذي رأى فيك جميل حتى لهج بذكرك بين نساء العالمين ؟» قالت : « الذي رأى الناس فيك فجعلوك خليفتهم . » فضحك عبد الملك حتى بدا له ضرس اسود ، ولم يُرَ قبل ذلك ؛ وفضلها على عزة في الجائزة .

بيد ان لكل بداية نهاية : فما ان مضى صدر الاسلام حتى مضت معه تلك الاخلاق الفطرية المحمودة التي كان يتحلى بها العرب . واذا بالجرأة الأدبية ، التي كانت تتجلى في عهد الخلفاء الراشدين ، وأوائل الأمويين ، تذوب شيئاً فشيئاً ، واذا بالعرب،وقد تسربت اليهم اخلاق الأعاجم قبل أن يحكمهم هؤلاء، يسلكون مسلكهم في الأخذ بالمصانعة والمداراة؛ واذا بالناس يمسون غير الناس.

٣ - الحب والعفاف في صدر الاسلام والتشبيب والغزل

مذ وجد الانسان في الكرة الارضية وجد معه الحب المتبادل بين الرجل والمرأة لانه الحافز للانتاج ، ولبقاء البشر .

ومذ عمد الناس الى تنظيم الزواج والتحول عن سنة الشيوع التي كانت متبعة في العهد البدائي رافق احياناً الزواج الخيانة واعتبر النـــاس الخروج عن ذلك التنظيم بغاء . ذلك بأن هذا الكون قائم على الجمع بين الاضداد حتى انك لاترى خيراً فيه الا والى جانبه شر ، ولا تشاهد جبلا الا والى جواره واد او سهل .

بيد ان البغاء ومثله العفاف لم يكن لهما في كل الازمان تحديدواحد،وتعريف متفق عليه. بل كان الناس، ولا يزالون،يختلفون في تقديرهما باختلاف مقاييسهم الاجتماعية ، واعتباراتهم القومية .

واما في العصر الجاهلي فالزواج ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ، وان كانت على شيء كثير من الفوضى ، كما اوضحنا ذلك في كتابنـــا « المرأة في التاريخ والشرائع » ، الا انهم كانوا ، مع ذلك ، جد حريصين على العفاف والصيانـة حتى بلغ حرصهم حد كراهية البنات ، وقدوأد بعضهم بناته احياء خوفاً من عار يلحقه في يوم آت .

« واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى عن القوم من سوء ما بشر به : أيمسكه على هون ؟ ام يدسه في التراب ؟ . الا ساء ما يحكمون» . سورة النحل .

وبلغ حرصهم على العرض ان بيت شعر واحد من قصيدة ارسلتهـا ليلى بنت لكيز (المتوفاة سنة ٤٨٣ م) من اسرها في فارس الى ابن عمهـا البراق اثار بني ربيعة وانصارها فأطبقوا على الفرس وخلصوها من الاسر ، وهو :

«غللوني قيدوني ضربوا ملمس العفةمني بالعصا »

وهي قصيدة غنتها أسمهان ، ولا تزال الاذاعات ترددها ، وقد ختمتها ليلى بتحذير قومها من العار الابدي قائلة :

احذروا العار على اعقابكم

وعليكم ما بقيتم في الدنا

وكانوا اذا توسم رجل من رجل نظرة الى امرأته او اخته بريبة طلبه الى التبارز ، او التجالد ، او المصارعة : وربما انتشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة ما، كما حدث يوم الفجار الثاني [1] . على ان الحب ، وهو امر طبيعي ، لم يكن بوسع العرب او غيرهم منع وقوعه ، ولكنهم كانوا يحظرون على العاشقين الخلوة حظراً شديداً ، ويمنعونهم من الزواج بعضهم من بعض (الاغاني ج ٢ ص ٨).ولهذا ابى اهل ليلى تزويج ابنتهم من ابن عمها قيس بن الملوح في حين انه كان احسن حالاً منهم . ولا زالوا كذلك حتى الان .

ولما ظهر الاسلام وضع احكاماً للزواج والطلاق وتعدد الزوجات ، وحرم وأد البنات، وشدد على الزنى وجعل قصاص المتزوجين،اذا ارتكبوه،اشدعقوبة منه بغير المحصنين والمحصنات [2] .

وكان المسلمون في صدر الاسلام قريبين من عهد البداوة فحرصوا حرص آبائهم على العرض ، وزادوا عليهم في التزام العفاف، واعتباره من اشرف الخصال ، لا خوفاً من القصاص فحسب ، وانما خوفاً من عذاب اليم يوم لا تنفع فيه شفاعة .

---

١ – يرجع الى كتاب المؤلف« المرأة في التاريخ والشرائع »في تفصيل الحادثتين : حادثة ليلى بنت لكيز « ص ١٢٢ » وحادثه حرب الفجار الثاني « ص ١٢٧ » .

٢ – ففي غير المحصنين والمحصنات ممن لم يتزوجوا يقضي الاسلام بجلد مائة جلدة، وتغريب عام . وفي المتزوجين رجم بالحجارة حتى الموت .

زد على ذلك ان حياة العرب في صدر الأسلام كانت حياة نضال وجهاد غيرها في الجاهلية حيث الفراغ يتسع لاذكاء العواطف . فكان انصرافهم ، في بداية الامر ، لمحاربة الوثنية في شبه الجزيرة ، ثم انصرافهم من بعد لفتح بلاد قيصر وكسرى التي وعدهم بها نبيهم لما يشغل اذهانهم ، ويحوّل البابهم عن كل شيء من ملذات الحياة سوى تحقيق الاماني الدينية والسياسية .

وهذه الحياة بالاضافة الى الوراثة واوامر الدين المرعية عززت مقام العفاف عند الرجال والنساء ، اشد من كل وقت آخر . غير انهم عدلوا اي المسلمين عن سنة العرب بمنع تزويج الرجل من امرأة استحسنها واحبها .

ولقد كان لعلي بن ابي طالب جارية صبيحة الوجه ، وكانت كلما ذهبت في شأن من شئون الامام طارحها الهوى احد الشباب فتمر بقوله مرور الكرام على لغو الكلام . وأسرف الفتى في اعتراض طريقها ، وهي تسمع منه ما ربما ايقظ هواها . ولكنها كانت تكظم عاطفتها حتى قصت الامر على علي فاراد ان يتعرف : هل طالب شهوة أم راغب في زواج ؟ فقال لها : « اذا عاد فحدثك بما حدثك من قبل فاظهري له موافقة واستجابة . ثم انظري ما يفعل . فلما لقيها وقال بعض ما كان يقول قالت له اني اجد ما تجد . فقال : «اذن فاصبري وأصبر حتى يجمع الله بيننا . »وعادت الجارية تخبر الامام بمقالة الرجل فعمل من فوره على زواجه منها . انها العفة التي كظمت بها الجارية شجوها ؛ وهي كذلك العفة التي قال بها الرجل : «تصبري واصبر».

والى ذلك فان الآباء على عهد الرسول كانوا من شدة حرصهم على العرض لا يتورعون عن عرض بناتهم على الذين يتوسمون فيهم الرغبة في الزواج . وكان يتم هذا في صراحة ونظافة وادب جميل . عرض عمر ابنته حفصة على ابي بكر فسكت . وعلى عثمان فاعتذر . فلما اخبر النبي (ص) بهذا طيب

خاطره ، ثم تزوجها . وعرضت امرأة نفسها على رسول الله فاعتذر لها، فالقت اليه ولاية امرها يزوجها من يشاء ، فزوجها رجلاً لا يملك الا سورتين من القرآن علّمها أياهما ، فكان هذا صداقها » (سيد قطب (مجلة المسلمون ع ٣٣ ص ٦٣ م ٧) .

ان في ذلك لعبرة بما حدث بين العرب بين ليلة وضحاها من التطور الاخلاقي في صعيد دفع الخوف من العار . كانوا في الجاهلية ، كما كانوا في صدر الاسلام ، شديدي الحرص على الاعراض. غير ان هذا الحرص كان يحمل بعضهم في فترة الجاهلية على وأد بناتهم احياء ، واما في الاسلام فكان من المألوف عرضهن على الراغبين في الزواج دون ان تخدش مع هذا العَرض كرامة ، او يمس حياء . بلى فانه لتطور عجيب غريب ، واعجب ما فيه ان العارض كان عمر الذي لم تلد الامهات كثيراً مثله انفة واباء وعزة نفس .

٤ – الحب في صدر الاسلام

ان اهل البادية في صدر الاسلام ظلوا اكثر التصاقاً بالتراث الجاهلي من اهل الحضر. وقد تحدثت كتب الادب كثيراً عن عشاقهم وعاشقاتهم الذين كانوا اكثر من اتهموا في عفتهم. وأنا لنلاحظ مسرعين مايكون احياناً حين يخلو رجل بامرأة تيمها الحب ، ثم نذكر من امر هؤلاء الذين اضناهم الغرام فنرى بعد الشقة بين ما كان منهم وبين ما اتهموا به . لقد كان احدهم يتجافى عن محبوبته حين يلتقيان بعد ان تراخت بينهما المنازل ، وبعدت الديار ، وحال دون لقائهما زمن طويل، وعادات متبعة . ويقتصر على بث الشكوى ، وتناشد الاشعار .

روى عثمان الضحاك قال : « خرجت اريد الحج فنزلت بخيمة بالأبواء ، فاذا بجارية جالسة على باب خيمة ، فاعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب :

بزينب ألمم قبل ان يدخل الركب   وقل لا تملينا فما ملّك القلب !

فقالت : يا هذا . أتعرف قائل هذا البيت ؟ قلت : «بلى هو نصيب» . فقالت : «أتعرف زينب» ؟ قلت : لا قالت : « انا زينب» . قلت : « حياك الله وبياك .» قالت : « والله ان اليوم موعده . وعدني العـام الاول بالاجتماع في هذا اليوم . فلعلك لا تبرح حتى تراه .» قال فبينما هي تكلمني إذا انا براكب . قالت : «ترى ذلك الراكب ؟» قلت : «نعم» . قالت : «اني لأحسبه اياه ، فأقبل الراكب فاذا هو نصيب ، فنزل قريباً من الخيمة ، ثم اقبل فسلم ، ثم جلس قريباً منها ، فسألته ان ينشدها فانشدها ، فقلت في نفسي . محبان قد طال التنائي بينهما فلا بد ان يكون لاحدهما الى صاحبه حاجة ، فقمت الى بعيري لاشد عليه ، فقال نصيب : « على رسلك ، اني معك » فجلست حتى نهض معي ، فسرنا وتسامرنا فقال لي : « أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تنـاء ، فلا بد ان يكون لاحدهما الى صاحبه حاجه ؟ » قلت : « نعم » ، قال : « ورب هـذا البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلسا هو اقرب من مجلسي هذا !! » فتعجبت لذلـك ، وقلت : «والله هذه هي العفة في المحبة » (المستظرف للأبشهي ج ٢ ص ١٤٦) .

وُحق للضحاك ان يعجب مما رآى : يجتمع حبيبان ترقبا لحظة اللقاء عاماً ، حتى اذا اجتمعـا لم ينكرا قعود الغريب بينهما ، والمحبون ضنينون على الخلوة حتى مع العفة . والواقع ما كان نصيب وزينب من فلتات ذلك العصر بل كان على شاكلتهما معظم المحبين .

قال ابو سهل الساعدي : «دخلت على جميل (صاحب بثينة) وبوجهه آثار الموت فقال لي : « يا ابا سهيل ان رجلاً يلقى الله ولا يسفك دما ، ولم يشرب خمرا ، ولم يأت فاحشة ، أفترجو له الجنة ؟! » قلت « اي والله فمن هو ؟» قال : « اني لأرجو ان اكون ذلك » . فذكرت له بثينة فقال : . «اني لفي آخر يوم من الدنيا ، واول يوم من الآخرة ، لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ان كنت حدثت

نفسي بريبة قط » (المستظرف ج٢ ص ١٤٥) .

– واعتبارات الناس تختلف كما يختلفون آراءً ومذاهب في الحياة ، واذا كان كثير لا يرى في القبلة حين تسامح بطلبها من عزة بأساً على العفة ، فان عزة – وهي تبادله الحب وتطارحه الصبابة ، ويخلوان ويأمنان عين الرقيب – انكرت على كثير ما طلب من تقبيلها ، فهي في ذلك على مذهب القائل : « ان القبلة تفسد الحب ! » وتأمل جوابها لعاتكة في المحاورة التالية :

وفدت بثينة وعزة على عبد الملك بن مروان فامرهما ان يدخلا على عاتكة زوجته ، فدخلتا عليها فقالت عاتكة لعزة : « اخبريني عن قول كثير :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها ! »

وما كان دينُه؟! وما كنت وعدته ؟! » قالت عزة : « كنت وعدته قبلة ، ثم تأثمت منها . فاجابتها عاتكة : « وددت انك فعلت وعلي اثمها ! » ثم ندمت عاتكة على قولها ، واعتقت كفارة عن اربعين رقبة »[1] . ومثل « عزة » في عفافها ودفع صاحبها عما فيه ريبة « ليلى الاخيلية » الشاعرة المشهورة ، وهي حبيبة « توبة بن الحمير » . وقد ذاع حبهما وطبق الافاق . ولكنها رغم خلوتها بتوبة وتناشيدهما الشعر بقيت على وفائها لزوجها .. قال لها الحجاج : « ان شبابك قد مضى ، واضمحل امرك ، فاقسم عليك الا صدقتني . هل كان بينكما ريبة قط ، او خاطبك في ذلك ؟ » قالت : « لا والله ايها الامير . الا أنه قال لي ليلة – وقد خلونا – كلمة ، ظننت انه قد خضع فيها لبعض الامر . فقلت له .

---

١ ثمرات الاوراق لابن حجة الحموي ص ٥٣ .

وذي حاجة ، قلنا له : لا تبح بها فليس اليها - ما حييت - سبيل
لها صاحب لا ينبغي ان تخونـــه وأنت لاخرى صاحب وخليل !

فلا - والله - ما سمعت بعدها منه ريبة حتى فرق بيننا (فوات الوفيات ابن شاكر الكتبي ج ٢ ص ١٤١) .

وبعد ... فما عسى ان تكون الحاجة التي أشارت اليها ليلى ... ايها القارىء العزيز ؟!

ذكروا أنه سألها ان تمكنه من تقبيل يدها !! وفي « الروض » انه سألها قبلة ، ولكن ليلى اعتصمت بأبائها وعفافها ، ومنعته ما طلب ، كما اثبتت كرامتها ، وترفع نفسها عن مواطن الريب في مناسبات اخرى

فقد غضبت حين سمعت قصيدة توبة التي زعم فيها دخول خدرها ، وانزاله ستره حيث قال :

فمدت لي الاسباب حتى بلغتهـا برفقي ، وقد كان ارتفاقي يضيرها
فلما دخلت الخدر اطّت نسوعـه وأطراف عيدان شديد سيورهـا
فأرخت لنضاح الذفارى منصة وذي سيرة قد كان قدما يسيرهـا

وأمسكت عن كلامه حيناً حتى توسل اليها ، وعرض عليها أن يستقي السم إن لم تكلمه ، فجمعت ثلاثة من أهلها - بحيث يخفون عليه - واستحضرتـه ، فلما آنسته . قالت : « أي خدر دخلت معي حتى تقول ما تقول؟! » فأجابهـا : «هذا استرسال الشعراء» ، ثم ذكر لها امثال ذلك في أشعارهم وتنصل . فارتاحت الى تصريحه وغفرت له . (تزيين الاسواق ص ٩٨) .

وبعد فان تاريخ صدر الاسلام زاخر بأروع امثلة العفاف ، وفيما ذكرنا من

أمثلة كفاية نختمها بالاشارة الى الشاعر الجميل العفيف أبي دعبل - من سادات بني جمح – وما كان بينه وبين عمرة الجمحية من صحبة شريفة عيوفة عن كل اثم (المنار المجلد الرابع ص ١٥٥) .

وهذه الامثلة التي ذكرناها عن الحب في صدر الاسلام قد جرت بين اهل البادية الذين ظلوا اشد اتصالاً من اهل الحضر بالتراث الجاهلي ، واشهرهم بنو عذرة ، والذين كانت قلوبهم اوفر فراغاً من سائر المسلمين ، واذهانهم اكثر خلواً من احداث ذلك العصر عصر النضال والفتح . واما من عداهم فقد تأثروا بأوامر الدين ، ولا سيما ما كان منها يتصل بالعفاف :

« والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم ، او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون » (سورة المؤمنون) .

على ان الحب عندهم اتجه اتجاها جديداً : اتجه شطر محبة الله ورسوله :

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم » (سورة آل عمران .) وقد وجدوا انفسهم ، وجهاً لوجه حيال ، مشاغل اجتماعية وسياسية صرفت اذهانهم عن ملذات الدنيا ، الا ما كان منها مباحاً ، وشغلت البابهم عن كل شيء الا لذة تحقيق الأماني الدينية والسياسية .

٥ - التشبيب في صدر الاسلام والغزل

كان تشبيب الشعراء بالنساء معروفاً عند اهل الجاهلية ، وظل كذلك في صدر الاسلام. غير انه تحور في هذا العهد وتحرر مما كان عليه في الجاهلية من خلاعة وتهتك ، واصبح التشبيب مجرد تغزل بامرأة غير معروفة، جرياً على ما بقى من إلف القوم ، ليخلص الشاعر بعد ذلك الى غرضه من المدح او الحماس

او الفخر ، كما فعل كعب بن زهير بقصيدتة « بانت سعاد » التي مدح بهـا النبي ، معتذراً عن تأخر اسلامه، وكافأه النبي عليها فأهداه « بردته ».ومطلع القصيدة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها – لم يُفد – مكبول

..فالاسلام كره لاتباعه –وعلمائه خاصة – أن يستشهدوا بشعر فيـه غزل او تشبيب حقيقيان من كلام شعراء الجاهلية ، اللهم الا لايضاح حكمة لغوية في القرآن او السنة النبوية !!

وكان صاحب الرسالة راغباً عن الخيالات حاثاً على الجديات ، صارفاً العرب عن سائر الشعر بعد ان كاد يكون جزءاً من قوميتهم ، شاغلاً مواهبهم بالدين ، صارفاً هممهم الى اعلاء كلمة الله . وكان يبغض اليهم – اشـد البغض – الغزل والتشبيب .

وقد اسلفنا ان الرسول كان يكبر حسان ، وكان ينصب له المنبر في المسجد ويدعو ان لا يفضض الله فاه ، وأن يؤيده بروح القدس مـا دافع عن رسوله . ونزيد على ذلك ان الرسول كان يسمع بشعر الخنساء ، ويستزيدها وهو يقول : « إيه يا خنـاس ! » وان ام المؤمنين عائشة ، برغم اشتراك حسان في حديث الافك ومقاطعتها له في فتن طويلة ، استأذن عليها يوماً فأذنت له . وقال قومها « كيف وهو من القوم » – اي الذين شاركوا في الافك ..فقالت ان الرجـل الذي يقول :

فأن ابي ووالده وعرضي   لعرض محمد منكم وقاء

يُغفر له كل شيء !!

ففيما سوى التشبيب والكذب في الشعر يجـل الاسلام قدر الشعر ، ويُقدر رجاله . ولقد جرى الخلفاء الراشدون ، ومن تبعهم على سنة عدم الاستشـهاد

بتشبيب الجاهلية وغزلها الا لايضاح حكمة لغوية في القرآن او السنة ، جاعلين التشبيب ذنبا يستوجب القصاص .. ولقد ذكر عن عمر انه ما كان يسمع بشاعر شبب بامرأة الا جلده .

.. ولم يرو في التاريخ ذكر للمشببين او العشاق في عصر الخلفاء ، غير نفر من اهل البادية . واكثر ما كانت عناية الخلفاء ومن تبعهم في الترغيب عن الشعر بحفظ القرآن ، بعد ان قتل في عهدهم حفاظ كثيرون في الجهاد ، بل بلغ من حرصهم على حفظ القرآن انهم كانوا يشددون على الناس حتى في رواية الحديث. وقد ونهى النبي عن كتابته فقال – فيما رواه مسلم وغيره – لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن .فمن كتب عني غير القرآن فيلمحي » (اضواء على السياسة المحمدية لمحمود ابي رية ص ٨)

ولما صارت الدولة للامويين ، وخف سلطان الدين صار وميض العواطف الانسانية ضراما ، وعاد الشعر الى جولاته الكبرى ، وألفى التشبيب في انقسام الامراء وحروبهم ، وسياسة معاوية ولينه (٤١ – ٦٠ ﻫ) مخرجاً حتى جرأ احدهم على التشبيب بابنة معاوية نفسه ، ولم يغضب معاوية لذلك،ولكنه تلطف مع الرجل ودفعه بالدهاء والسياسة !

« روي ان عبد الرحمن بن حسان شبب بابنة معاوية وهو خليفة في إبان مجده ، وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ، ودخل على أبيه وحثه على قتله ، راوياً له اكثاره من التغزل في اخته « عاتكة » وشيوع خبرهما بين الناس ، وذكر له انه قال :

« طال ليلي وبت كالمجنون ومللت الثواء في جيرون »

فاستوقفه معاوية بقوله : « يا بني ، وما علينا من طول ليله وحزنه؟! أبعده الله » قال يزيد : فإنه يقول :

« فلذاك اغتربت في الشام حتى ظن اهلي مرجمات الظنون »

قال : « يا بني ، وما علينا من ظن أهله ؟! » قال : إنه يقول :

« هي زهراء مثل لؤلؤ الغوا ص ميزت من جوهر مكنون »
« واذا ما نسبتها ، لم تجدها في سناء من المكارم دون ! »

قال معاوية عند سماع كل بيت منها ، « هي كذلك يا بنيّ ، ولقد صدق ». قال يزيد ، انه يقول :

« ثم خاصرتها الى القبة الخضر اء ، تمشي في مرمر مسنون »

قال : « ولا كل هذا يا بني » فأتم يزيد القصيدة ، وقال :

« قبة من مراجل ضربوها عند برد الشتاء من قيطون »
« عن يساري اذا دخلت من البا ب، وان كنت خارجاً عن يميني »
« ولقد قلت اذ تطاول سقمي وتقلبت ليلتي في فنون »
«ليت شعري أمن هوى طار نومي أم براني الباري قصير الجفون ؟ »

ومعاوية يدافع ويخفف من حدته ، مظهراً انه لا يرى فيه ما يستحق العقاب . ولما كلمه في ذلك بعض حاشيته وقالوا : « لو جعلته نكالا ؟! » قال معاوية : « لا ، ولكن اداويه بغير ذلك !! »

واتفق ان عبد الرحمن وفد على معاوية ، وكان يدخل في أخريات الناس ، فاستقبله احسن استقبال ، واجلسه على سريره معه ، واقبل عليه بوجهه وحديثه . ثم قال له : « ان ابنتي الاخرى عاتبة عليك ! » قال : « في اي شيء ؟ » قال : « في مدحك اختها ، وتركك إياها » . قال : « فلها العتبى وكرامة ، انا ذاكرها وممدحها » . فلما فعل ، وبلغ ذلك الناس قالوا : « قد

كنا نرى تشبيب عبد الرحمن بابنة معاوية لشيء ، فاذا هو على رأي معاوية وامره !!. وعلم من كان يعرف ان ليس لمعاوية بنت اخرى أنه انما خدعه ليشبب بها ، ولا اصل لها ، فتأكدوا كذبه بالاولى لما شبب بالثانية !! (تزيين الاسواق ج ٣ ص ٢٥) .

إن سياسة معاوية هذه لعبد الرحمن بن حسان ومعاملته بمثل ذلك ابا دعبل الجمحي في دفعه عن التشبيب ايضاً بابنته ، وان افادتا في هذا السبيل افادة خاصة ، الا انهما ساعدتا على انتشار التشبيب وامتداده .

على ان معاوية لم يكن في الواقع يتسامح في التشبيب ، فلقد اشتكى اليه كل من اهل « لبنى» صاحبة قيس بن ذريح ، « وليلى »صاحبة قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى ، تشبيب هذين العاشقين في ابنتيهما فأهدر دمهما . وكذلك فعل عبد الملك بن مروان في اهدار دم جميل «بثينة»ناهيك بما فعل عامل المدنية،اذ نفى الأحوص الشاعر لانه شبب ببعض نسائها ..

ولما بلغ الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ان وضاح اليمن شبب بامرأة الوليد اعدمه ، كما ان عمر بن عبد العزيز منع ابن ابي ربيعة عن التشبيب منعاً باتاً . والجدير بالذكر هنا انه فيما عدا عشاق الاعراب ، فان مشاهير المشببين كان معظمهم من قريش ، لاحتمائهم بعصبيتهم كأبن ابي عتيق - وهو ابن حفيد ابي بكر - وعمر بن ابي ربيعة ، والعرجي ، ووضاح اليمن وسواهم ... لكن هؤلاء الشعراء كانوا يزاولون ذلك اندفاعاً وراء عاطفة الصنعة فقط ، خصوصاً اولئك الذين اشتهر عنهم الورع والتقوى . فقد قيل ان ابن ابي عتيق كان من اهل العفاف والطهر ، وان ابن ابي ربيعة يحسبه من سمع كلامه من اجرأ الناس على فاحشة وهو لم يحل إزاره على حرام !

زد على عاطفة الصنعة هذه ان بعض النساء في صدر الاسلام كن يرغبن في التشبيب ، وترغب فيه بعض آمائهن ، فاستسهل بعض الشعراء الوعيد فيه

وراحوا مع قلوبهم وعواطفهم يشببون إما عن طمع بالمكافآت ، واما عن صنعة وتكلف ...

ولقد كان الشعر عندهم بمقام الصحف اليوم عندنا ، وبمقام الاذاعات ووسائل النشر السريعة . فاذا انشدت قصيدة ما ، تداولتها الرواة من قبيلة الى قبيلة ، وتغنى بها المغنون ، ورفعت من قيلت له ان كانت مدحاً ، ووضعته إن كانت قدحاً ، لا سيما اذا كان قائلها مشهوراً . وهكذا كان التشبيب مدعاة لشهرة بعض النساء ، ووسيلة لوفرة خطاب بعضهن في ذلك العصر ، كما كان من قبل على عهد اعشى قيس حين لفت بشعره الانظار الى المحلق وبناته ..

... وقد حدث في العهد الاموي ان نصيباً مولى عبد العزيز بن مروان قال ثلاثة ابيات في ابنة مهملة من البادية . فسلطت عليها الاضواء ، وخطبت من اجلها ! واليك تفصيل الخبر ..

« استسقى نصيب فتاة ماء فسقته لبناً ، وطلبت اليه ان يشيد بها . فقال « ما اسمك ؟ » قالت : «هند» . قال« وما اسم هذا البلد » قالت : « قبا » فانشأ يقول :

احب قبا من حب هند ولم اكن ابالي اقرباً زاده الله ام بعدا

الا ان بالقيعان من بطن ذي قبا لنا حاجة مالت اليه بنا عمدا

ازدني قبا انظر اليه ، فانني احب قبا اني رأيت به هندا !!

فشاعت هذه الابيات ، وتزوجت بها هند .. »

من اجل هذا الاثر للتشبيب ، رغب فيه عذارى النساء والمتزوجات منهن على السواء ، بل تساوى في الميل اليه العظيمات والحقيرات . وقيل ان زوجة الوليد بن عبد الملك هي التي اقترحت على وضاح اليمن ان يشبب بها ، كما ان

ام محمد بنت مروان بن الحكم اخت عبد الملك هي التي خضت عمر بن ابي ربيعة ان يخلدها بشعره (جرجي زيدان–اداب اللغة العربية ج١ ص ٢٤٣)

وروي ان ابنة عبد الملك بن مروان ارادت الحج فخاف ابوها ان يشبب بها ابن ابي ربيعة ، فاستكتب الحجاج اليه ان هو فعل ذلك اصابه بكل مكروه . فلما قضت حجها ، خرجت ، فمر بها رجل ، فقالت له : « من انت ؟ » قال : « من اهل مكة » .قالت : « عليك وعلى اهل بلدك لعنة الله » قال : « ولمَ ذاك ؟ » قالت : « حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر الأعين مثلهن ، فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره ابياتاً نلهو بها في الطريق من سفرنا ؟ » قال : « اني لا اراه الا قد فعل » . قالت : « فأتنا بشيء إن كان قاله ، ولك بكل بيت عشرة دنانير » فمضى اليه واخبره فقال : « قد فعلت ولكن احب ان تكتم علي وانشد قصيدة قالها فيها » .

ثم ضعف التشبيب بمرور الزمن وتمكن الحضارة من نفوس العرب ، وبتأثير عقوبات الخلفاء والولاة (الاغاني ج ٢ ص ١٨١) ، وحول الشعراء شعرهم من الجهر في امرأة معينة الى الغزل يبثون فيه عواطفهم من غير تحديد انثى ، ويهيمون في كل واد من ارض الخيال ، ويتبعهم الغاوون ، وحسبك منهم انهم يقولون ما لا يفعلون !!

– ٦ – الاقتصاد في الكرم والجودُ في الصدقات

وجوه الكرم تختلف باختلاف البيئات الاجتماعية وذلك بمقتضى حاجة كل منها الى الجود : فبيئات الاعراب البدائية حيث لا يجد المسافرون منازل مأجورة تأويهم وتطعمهم في اسفارهم ، وحيث لا تقوم فيها انظمة مقررة مدونة تجعل للفقراء حقاً في اموال الاغنياء ، يأتي اكرام الضيوف ، والعطاء للمحتاجين واطعامهم يأتي عفوا من الناس ، وعلى مقدار سماحة قلوبهم . فيبدو الكرم جلياً

بمقدار هذه السماحة ، ويبلغ حد ايثار بعضهم الضيوف وابناء السبيل والفقراء على انفسهم .

واما في البيئات الحضارية فان الكرم فيها يبدو على وجوه اخرى لا يعرفها اهل البادية : فهذه البيئات ، التي قامت على اسس اجتماعية ، قررت حقوق الفقراء ، ووفرت للمسافرين منازل مأجورة تستقبلهم اذا وفدوا ، اعتمدت على التنظيم في كل امورها ، وشمل تنظيمها الكرم نفسه ، وحولته الى حاجات اخرى ملازمة لشروط حياتها ، فاذا به يعتدل ، واذا به يظهر بمظر جديد .

ولما ظهر الاسلام ونشأ في وسط اجتماعي حضري كان كواحة في بيداء تحيط بها البداوة من كل اطرافها . فكان هذا الوسط كما يتأثر بحضارات الامم المتصلة به يتفاعل ايضاً بالبداوة الملتفة حوله . فانبرى الاسلام الى تحضير شبه جزيرة العرب ، والى اقامة مجتمع لاتباعه ، حيث كانوا ، على اسس حضرية منظمة ، وتناول فيما تناوله تنظيم الضمان الجماعي بفرض الزكاة ، وتقرير حق الفقراء والمساكين وابناء السبيل في اموال الاغنياء ، وفي بيت مال المسلمين . فأثر فيما اثر في الكرم الذي ضربت بالعرب فيه الامثال . وما زالت انباء حاتم الطائي واضرابه تشبه الخيال . وكان اثر الاسلام في كرم القوم من حيث القصد فيه والاعتدال . ذلك بأن الدين الذي يبني مدنيته على اساس اجتماعي لم يعد ينسجم مع الاسراف في العطاء حيث يعتبر هذا الاسراف تبذيراً .

اما المبدأ الذي وضعه الاسلام في الانفاق فقد ورد في سورتي الاسراء ، والشعراء :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً »

« والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا . وكان بين ذلك قواما » .

وهو مبدأ « خير الامور اوساطها » كما ورد في الحديث . اما التبذير فقد نهى عنه بالآية : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين . » سورة الاسراء

على ان الاسلام ما برح مع ذلك يحض على الجود ، ولا سيما ، في ناحية الصدقات :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب اليم . » سورة التوبة

« ان المصدقين والمصدقات ، وأقرضوا الله قرضاً حسنا يضاعف لهم ، ولهم اجر كريم » سورة الحديد

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . » آل عمران

« والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . » سورة المعارج

وكان محمد نفسه « كما قال ابن عباس » اجود بالخير من الريح المرسلة . وعلى غراره كان اصحابه ، ولا بدع فقد كانوا في بيئة مشبعة بروح البداوة » . والكرم فيها سجية قومية .

والنساء اكثر حرصاً بفطرتهن على المال يمسكنه ولا يبذلن . ومثلهن شيوخ الرجال . ويعود ذلك الى ضعف الاعتماد على النفس اذ يفقد عند هؤلاء وهؤلاء هذا الاعتماد في امكان استرداد ما بذلوا . ومع ذلك فلم يكن عجباً ان يروي التاريخ للنساء في ذلك العصر ما يذكّر بكرم اخواتهن في الجاهلية . فعمرة بنت دريد بن الصمة ، وعائشة بنت طلحة التميمية زوج مصعب بن الزبير كلتاهما كانت تهب هبة الملوك . ولقد استفاض ان النساء كن يقدمن في ايام الشدة ، وساعات العسرة للرسول ما يفرج به ضوائق الناس . فقد حدّث البخاري « ان اتى النساء النبي بعد صلاة العيد فكلمهن في الصدقة ، فاخذن ينزعن الفتخ والقرطة والعقود والاطواق والخواتيم والخلاخيل حتى ملأن حجر بلال الذي بسطه لذلك . »

وكان من الطبيعي ان تنفذ آيات القرآن الى قلوب ازواج النبي ، وتنفعل نفوسهن بوصاياها في البر والاحسان اشد من سواهن . قال عروة بن الزبير : « رأيت عائشة تتصدق بسبعين الفاً ؟ وانها لترقع جانب درعها ! » وحدّث عن ام ذرة : « بعث ابن الزبير الى عائشة في غرارتين يبلغ مائة الف، فدعت بطبق، وهي يومئذ صائمة ، فجعلت تقسم في الناس ، فلما امست قالت «يا جارية هاتي فطري» فقالت ام ذرة «اما استطعت فيما انفقت ان تشتري بدرهم لحما تفطرين عليه؟» فقالت «لا تعنفيني، لو كنت اذكرتني لفعلت» (عفيفي المرأة العربية ج٢ ص ٧٨) على ان كرم عائشة لم يقتصر على الفقراء، بل تجاوز ذلك الى تشجيع اهل الفن ، ولطالما بذلت للشعراء والمغنين وغيرهم الآف الدراهم .

وتحدثت برزة بنت رافع عن جود واحدة اخرى من ازواج النبي ، وهي زينب بنت جحش وقالت : « ارسل عمر الى زينب بالذي لها . فلما أُدخل عليها قالت : « غفر الله لعمر . غيري من اخواتي امهات المؤمنين كان اقوى على قسم هذا مني » قالوا : « هذا كله لك » فاستترت منه بثوب ، وقالت : « صُبوه واطرحوا عليه ثوبا . » ثم قالت لي : « ادخلي يدك فاقبضي منه قبضة ، فاذهبي به الى بني فلان ، وبني فلان – من اهل رحمها وايتامها –حتى بقيت بقية تحت الثوب فقالت لها برزة : « غفر الله لك يا ام المؤمنين ، والله لقد كان لنا في هذا حق » فقالت زينب : « فلكم ما تحت الثوب ! ».وبلغ عمر ما فعلت زينب فارسل اليها بألف درهم لتنفقها على حاجتها فسلكت بها طريق المال الأول . ثم لما حضرتها الوفاة قالت : «اني قد اعددت كفني ، ولعل عمر سيبعث الي بكفن ، فأن بعث بكفن فتصدقوا باحدهما . وان استطعتم اذا وليتموني ان تصدقوا بحقوي [1] فافعلوا » (الاصابة ج ٧ ص ٩٢ – ٩٣)

وعلى هذا الوجه تطور الكرم في الاسلام واتخذ سبيل الخيرات والمبرات .

---

١ – الحقو معقد الازار .

وقد يبدو هذا الحديث غريباً ، ولكنه ، في الواقع ليس بغريب بالنسبة لزينب .
فقد روى البخاري ومسلم : « ان رسول الله قال لنسائه « اسرعكن لحاقاً بي
اطولكن يداً » قالت عائشة فكنا اذا اجتمعنا في بيت احدنا بعد وفاة الرسول
نمد ايدينا في الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى ماتت زينب ، وكانت
امرأة قصيرة ، فعرفنا حينئذ ان النبي (ص) انما اراد طول اليد بالصدقة » .
وعلى هذا النمط جرى نساء الصحابة .

على ان كرم الجاهلية بالوانه ظل منتشراً في صدر الاسلام بين اهل البادية
بفعل الوراثة . من ذلك ما روي ان عبد الله بن عباس كان قادماً من الشام الى
الحجاز ، فعرج على منزل وطلب من غلمانه طعاماً فلم يجدوا ، فقال لوكيله :
« اذهب في هذه البرية فلعلك تجد راعياً ، او حياً فيه لبن ، او طعام » فمضى
الغلمان ، ووقفوا على عجوز في حي ، وسألوها « اعندك طعام نبتاعه ؟ »
قالت . « اما طعام للبيع فلا ، ولكن عندي ما يكفيني واولادي » . قالوا :
« فأين اولادك ؟ » قالت : « في رعي لهم ، وهذا أوان عودتهم . » قالوا : « فما
اعددت لك ولهم ؟ » قالت : « خبزة مبتلة بالماء ! » قالوا : « وما هو غير
ذلك ؟ » قالت : « لا شيء » قالوا : » فجودي لنا بشطرها » قالت : « اما
الشطر فلا اجود به ، واما الكل فخذوه ! » قالوا لها : « تمنعين الشطر ،
وتجودين بالكل ؟ » فقالت : « نعم . لان اعطاء الشطر نقيصة ، واعطاء الكل
كمال وفضيلة ، فاني امنع ما يضعني ، وامنح ما يرفعني » فأخذوها ، ولم تسألهم
من هم ، ولا من اين جاؤا. فلما وصلوا الى عبد الله ، واخبروه بخبرها عجب من
ذلك ، وأمرهم بأن يحملوها اليه . فرجعوا اليها ، واخبروها بأن صاحبهم
يريدها ، فقالت : « ومن صاحبكم ؟ قالوا « عبد الله بن عباس . » قالت : « هو
عنوان الشرف واسماه ، فما يريد مني ؟ » قالوا : « مكافأتك » قالت : « أواه
والله لو كان ما فعلت معروفاً ما اخذت له بدلاً . فكيف وهو يجب على الخلق
ان يشارك فيه بعضهم بعضاً ؟ » فلم يزالوا بها حتى اخذوها اليه . فسلمت عليه ،

فرد عليها السلام ، وقرب مجلسها . ثم قال لها : « فمن انت ؟ » قالت : « من بني كلب » قال : « فكيف حالك ؟ » قالت : « اسهر اليسير ، واهجع اكثر الليل ، وارى قرة العين في شيء . فلم يكن من الدنيا شيء الا وقد وجدته ! » قال : « فما ادخرت لبنيك اذا حضروا ؟ » قالت : « ادخرت لهم ما روي عن حاتم طي حيث قال :

«ولقد ابيت على الطوى ، واظله حتى انال به كريم المأكل»

فازداد عبد الله تعجباً بها وقال : « لو جاءك بنوك وهم جياع فماذا كنت تصنعين ؟ » قالت : « يا هذا لقد عظمت عندك هذه الخبزة حتى اشغلت بها بالي ؟ دع عنك هذا ، فانه يفسد النفس ، ويؤثر في العواطف . » فطلب عبد الله من صحبه اولادها ، وامر لهم بعشرة الاف درهم ، وعشرين ناقة . » (ج. زيدان : نوادر الكرام ص ١٠٥) .

وبعد فليس الجود بالخبزة المبتلة هو الذي جعل هذه البدوية تذكر بين نوادر الكرام ، بل بذل ما لا غنى لها عنه ونفسها مطمئنة الى انها ادت الواجب . ومن يجود بمثل ذلك ، ولو كان مما هو مزهود فيه ، يفوق في المنزلة باذلي العفو ، ومانحي الفضل ، ولو كان كثيراً قال الشاعر :

«ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل»

هذا ولقد كان الكرم في الجاهلية سجية تنبثق من المروءة ، اما في صدر الاسلام فقد كانت له ، فضلاً عن ذلك ، حوافز انسانية ذات لون ديني تبتغي المثوبة من عند الله دونما رغبة في الشهرة . على انه جنح الى الاعتدال وفقاً لاوامر الدين ، وجرياً على سنن الحضارة الا في الصدقات حيث ظل الجود في هذه الناحية بارزاً اكثر منه في النواحي الاخرى .

– ٧ – الايمان والزهد والتقوى

شعور المرأة مرهف ، واحساسها رقيق ، ولذا وصفها بعضهم بأنها « مجموعة عواطف » ذلك لانها ادنى الى طرفي الأمور ، دون اوساطها : فهي اما الى الافراط تبدو ، او الى التفريط . فاذا توفرت بين يديها وسائل الاغواء اغوتها ، واذا توفرت لها اسباب الزهد بالحياة انصرفت عنها ، وزهدت بها . وهي والرجل سواء في هذا الأمر الا ان المشهور عنها انها تتأثر اشد منه .

ومن هنا كان النساء – باجمال – اكثر تمسكاً بالدين من الرجال . ولهذا الاعتبار كان بعض ابناء التمدن الحديث يعارضون في اشراك الجنس اللطيف في مجالس الامم والمناصب الكبرى خشية ان تقع مقاليد الدولة بين ايدي الاكليروس وحزبه .

فلما ظهر الاسلام بمبدئه القويم الذي مزج بين مادية اليهودية وروحية المسيحية ، خاطب عبيد الحياة بقوله : « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وابقي » (سورة الاعلى) . وخاطب عشاق الآخرة بقوله : «ولا تنس نصيبك من الدنيا » (سورة القصص) فاسترعى انتباه النساء فلم يسارعن الى اعتناقه فحسب ، بل ذهبن في مؤازرته وتأييده والتبشير به الى اقصى حد ، وكذلك فعل النساء في عهد عيسي . على ان المسلمات لم يكتفين بمؤازرة الاسلام ، بل قاسمن الرجال فيما واجهوا من اذى قريش ... فهاجرن بدينهن ، مع من هاجر ، الى الحبشة ، وصبرن وصابرن على سوء العذاب ، واستشهد بعضهن بمكة في سبيل الدين ، وناضل عدد طائل منهن بعد الهجرة في غزوات الاسلام .
(فلسفة تاريخ محمد للمؤلف ص ٧٠)

ومن اولئك اللواتي استعذبن العذاب في سبيل الاسلام سمية ام عمار بن

ياسر . كان بنو مخزوم اذا اشتدت الظهيرة ، والتهبت الرمضاء ، خرجوا بها هي وابنها وزوجها الى الصحراء ، والبسوهم دروع الحديد ، واهالوا عليهم الرمال المتقدة ، واخذوا يرضخونهم بالحجارة حتى تفادى الرجلان ذلك العذاب المر بظاهرة من الكفر . وفيها وفي امثالها وردت الآية : « إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالايمان » اما سمية فاعتصمت بالصبر ، وقرت على العذاب ، وابت ان تعطي القوم ما سألوا من الكفر بعد الايمان ، فذهبوا بروحها ، وافظعوا قتلتها (انسان العيون ج ١ ص ٣١٩ - ٣٢٠) . وكانت اول الشهداء في الاسلام . والى هذا فقد اشتهر فريق منهن بالتقوى والزهد . غير ان ما يجدر ذكره هنا ان الزهد لم يكن بارزاً ، في ذلك العهد ، بروزه في غضون الحضارة الأسلامية ، ذلك لأن الدين لم يكن يأمر بالزهد في الحياة ، كما ان الزمن كان يتطلب الجهد والعمل في صعيد الجهاد والكفاح من اجل ظهور الاسلام على الدين كله . واما في القرون التالية ، القرون التي استتب فيها الأمر للمسلمين ، وازدهرت حضارتهم ، فقد برز خلالها ، فيما برز ، الجنوح الى الزهد في الدنيا بين فريق من الناس نتيجة لامرين اثنين : (١) نتيجة لانتشار الفسق والفساد والانصراف الى الدنيا ، فكان الزهد رد فعل لهذا الانصراف . (٢) ونتيجة لتعاليم اعجمية انتشرت في بلاد الاسلام بانتشار الاعاجم ، ورافقت التصوف .

على ان صدر الاسلام لم يخل مع ذلك من الزاهدين والزاهدات الذين استهوتهم الآخرة فانصرفوا بكليتهم عن الدنيا رغم ان محمداً طالما فضل عمل العاملين الكاسبين على زهد الزاهدين المتخلفين . واشهر زاهدات ذلك العصر :

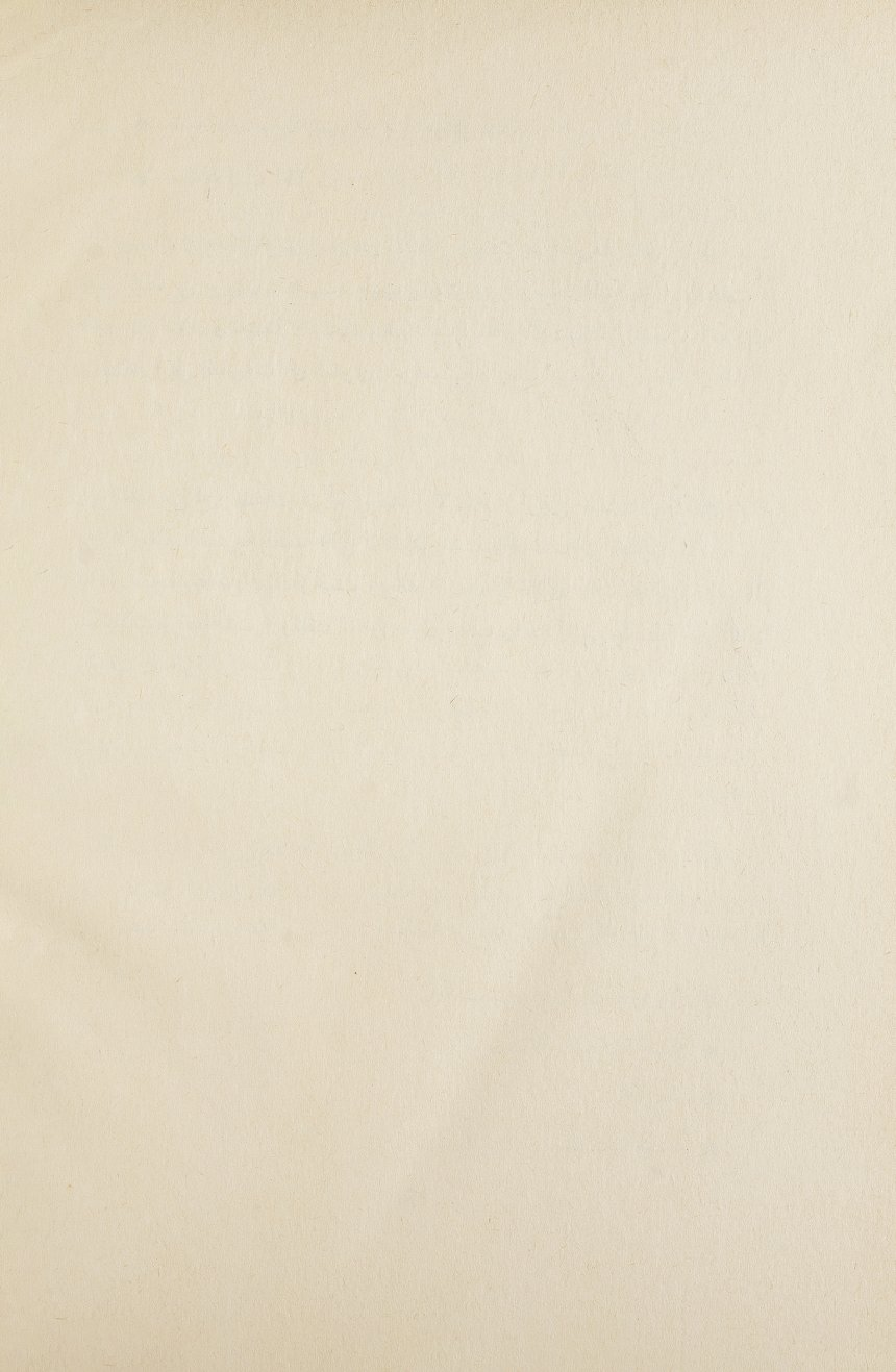
- اروى بنت كريز بن عبد شمس
- ثبيتة ابنة يعار الانصارية
- شعرانة
- اميمة بنت قيس بن ابي الصلت

- سليمة بنت سعد بن زيد بن عمر بن نفيل .
- ضباعة بنت الحارث .

وهناك زاهدة أخرى تسترعي الانظار اكثر من غيرها ، هي فاطمة بنت عبد الملك بن مروان . فقـــد شبت وربت في الاوساط الملكية ، ونشأت في احضان الدلال والعظمة ، ولكنها مع ذلك لم تغتر بالدنيـا التي فتنت اسرتهـا وغيرها ، بل انصرفت الى التقوى ، والعمل للدار الآخرة .

●

تلك هي ابرز صفات المرأة في صدر الاسلام ، وهي صفات كانت تجمع بين الاخلاق الفطرية الطيبة،التي لا تتوفر عنـد الجماعات التي اصابها مـا يصيب الامم المتحضرة من فساد وتخنث ودياثة ، وبين الاخلاق الدينيـة التي تدعو الى الكمالات والصالحات ، وتلف الناس حول هدف واحد اسمى يلحظ خير الدنيا وثواب الآخرة .



الفصل الثاني

المرأة العربيَّة في صدر الإسلام

ألوان ثقافتها ومقادير معرفتها

المجتمع البدائي كالبداوة ليس فيه تفاوت بيّن في الدرجات بين الطبقات والافراد، وليس فيه ايضاً فرق كثير بين الرجال والنساء في الثقافة ، ذاك لان الجميع في هذا المجتمع يعيشون على مستوى واحد من البساطة ، ويتخرجون في مدرسة واحدة هي الطبيعة ، وينهلون على السواء الخبرة والمعرفة من جداول احداثها ، واذا امتاز بعضهم على بعض في المكاسب فانما يرجع ذلك الى تفاوتهم في المواهب الغريزية الفطرية، او للظروف السانحة لهذا دون ذاك .

ولما ظهر الاسلام كانت الأمية صفة عامة في جزيرة العرب ، ولاسيما بين اهل الوبر ، حتى ان مكة التي كانت لهم بمثابة العاصمة الروحية والتي كانت تعقد حولها الاسواق الادبية والتجارية في المواسم فتنور الافكار لم يكن فيها اكثر من سبعة عشر رجلاً يقرأون ويكتبون . وقد جاء في الاصابة (ج ٧ ص ١٢٠ – ١٢١) ان عائشة ام المؤمنين كانت تجيد القراءة ، وان حفصة ام المؤمنين كانت تحسن الكتابة علمتها اياها الشفاء بنت

عبدالله بن شمس القرشية : وعلى رواية ابن خلدون (مقدمة ص ٥٤٢) «فان حملة القرآن من الرجال كانوا يسمون قراءً تمييزاً لهم عن غيرهم » من الأميين .

غير ان حرمان الناس وقتئذ من تحصيل المعارف كان حافزاً لقواهم العقلية على تدارك ما فاتهم من العلم . فقد برزت عندهم قوى اخرى كانت تبلور مداركهم واهمها قوة الذاكرة وحدة النظر ، وشدة الذكاء وهي نتيجة للاعتماد على عقولهم وخبرتهم الخاصة دون غيرهما من المعارف المكتسبة .

ومن هنا كان عهد النبي والخلفاء الراشدين ، وان خلا من المثقفات بالمعنى المعروف ، حافلاً بصاحبات المدارك السامية اللواتي ساهمن في تأييد هذا الدين بأوفى نصيب . وكما كانت هذه المساهمة مذكية لمواهبهن الطبيعية ، فان اتصال بعضهن بصاحب الرسالة كان مؤهلاً لهن لحفظ الحديث وروايته أوفر من سائر المسلمين . وان خديجة بنت خويلد مثال حي على ما كان يتمتع به فريق من نساء ذلك العصر من سمو المدارك . انها لم تكن ذات ثروة فحسب ، بل كانت خبيرة بانماء الثروة . وزاحمت الرجال في التجارة ، فكانت تستأجر الامناء الكفاة منهم ، او تضاربهم على ما تجعل لهم من ربح . فلما ذاع صيت الأمين ، وهو لقب محمد قبل الرسالة ، وجاء عمه ابو طالب يعرض على خديجة ان يعمل محمد في تجارتها بين الشام واليمن رحبت به ، وعهدت اليه بمالها ، ثم ازدادت اعجاباً به بعد ان عاد غلامها ميسرة يحدثها عنه ، فخطبته لنفسها وتزوجت منه . ثم كانت من ورائه تشرح صدره وتشد ازره حينما بدأ يتحنث في غار حراء ؛ حتى اذا عاد اليها من الغار في يوم وهو يقول : « زملوني زملوني » بادرت فاعدت فراشه ، وغطته بغطائه ، ولما صحا من نومه وأسر اليها بما رأى في حراء قائلاً : « لقد خشيت على نفسي . » خفت الى تطمينه بما كان يملأ نفسها من حزم ، ويغمر فؤادها من يقين ، وانطلق لسانها : « كلا والله ما ما يخزيك الله ابداً انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ،

وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » فثلج صدر محمد واشتد عزمه ، ومضى في سبيل عزمه ، ومضى في سبيل دعوته .

قال لوفاليس : « ما رأيت شيئاً قط اكد ليقيني ، واوثق لاعتقادي من انضمام انسان آخر الي في رأيي » . فاذا كان للموافقة المجردة من كل اثر ديني مثل هذا التأثير فلعمري كم يكون من اثر وعاقبة للمؤازرة الروحية الصادقة التي حبت بها خديجة محمداً .

لقد عاشت خديجة مع الدعوة عشرة اعوام فكان لها اطيب الاثر على النبي وصحبه . - آزرته - كما قال ابن اسحق - على امره فخفف الله بذلك عنه ، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه الا فرج الله عنه بها ، واذا رجع اليها ثبتته . وقد قدر النبي لها وفاءها وبلاءها فاحبها حباً شديدا ، ولم يتزوج عليها في حياتها .

ولما ماتت في السنة العاشرة من البعثة ، ومات عمه ابو طالب في العام نفسه ، الذي سمي لذلك عام الحزن ، افتقد محمد المرأة التي كانت تواسيه وتخفف عنه وتثبته ، وافتقد الرجل الذي كان ظهيراً له وحامياً فلم يجدهما فاختار الهجرة الى يثرب . وهنا كان للمسلمين شأن آخر غير شأنهم من قبل . لقد كانوا في مكة غرباء في وطنهم ، بل اعداء لقومهم ، يتلمسون اسباب السلامة ، ويصبرون على الاذى . اما في المدينة فما لبثوا ان اصبحوا اسيادها ، ونشأوا فيها نشأة جديدة اجتماعية تتفق مع الحرية والكرامة . وقد ساعد على ارتفاع مستوى حياتهم هناك امران مهمان : اولهما ان مستوى المدينة الاجتماعي كان ارفع مستوى في الحجاز ، وثانيهما ان الشرع الاسلامي انما سن في المدينة تباعاً . (فلسفة تاريخ محمد للمؤلف) .

وقد نوه احمد اجاييف (حقوق المرأة ص ٦٤) بنشاط المرأة في المدينة ، وروى عن الكاتب الهندي المير علي قوله : « واشتهر نساء المدينة في

ذلك الوقت بالطهارة ، والعفة والاستقامة وحسن السيرة وجودة السريرة فضلاً عن جدهن ونشاطهن ، وقيامهن بالاعمال الجيدة ، وتربية اولادهن على المبادىء القويمة كنساء الرومان والمرأة الانكليزية في عصرنا الحالي . فكن يتوافدن زرافات ذرافات لسماع خطب الخلفاء والصحابة . وانصببن على درس التوحيد والشريعة . وكان كثيرات منهن يعنين بتثقيف اولادهن . »

وعدا بعض امهات المؤمنين وعلى رأسهن عائشة بنت ابي بكر فقد اشتهر في وفرة العقل وحسن التدبير عدد من النساء القرشيات نذكر منهن فاطمة بنت قيس بن خالد التي اجتمع اهل الشورى في بيتها عقب مقتل عمر واخذوا برأيها ؛ وفاطمة بنت الوليد اخت خالد بن الوليد ، وفاطمة بنت عقبة .

١ – بواكير الثقافة ، والعلوم الدينية

لم يخل هذا العصر من المعارف التي كانت في متناول عرب الجاهلية كالشعر ، والخطابة والحكم ، والفراسة ، والطب ، والفلك ، والرواية . كانت هذه العلوم ، كما في السابق ، تكتسب بالسماع والممارسة . وكان لبعض النساء نصيب منها . واضاف الاسلام الى هذه المعارف علماً آخر من العلوم العقلية هو العلم الديني ، كما حور الاسلام في معارف العرب وطورها بمقتضى حاجة الزمن . فكان من تأثيره ان اخذ من الشعر قوة اعطاها للخطابة ، وصرف اهتمام الناس عن حفظ الشعر الى حفظ القرآن ، وتناول ايضاً من علم الرواية (التاريخ) قوة اخرى منحها لعلم رواية الدين ونشره . وهو في كل ذلك ساوى بين الرجال والنساء في في الدعوة لطلب العلم وفي وجوب معرفة الاحكام الدينية ، وحرص على تفقه المرأة في الدين الى درجة انه اباح لها عصيان زوجها في خروجها لتتعلم ما قصر بعلها في تعليمه لها من شئون دينها .

ولقد اشترك الجنسان وقتئذ في العناية بالحديث والفقه ، وحضور مجالسها . واشتهر فيهن نفر من النساء غير قليل حتى ان طائفة من الأحاديث المختلفة

المواضيع قد رويت عن عائشة ، وام سلمة ، وغيرهما من الصحابيات . بل اننا نرى بعض الاحاديث تروى متسلسلة عن نسوة دون ان يكون بينهن رجل . من ذلك ما روي عن زينب بنت ام سلمة عن حبيبة بنت ام حبيبة عن زينب بنت جحش قالت : « استيقظ رسول الله (ص) من نومه محمراً وجهه وهو يقول : « لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب » . فقد اجتمع في هذا السند اربع نسوة (الف با للبلوي ج ٢ ص ٣٦٨).

وكان ازواج النبي اللواتي وردت فيهن الآية : « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » (سورة الاحزاب) يروين احاديث الرسول ، ويساهمن في تعليم الدين :

وكانت ام المؤمنين عائشة اسبق بنات جنسها في هذا الميدان ، فقد روت عن زوجها الفين ومائتين وعشرة احاديث رغم ان النبي توفي عنها وهي دون التاسعة عشرة . وكانت تلقب برحلة الرأي لذكاها ولمعرفتها بوجوه السنة والفقه. وقيل انها كانت ادق في الرواية واوثق من ابي هريرة . لذلك كان زعماء الصحابة ، اذا اشكلت عليهم الفرائض ، فزعوا اليها ، فحسرت حجبها ، وكشفت سحبها . وكانت الى ذلك راوية للشعر والادب والتاريخ ، وملمة بالطب وعلم الفلك والكواكب والانواء والانساب . وحسبها ان فقيه المسلمين عروة بن الزبير قال عنها : « ما رأيت احداً اعلم بفقه ، ولا بطب ولا بشعر من عائشة . (عفيفي : المرأة العربية ج ٢ ص ١٤١). وقد توفيت سنة ٥٧ هـ. وكانت زينب بنب جحش التي توفيت سنة اربعين ، من ازواج الرسول اللواتي روين عنه ، وكذلك هند ام سلمة المخزومية المتوفية سنة ٦١ هـ فقد روت عن زوجها النبي ٣٢٨ حديثاً ، وشهدت معه غزوة خيبر .

وقد اشاد ايضاً عبد الله عفيفي (ص ١١٤ - ١١٥) بفاطمة بنت الرسول وقال : « اما علمها فهو فيض من علم رسول الله (ص) ، وعنها روى ابناها

(الحسن والحسين) وابوهما (علي) ، وعائشة ، وام سلمة ، وسلمى ام رافع ، وانس بن مالك » .

وفي التاريخ كثيرات من المحدثات من غير بيت النبوة من المهاجرين والانصار روى عنهن بعض الصحابة والتابعين . وكان لنفر منهن مشاركة في الفقه والادب ونظم الشعر ، نشير اليهن بما يلي بحسب حروف الهجاء :

- أروى بنت كريز ابن عبد شمس : لها صحبة بالنبي ، وروت عنه . وكانت عاقلة ورعة : ماتت في خلافة ابنها عثمان بن عفان .

- اسماء بنت سلمة التميمية : زوجة عياش بن ابي ربيعة ، هاجرت معه الى : الحبشة ، ثم الى المدينة . روت عن النبي وروى عنها : ابنها عبد الله ، وجملة من التابعين . توفيت في خلافة : عمر .

- امامة المريدية : صحابية محدثة. اخذ عنها جملة . وكانت شاعرة مقلة.

- امة بن خالد بن سعيد : محدثة مشهورة بالصدق ، روى عنها جملة من التابعين. : منهم موسى وابراهيم ابنا عقبة ، وكريب بن سليمان : الكندي .

- اميمة بنت رقيقة : اخت بنت خويلد . كانت من المحدثات ، وروى عنها : محمد بن المنكدر ، وابنتها حكيمة .

- اميمة بنت قيس بن ابي الصلت الغفارية : عابدة زاهدة محبة للخير . لها صحبة حسنة . وروت : احاديث كثيرة ، وروى عنها جملة من التابعين .

- بثينة ابنة يعار الانصارية : من اوائل المهاجرات الصحابيات العابدات ، ولها : رواية ثابتة عند المحدثين .

● رميصاء بنت ملحان : من الغازيات العاقلات المحدثات ، روى عنها ولدها
الانصارية : انس بن مالك. وهي مدفونة في بيروت .

● ضباعة بنت الحارث : من الصحابيات الزاهدات الفصيحات والمحدثات اخذ
الانصارية : عنها جملة من التابعين .

● ظبية بنت البراء : امرأة ابن ابي قتادة . محدثة صحابية ، روت جملة
الانصارية : احاديث ، وروي عنها وكانت من اللواتي لهن التقدم
: في الرواية ، وصحة الخبر .

● فارغة بنت ابي : صحابية محدثة صادقة ، وشاعرة . اخذ عنها كثير
الصلت الثقفية : من التابعين .

● فاطمة بنت قيس بن : اخت الضحاك من المهاجرات المحدثات . روى عنها
خالد القرشية : الشعبي جملة احاديث .

● فاطمة بنت الوليد : من اوائل المهاجرات ، روت جملة احاديث ، ونقلها
ابن عتبة القرشية : عنها بعض الصحابة .

● فاطمة بنت الوليد : اخت خالد . اسلمت يوم فتح مكة . وروى عنها
ابن المغيرة المخزومي : بعض الصحابة .

● فاطمة بنت عتبة : اخت ابي حذيفة . اسلمت يوم فتح مكة . وروى عنها
القرشية : اخوها ابو حذيفة .

● قتيلة بنت النضر : اديبة صحابية ، رُوى عنها الحديث ، وتوفيت في
القرشية : خلافة عمر .

● هجيمة ام الدرداء : فقيهة محدثة عابدة كانت تصلي في صفوف الرجال .
: روى عنها جماعة من التابعين ، وكانت من بعد تقيم تارة
: في بيت المقدس ، وتارة في دمشق ، وتوفيت فيها .

- ٢ - الشعر النسائي في صدر الاسلام

كان الشعر في الجاهلية سليقة عامة يكاد يجري على الألسنة مجـرى الكلام . غير ان اكثره لم يتجاوز حدود الرثاء . وبلغ من اهتمامهم في تعليم بناتهم الرثاء ان بعضهم كانوا يختبرون بناتهم بحملهن على رثائهم ، وهم احيـــاء . على ان بعض شاعراتهم وان تجاوزن هذه الحدود فانهن لم يتطرقن الى الغزل ، ووصف الجمال والحب ، لان كل ذلك كان محظوراً على المرأة .

وقد اشتهر فريق من نساء الجاهلية في نظم الشعر ، وحفظه ، ونقده حتى ان ابا نواس وحده ، وهو الشاعر والعـــالم الكبير المؤرخ ، كان يروي لستين شاعرة . غير ان ذلك الزمان المحروم من التدوين ، بالأضافة الى طغيان الرجل على المرأة في كل ميـدان ، قضى على اثار ذوات السوار بالضيـاع ، كما افضى الى نسيان اسماء كثيرات من شاعرات قبل الاسلام . (المرأة في التاريخ والشرائع للمؤلف . ص ١٣١)

واما في صدر الاسلام فقد اعترى الشعر ذبول كثير لاسباب متعددة . اهمها اشتغال الناس في الحروب ضد الوثنية ، وانصرافهم ، فيما بعد ، للفتح فيما وراء جزيرة العرب، ناهيك بما رافق هذه الحروب من الحاجـة الى البلاغـة في خطب الخطباء ، اوفر منها للشعر . وعلاوة على ذلك فأن النبي شاء ان يصرف الناس عن الشعر، الذي كان يستأثر بكل اهتمامهم، الى امور دنياهم وآخرتهـم . كما ان المسلمين انفسهم استساغوا القرآن لما فيه من روعة الشعر المنثور ، واقبلوا عليه دون سواه .

بيد ان الشعر ، وقد اصبح جزءاً مهماً من هوايات العرب ، ما كان بوسع اي عامل من العوامل ان ينتزعه من قلوبهم ، فلبثوا يرتجلونه ، ويحفظونـه ، ويتناشدونه ، ويترنمون بسماع أطايبه . زد على ذلك انه كان ، لهم كالصحف

في عصرنا الحاضر ، مطية لنشر ما يريدون نشره ، ولدفع ما يشاؤن دفعه . والنبي نفسه ما وسعه الا ان يتخذ من الشعراء انصاراً دعاة للاسلام ، ومحامين عنه .

وكان لعائشة زوج الرسول ، على ماروى زيدان (اداب اللغة العربية ج ١ ص ١٣٤) ، عناية بالشعر حتى كانت تحفظ كل شعر لبيد بن ابي ربيعة ، وبلغ من حفظها لمختلف الاشعار انه ما كان ينزل بها شيء الا ان انشدت فيه شعراً . وقد ذكر البلوي (الف با ج ١ ص ١٣٤) انها دخلت على والدها ابي بكر ، وهو يحتضر ، فانشدت :

«واذا المنية انشبت اظفارها   الفيت كل تميمة لا تنفع»

فقال ابو بكر : « هلا قلت : «وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تميد » سورة ق .

وزارت فاطمة بنت الرسول قبر ابيها يوماً فقالت :

«ماذا على من شم تربة أحمد   ان لا يشم مدى الزمان غواليا»
«صبت علي مصائب لو انها   صبت على الايام عدن لياليا»

وكانت صفية بنت عبد المطلب عمة صاحب الرسالة شاعرة فصيحة . ومن قولها في الحماسة والفخار :

« ألا من مبلغ عني قريشاً   ففيمَ الامر فينا والأمار»
« لنا السلف المقدم قد علمتم   ولم توقد لنا بالغدر نار»
« وكل مناقب الاخيار فينا   وبعض الامر منقصة وعار»

وعلى هذا النمط كان الشعر في متناول نساء صدر الاسلام يروينه وينظمنه، ولو كن غير شاعرات ، حتى كأنه سليقة فيهن : قيل ان الشاعر لبيد بن ابي

ربيعة [١] كان من اجواد العرب ، وقد آلى على نفسه في الجاهلية ان لا تهب الصبا الا أطعم . وكان له جفنتان يغدو بهما ويروح ، في كل يوم ، على مسجد قومه فيطعمهم . فهبت الصبا يوماً والوليد بن عقبة في الكوفة ؛ فصعد الوليد المنبر ، وخطب الناس ، ثم قال : « ان اخاكم لبيد بن ابي ربيعة قد نذر في الجاهلية ان لا تهب صبا الا اطعم . وهذا يوم من ايامه ، وقد هبت صبا فاعينوه ، وانا اول من فعل . » ثم نزل وارسل اليه بمائة بكرة [٢] وكتب اليه بابيات منها :

«ارى الجزار يشحذ شفرتيه — اذا هبت رياح ابي عقيل »
«اشم الأنف أصيد عامري — طويل الباع كالسيف الصقيل»

فلما بلغت ابياته لبيدا قال لابنته « اجيبيه ، فلعمري لقد عشت برهة وما اعيا بجواب شاعر [٣] » فقالت :

«اذا هبت رياح ابي عقيل — دعونا عند هبتها الوليدا»
«اشم الانف اروع عبشميا — اعان على مروؤته لبيدا »
بأمثال الهضاب كأن ركبا — عليها من بني حام قعودا»

الى ان قالت :

« اباوهب جزاك الله خيرا — نحرناها فاطعمنا الثريدا
فعد ان الكريم له معاد — وظني ، يا ابن اروى ان تعودا»

---

١ — كان مخضرماً عاش مائة وعشرين سنة نصفها في الجاهلية ، ونصفها في الإسلام ، ومات سنة ٦٧٠ م .

٢ — البكرة الفتية من الإبل .

٣ — ويروى ان لبيدا لم يجب لأنه امسك عن قول الشعر بعد اسلامه .

فقال لها لبيد : « لقد أحسنت لولا انك استطعمتيه » فقالت : « ان الملوك لا يستحيا من مسألتهم » فقال : « وأنت يا بنيّتي في هذا اشعر . » (الاغـــاني ج ١٤ ص ٩٢)

ولما افضت الخلافة الى عثمان بن عفان واخذ النفوذ الديني يضعف في النفوس، وعاد العرب الى الرغبة في نعيم الدنيا ، نشط الشعر بعد الركود ، وجاشت بـه النفوس بعد الخمود ، ثم اتى العصر الأموي فانطلقت بـــه الحرية من القيود ، وتحركت العواطف ، وضربت على اوتار القلوب ، فاذا بالشعر يصبح أنغامـــاً رقيقة ، واذا بانغام العواطف تصاغ شعراً عذباً .

وكان اهل البادية اكثر فراغاً للحب والغرام ، ومن ثم اوفر شعراً عاطفياً . وحسبك ان تقرأ « كتاب تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق » لترى امثلة كثيرة على هذا الشعر الرقيـق ، ولترى كيف ان النساء كن يساهمن فيـه حتى كانت مجالس المتحابين لا تعدو تناشد الاشعار .

وقد جـاء في الكتاب المذكور (ص٥٩٠) عن آخر اجتماع لليلى العامرية بمجنونها قيس بن الملوح بعد ان اختلط عقله انها اتته وهو مطرق يهذي فسلمت عليه ثم قالت :

اخبرت انك من اجلي جننت وقد   فارقت اهلك لم تعقـــل ولم تفق

فرفع رأسه اليها وانشد :

قالت جُننت على رأسي فقلت لها   الحب اعظم ممـــا بالمجانـــين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبـه   وانمـــا يصرع الانسان في الحين

وكانت عفراء بنت مهاجر بن مالك العذري صاحبة مالك بن حـــزام من الشاعرات الرقيقات. ومن شعرها فيه من قصيدة:

غير اني ازورك يا حبيبي | معاشر كلهم واش حسود
اشاعوا ما علمت من الدواهي | وعابونا وما فيهم رشيد
فاما اذ ثويت اليوم لحدا | فدور الناس كلهم لحود
وقد طابت لي الدنيا مذاقاً | لبعدك لا يطيب لي العديد

وقد توفيت سنة ٢٨ هـ .

ولم يكن حظ الجنس اللطيف يقتصر وقتئذ على ملكة الشعر ، بل برز منهن نفر صرن ينقدن الشعراء ، واكرم بهذه من منزلة . قيل ان كثير عزة خرج يوماً لزيارة حبيبته ومعه اداوة ماء ، فجفت من الحر ، فأم نارا يستقي من اهلها ، فاذا هو بعجوز تناشده : « من الرجل ؟ » فقال « صاحب عزة » فقالت له : « انت القائل ؟ :

اذا ما اتينا خلة كي تزيلنا | ابين وقلن الحاجبية اول
سنوليك عرفا ان اردت وصالنا | ونحن لتلك الحاجبية اوصل

هلا قلت كما قال جميل بثينة : [1]

يا رب عارضة علينا وصلها | بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالقول بعد تأمل | حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في قلبي كقدر قلامة | فضل لغيرك ما اتتك رسائلي

وامثال هذه الحادثة ، التي وردت في كتاب تزيين الأسواق (ص ٤٢) ، كثير في كتب الادب العربي مما يدل على تأكد الشاعرية في نفوس نساء ذلك العصر ، وارتفاعها الى درجة النقد والتمحيص . على ان لواء الشعر في البادية انما

---

١ – كان كثير عزة المتوفى سنة ١٠٥ هو جميل بثينة معاصرين لعبد الملك بن مروان ؛ واما قيس بن الملوح فكان معاصراً لمعاوية .

عقد لتماضر بنت عمرو بن الشريد من سراة سليم في نجد المعروفة بالخنساء . فقد كانت اشهر شاعرات الجاهلية والاسلام . جاء في الدر المنثور (ص ١١٢) ان عمر بن الخطاب سألها : « ما قرح ما في عينيك ? » قالت : « بكائي على السادات من مضر » فقال : « يا خنساء انهم في النار » قالت : « ذاك اطول لعويلي عليهم . اني كنت ابكي لهم من الثأر ، وانا اليوم ابكي لهم من النار ! » وهي كانت تبكي اخويها صخر ومعاوية ، ومن اقوالها الكثيرة في رثائهما هذا الشعر الرقيق :

من حس بالاخوين كالـ	غصنين ، او من راهما
قرمين لا يتظالمـا	ن ولا يرام حماهما
ويلي على الأخوين والـ	قبر الذي واراهما
رمحين خطيين في	كبد السماء ثناهما
ما خلفا اذ ودّعا	في سؤدد ثرواهما
سارا بغير تكلف	عضوا بغيْض نداهما

وقد توفيت الخنساء سنة ٢٤ هـ - ٦٤٦ م في خلافة معاوية .

هذا وقد فضل بعضهم ليلى بنت عبد الله العامري المعروفة بالاخيلية على الخنساء . ومنهم الاصمعي . وقد اشتهرت ليلى برثائها المحكم لعشيقها توبة بن حمير الخفاجي الذي ابى والدها ان يزوجها به جرياً على عادة عرب الجاهلية في تحريم زواج المتعاشقين . وكان النابغة الذبياني يحسدها على ما ادركت من الشهرة في الشعر ، فدارت بينهما رحى الهجو والنقد . ثم كانت ليلى تفد على الملوك والحكام فتنشدهم شعرها ، وتلقى منهم التقدير والاكرام . قال لها معاوية : « ويحك يا ليلى ، لقد جرت بتوبة قدره » فقالت : « والله يا امير المؤمنين ، لو رأيته وخبرته لعرفت اني مقصرة في نعيه ، واني لا ابلغ كنه ما هو اهله » ، ووفدت يوماً على الحجاج فقال لها انشديني بعض شعرك في توبة فأنشدته شعراً جديراً بان يدخل في باب الحكم قالت :

لعمرك ما بالموت عار على الفتى — اذا لم تصبه في الحياة المعاير
وما احد حي وان عاش سالما — بأخلد ممن غيبته المقابر
ولا الحي مما احدث الدهر معتب — ولا الموت ان لم يصبر الحي ناشر
وكل جديد او شباب الى بلى — وكل امرىء يوما الى الله صائر
قتيل بني عوف فيالهفاً له — وما كنت اياهم عليه احاذر
ولكنني اخشى عليه قبيلة — لها بدروب الشام باد وحاضر

وقد مدحت ليلى الحجاج فقال : « لم يصب وصفي منذ دخلت العراق غيرها » (تزيين الاسواق ص ١٠٠)

ثم ان الاحداث السياسية التي وقعت في صدر الاسلام حررت الشعر النسائي من ربقة الرثاء الذي يشير الى تقييد المرأة بنطاق الثناء على الرجل حياً او ميتاً ، وادخلته في طور جديد فيه سعة وانطلاق . ذلك بأن تحزّب النساء اسوة بالرجال ، لكل من المتنازعين على الخلافة بعد عثمان بن عفان كان حافزاً لهن للتطرق الى السياسة والفخر ، والتحريض ، والمفاضلة . والنساء اشد من الرجال تمسكاً بالدين ولذلك كان اكثر هؤلاء الشاعرات من انصار علي . من ذلك قول سودة بنت عمارة الهمدانية في دفع ابنها الى مؤازرة علي في حرب معاوية :

شمر كفعل ابيك يا ابن عمارة — يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر علياً والحسين ورهطه — واقصد لهند[1] وابنها بهوان
ان الامام اخا النبي محمد — علم الهدى ، ومنارة الايمان
فقد الجيوش وسر امام لوائه — قدما بابيض صارم وسنان

ومن ذلك قول بكارة الهلالية :

يا زيد دونك فاحتفر من دارنا — سيفا حساماً في التراب دفينا

١ — هندام معاوية .

قد كنت ادخره ليـوم كريهـة　　فاليوم ابرزه الزمان مصونا

وكأنما كانت تريد ان ترفع من معنويات قومهـا ، وتضعف امـال اصار معاوية اذ تقول :

اترى ابن هند للخلافة مالكا　　هيهات ذاك ، وان اراد بعيد
منتـك نفسك في الخلاء ضـلالة　　اغراك عمرو للشقا وسعيد[1]

ولما خاب أملها ، وبلغ معاوية غايته من الخلافة ، وبلغها سبّ عـلي على منابر الشام احترق قلبها كمدا ، وقالت مثل ما حكى القرآن عن مريم ام عيسى حين تقوّل عليها الناس : « يا ليتني مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا » سورة مريم . قالت :

قد كنت اطمع ان اموت ولا ارى　　فوق المقـابر من امية خاطـبا
فـالله أخّر مـدتي فتطـاولت　　حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم للزمان خطيبهم　　بين الجميع لآل احمد عائبا

ومثل سورة وبكارة في الحرص على نصرة علي ، وفي حث قومها على الذب عنه كانت ام سنان بنت جشمة المذحجية . فلنسمعها تقول : (العقد الفريد ج ٢ ص ١١١)

غرب الرقـاد فمقلتي لا ترقد　　والليـل يصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لا مقام فشمروا　　ان العدو لآل احمـد يقصـد
هذا علي كالهـلال تحفـه　　وسط السماء من الكواكب اسعد
خير الخلائق وابن عم محمد　　ان يهدكم بالنور منـه تهتدوا
ما زال مذ شهد الحروب مظفرا　　والنصر فوق لوائه مـا يفقـد

---

١ – وهي تريد عمرو بن العاص . اما سعيد فلعله ابن عثمان بن عفان احد ولاة معاوية .

وكان بين خصيمات علي ، في ذلك الصراع على الخلافة ، شواعر ايضاً منهن زينب اخت الزبير بن العوام . ومن قولها في رثاء ابنها عبد الله بن حكيم الذي قتل يوم الجمل ، وهي تشير الى قتل عثمان:

قتلتم حواري النبي وصهره　　وصاحبه فاستبشروا بجحيم
وايقنت ان الدين اصبح مدبرا　　فماذا تصلي بعده وتصومي ؟
وكيف بنام كيف بالدين بعدما　　اصيب ابن اروى وابن ام حكيم ؟

وحفل ذلك الجيل بالشاعرات حتى يكاد عددهن لا يحصى . غير ان شأو احد منهن في الاجادة لم يبلغ مستوى الخنساء ، وليلى الاخيلية . ولا يتسع المجال للاحاطة بهن فنكتفى بذكر أشهرهن مع التعريف بهن . بحسب الحروف الهجائية :

● **امامة المرادية** . صحابية شاعرة مقلة ، وهي من اللواتي صرفهن الدين عن الشعر .

● **ام كلثوم بنت عبدود** . صحابية اديبة اسلمت يوم فتح مكة ، ولها في الشعر باع طويل ، وتوفيت في حياة الرسول .

● **الحارثية بنت زيد بن بدر العرائي** . شاعرة ، واحياناً مبدعة ، اشتهر شعرها بالحماس والافتخار .

● **حميدة بنت النعمان بن بشير** . اديبة شاعرة مزاحة هجاءة ، ولها هجو فيمن تعاقب عليها من الازواج . ولما زارت ابنتها زوجة الحجاج الثقفي قال لها : « يا حميدة اني كنت احمل مزاحك مدة ، واما اليوم فاني بالعراق ، وهم قوم سوء . فأياك . » فقالت « سأكف حتى ارحل » . وكانت وفاتها بالشام في اواخر ولاية عبد الملك بن مروان .

● **صفية بنت مسافر بن ابي عمرو بن امية** . اديبة فصيحة شاعرة . حضرت يوم بدر ، ورثت اهل القليب الذين اصيبوا به من قريش .

● **عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل** . اديبة فصيحه شاعرة ، تزوجها عبد الله ابن ابي بكر ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم الزبير ، ثم الحسين ، فقتلوا جميعاً ، ولها فيهم مراث . وقد قيل فيها « من اراد الشهادة فليتزوجها ! »

● **عمرة بنت مراد بن ابي عامر** . شاعرة مجيدة مثل امها الخنساء . توفيت سنة ٤٨ هـ

● **عمرة ابنة النعمان بن بشير** . اخت حميدة المشار اليها ، لها علم بمعاني الشعر والأدب ، ولها في الشعر بعض المقاطيع ، ومنها ، وهي تلوم اخاها على تزويجه حميدة من روح بن زنباع الجذامي ، قولها :

اطال الله شأنك من غلام   متى كانت مناكحنا جذام ؟
أترضى بالفواسق والزواني   وقد كنا يقربنا السنام ؟

وفضلاً عن هؤلاء يحسن بنا ذكر ام حكيم بنت قارظ ، وريا بنت الفطريق ، وقتيلة ابنة النضر ، ومزدوعة ابنة عملوق ، ومفضلة الفزارية . على ان اكثر شاعرات ذلك العصر كن من اهل البادية لانصراف الناس في المدن وقتئذ عن الادب الى السياسة . بيد ان المرأة ، على قول بشار بن برد ، « لم تقل شعراً الا تبين الضعف فيه » فقيل له : « او كذلك الخنساء ؟ » قال : « تلك فوق الرجال ! »

٣ – الخطابة في صدر الاسلام

كانت الخطابة ، في فترة الجاهلية ، ملكة عامة كالشعر ، بل كانت اكثر منه سهولة لعدم احتياجها الى الاوزان والقوافي . لذلك فقد التمعت فيها اسماء كثيرات من الخطيبات ، واشهرهن : هند بنت الخس الملقبة بالزرقاء ، وجمعة بنت حابس . وكانتا تذهبان الى اسواق العرب وتعرضان اقوالهما فتتناقلها القبائل ، كما تتناقل خطب قس بن ساعدة ، والقلمس الكناني (المرأة في التاريخ والشرائع ص ١٤٥ للمؤلف)

بيد ان الخطابة هي مثل غيرها من المواهب الكامنة في الانسان انما تبرز وتختفي بحسب الحاجة اليها . واذا كانت كمالية بالنسبة لنساء الجاهلية ، وثانوية بالنسبة للشعر عندهن ، فقد اصبحت ، في صدر الاسلام ، ضرورية ، وأولية لان النبي زهد المسلمين بالشعر ، الذي كان ملهاة لهم عن شؤون الدنيا والآخرة ، فزهدوا به .

فقد كانت الخطابة في صدر الاسلام ، الذي حفل بالفتن الداخلية من اجل الخلافة ، عنصراً هاماً لازماً في تلك المعارك التي اشترك فيها النساء والرجال . هذا بالاضافة الى ان الخطابة كانت كذلك ضرورية عصر النبي ابان الجهاد ضد الوثنية ، فاكتسبت ، في المرحلتين ، قوة جديدة لم تكن فى الامس ، قوةاذكتها الاحداث السياسية والدينية ، كما اكتسبت لوناً جديداً مقتبساً من اسلوب القرآن وبلاغته .

واذ كان نساء اهل البيت على رأس ما حدث وقتئذ من صراع داخلي ، وكن السابقات الى تأييد الدعوة الاسلامية ، فقد نوه التاريخ بما كان لبعضهن من مواقف خطابية : ففاطمة بنت الرسول اشاد بمواقفها احمد اجاييف الروسي (حقوق المرأة في الاسلام ص ٦٣) في تأييد والدها ، واستدل على ذلك ، فيما

استدل، بقول الامير علي الهندي: « كانت كثيراً ما تخطب في الناس في بيتها وفي المساجد. وخطبها الموجودة بين ايدينا تشهد لها بسمو المدارك واصالة الرأي. » كما ان عبد الله عفيفي، الذي نوه بعلمها وفضلها، وعدد اسماء الذين رووا عنها، قال: « وكانت في نشأتها الاولى مضرب المثل في أشتات الكلام » (المرأة العربية ج٢ ص ١١٤). ومثل فاطمة في اجادة الخطابة ابنتها زينب بنت علي المدفونة في ضاحية من ضواحي دمشق.

ثم كانت الفتنة بعد عثمان بن عفان سبباً لتوفر عدد المشتغلات في السياسة. والخطابة من مستلزماتها. وربما كانت عائشة زوجة الرسول، قائدة الحملة ضد علي بن ابي طالب، اشهر خطيبات ذلك الصراع بين المسلمين. وحسبنا الاشارة الى خطابها يوم الجمل والى خطبتها حين دخولها البصرة. والاولى منشورة في في الجزء الاول من العقد الفريد، والثانية في تاريخ الطبري (ج ٦ ص ٣١١٦).

وجاءت بعدئذ الفتنة الثانية بين علي ومعاوية فكانت مثيرة للخطابة اكثر من ذي قبل. وكان اكثر النساء الى جانب اهل البيت فاشتهر منهن في الخطابة نفر حملن حملة شعواء على خصوم علي، واستنفرن الناس لقتالهم. وحسبنا ان نذكر منهن ثلاثاً، ونقتطف من اقوالهن شذرات لتقدير شأوهن في هذا الميدان.

● عكرشة بنت الاطرش بن واحة: تقلدت حمائل السيوف، وسارت مع جيش علي لمحاربة معاوية في صفين. وكانت تثير الحماس في قلوب هذا الجيش وتلهب مشاعره بخطبها النارية. ومن اقوالها: «ايها الناس عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم. ان الجنة لا يرحل من أوطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها. فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها. وكونوا قوماً متبصرين بالصبر على طلب حقهم. ان معاوية دلف اليكم بعجم العرب، غلف القلوب، لا يفقهون الايمان، ولا يدرون ما الحكمة. دعاهم بالدنيا

فاجابوه ، واستدعاهم الى الباطل فلبوه . فالله الله عباد الله في دين الله . اياكم والتواكل فان ذلك ينقص عرا الاسلام ، ويطفىء نور الحق. هذه بدر الصغرى، والعقبة الاخرى ، يا معشر المهاجرين والانصار امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم . فكأني بكم غداً وقد لقيتم اهل الشام كالحمر الناهقة تصقع صقع البعير الخ » (ابن عبد ربه ج ١ ص ١١٦).

● **ام الخير بنت جريش** : حين بلغها قتل عمار بن ياسر ، من اخصاء علي ، ظهرت بين بردين زئيرين كثيفي النسج على جمل ارمك وبيدها سوط منتشر الضفيرة ، وهي كالفحل يهدر في شقشقته . وتقول : « ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم . ان الله قد اوضح لكم الحق ، وابان الدليل » الى آخر الخطاب الذي استحثت فيه المسلمين على نصرة علي .

● **الزرقاء ابنة عدي الهمدانية** . كانت اذ تخطب في صفين على جملها الاحمر تشعل النار في قلوب السامعين ، وتجعل الجنة ، التي بشر بها المجاهدون ، قيد انظار الناظرين .

اجل فان تلك الحروب الاهلية اثارت في النساء الذاكرة إثارتها للعاطفة فاندفعن في تأييد الاحزاب اندفاعاً كشف النقاب عن خطيبات ونابغات لم يعرفهن من قبل تاريخ العرب . وهكذا تفعل الثورات الاجتماعية في اظهار النوابغ ، وفي اذكاء المواهب . ورب خير صدر عن شر .

٤ – النثر الشعري والسجع في صدر الاسلام

كان من تأثير فصاحة القرآن وبلاغته ان ظهر نسق جديد في الانشاء هو الشعر المنثور الذي كان، على ما فيه من سجع مطبوع ، حافلاً بالوصف الخيالي الا انه الصق بالحقائق والواقع من الشعر . واشتهر نساء ذلك العصر بما اشتهر به

الرجال في البلاغة ، وتنسيق الكلام ، حتى حفلت المكتبة العربية بعدد طائل من الكتب التي تحدثت عن بليغات النساء ، واثارهن يومئذ ، وعبر العصور .

على انا رغبة في الجمع بين التحدث عن هذا الموضوع وبين الاختصار المنشود نكتفي بالتنويه ببعض بليغات صدر الاسلام ، ذاكرين نتفاً من كلامهن .

● **ام سلمة** : اتت عثمان بن عفان لما طعن الناس عليه ، فقالت « يا بني مالي ارى رعيتك عنك مزورين ؟ وعن ناحيتك نافرين؟ لا تعف سبيلاً كان رسول الله (ص) نهجها ، ولا تقدح زنداً كان اكباها . توخ حيث توخى صاحباك ، فانهما ثكما لك الامر ثكما ، ولم يظلماه . لست بغفل فتعتذر ، ولا يحلو فتعتزل ، ولا تقول ولا يقال الا لمظن ... ولا يختلف الا في ظنين . فهذه وصيتي اياك ، وحق بنوّتك قضيتها اليك . ولله عليك حق الطاعة ، وللرعية حق الميثاق . »

● **امرأة ابي الاسود الدؤلي** : في غضون محاورتها امام معاوية ، مع زوجها وقد انتزع هذا منها ولدهما ، وقال : « حملته قبل ان تحمله ، ووضعته قبل ان تضعه . » قالت : « صدق والله يا امير المؤمنين تحمله خفاً وحملته ثقلا ، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً . ان بطني له وعاء ، وان ثديي له سقاء ، وان حجري له فناء . »

● **ام معبد** : وصفت النبي وصفاً اشتهر ببلاغته ، واصبح مستفيضاً على الالسنة . قيل لعلي بن ابي طالب : « كيف لم يصف احد النبي كما وصفته ام معبد؟ » فقال: « لان النساء يصفن الرجال باهوائهن فيجدن في صفاتهن » .

● **الشاعرة ليلى الأخيلية** : وفدت على الحجاج فقال لها : « ما جاء بك ؟ » قالت : « احلاف النجوم ، وقلة الغيوم ، وكلب البرد ، وشدة الجهد ، وكنت لنا بعد الله الرفد ، » فقال لها : « صفي لنا الفجاج » يريد بذلك ارضهم واحوالهم . فقالت « الفجاج مغبرة والارض مقشعرة والبرك معقل ، وذو العيال مجشل ،

والهالك المقل . والناس مستنون ، رحمة من الله يرجون . واصابتنا سنون مجحفة لم تدع لنا هبعاء ولاربعاء ، ولا عافطة ، ولا نافطة . اذهبت الأموال ، وفرقت الرجال ، واهلكت العيال . »

زينب بنت علي بن ابى طالب : لما ادخل ابن زياد اليه نساء الحسين وصبيانه ، وجيء برأس الحسين كانت زينب في عداد الاسرى فجرت بينها وبين ابن زياد محاورة قاسيه تميز كلامها فيها بالفصاحة والبلاغة . فقال ابن زياد : « هذه سجاعة : ولعمرى لقد كان ابوك شاعراً سجاعاً » . وهو يريد ما اراد الشاعر بقوله : « ومن يشابه أبه فما ظلم ».

وهذه امثلة قليلة من بلاغات النساء في صدر الاسلام ، وهي قطرة من بحر لان البليغات لم يكن لهن حصر ، خصوصاً وان معظم شاعرات العصر كان لهن الباع الطويل في النثر . ومن الجدير بالذكر بروز طبقة اخرى من طبقات الهيئة الاجتماعية حينئذ ، هي طبقة نساء الملوك واهلهم اشتهرت في ميدان البلاغة . ومنهن عاتكة والدة الوليد بن عبد الملك ، وفاطمة اخته زوج عمر عبد العزيز ، وفاطمة خالة معاوية . ولا بدع فان ذلك العصر كان قريب العهد من فترة الجاهلية التي كانت الفصاحة عامة فيها ، هذا فضلاً عن حفوله بانتفاضة اجتماعية دينية وسياسية عظيمة كانت حافزة ، فيما حفزت ، للمواهب اللسانية متأثرة بأسلوب القرآن والسنة .

— ٥ — التاريخ والرواية في صدر الاسلام

كان التاريخ في الصدر الاول موضعياً يتعلق جله بمعرفة ايام العرب واقوالهم ، وهو كناية عن استظهار اخبار واشعار تذكر ملاحم العرب ومفاخرهم . ولما كان ذلك مما تألفه النساء وتهواه فقد توفر عدد هذا النوع من المؤرخات في ذلك الحين . غير ان فريقاً منهن كانت له المامة بانباء الامم المجاورة ، ما كان منها

قديماً ، وما كان منها حديثاً ، لان العرب ، كانوا على صلات وثيقة بهذه الامم ، كما فصلنا ذلك تفصيلاً في كتابنا الاخير « فلسفة تاريخ محمد » ، كما ان ترفع العرب عن المهن وانصرافهم الى السياسة جعلا عنايتهم تنصرف الى الشعر والتاريخ لانهما من لزوميات السياسة . واما الحساب والكتابة فكانا من صنائع الموالي (ج. زيدان . (اداب اللغة العربية ص ٢٠٩) .

ولقد اعرب ع . عفيفي في كتابه : المرأة العربية (ج ٢ ص ١٤١) عن اعجابه بعائشة من حيث الاحاطة بحوادث الامم ، ومشكلات التاريخ ، واستشهد على ذلك بالحادثة التالية : « لما وفد المسلمون الى الحبشة مهاجرين أوطنهم النجاشي موطناً كريماً ، فاوفدت اليه قريش عبد الله بن ابى ربيعة وعمرو بن العاص بأعز ما لديهم من طرائف وتلاد . وفي انفسهم ان يبرأ من ذمة اللاجئين اليه ، ويعيدهم على اعقابهم . فرد النجاشي على القوم هداياهم ، وقال : « لا حاجة لي بها ، فوالله ما اخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما اطاع الناس في فاطيعهم فيه » فحفظ الناس ذلك القول من ملك الحبشة ، ولم يعرفوا معناه حتى كانت عائشة هي التي حدثتهم خبره مما تعلم من تاريخ الحبشة . فقالت : « ان ابا النجاشي كان ملك قومه ، ولم يكن له ولد سواه . وكان للنجاشي عم له اثنا عشر رجلاً كلهم من صلبه . فقالت الحبشة : « لو اننا قتلنا الملك وولينا اخاه لأمنا على الملك ان يضيع ، وعلى الملك ان ينقطع عقبه » . فعدوا على ملكهم فقتلوه وملكوا اخاه ، فمكثوا على ذلك حيناً . وكان ولد القتيل [1] فتى ايداً حازماً لبيباً اديبا ، واوجس القوم ان يثب على الملك فيأخذهم بابيه فحملوا الملك على بيعه من تاجر بستماية درهم فقذفه التاجر في سفينة وانطلق به . حتى اذا كان العشي من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحب الخريف فخرج الملك يستمطر تحتها فاصابته صاعقة فقتلته ، ففزعت الحبشة الى ولده ، فاذا هو مُحمّق لا خير فيه . ثم علموا ان لا مفزع لهم الا ابن ملكهم القتيل فخرجوا

---

١ القتيل هو النجاشي الذي رفض تسليم المسلمين اللاجئين الى الحبشة لاهل مكة المشركين.

يطلبونه ، فجاؤا به من صاحبه ، فعقدوا عليه التاج. وعز على التاجر ان يضيع ما له فاقتضى القوم حقه ، فجحدوه اياه ، فشكا امره الى الملك فقال « لتعطنه ما له او ليضعن غلامه يده في يده فليذهبن به حيث شاء» فقالوا: «بل نعطه ماله.» قالت عائشة فلذلك يقول النجاشي: « ما أخذ الله مني رشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه» الخ .

وفي كتب الادب قصص كثيرة تشير الى المام نساء ذلك العصر بأيام العرب وانسابهم ، وبالأحداث التي رافقت تلك الايام. نذكر منها على سبيل المثال ما رواه الفرزدق عن حواره مع عمرة بنت دريد بن الصمة ، قال: «خرجت في طلب غلام آبق فلما صرت على ماء لبني حنيفة جاءت السماء بالامطار ، فلجأت الى بيت هناك ، فخرجت لي جارية كأنها القمر . فحيت ثم قالت : « فمن الرجل؟..»قلت «تميي»، قالت: «من ايها قبيلة ؟ » قلت : «من نهشل بن غالب» قالت: « اذاً انتم الذين يقول فيكم الفرزدق :

«ان الذي سمك السماء بنى لنا   بيتاً دعائمه اعزُ واطول»
«بيتاً ذرارة محتب بفنائه   ومجاشع وابو الفوارس نهشل»

فقلت : « نعم » فقالت هدمه لكم جرير بقوله :

«اخزى الذي سمك السماء مجاشعا   واحل بيتك بالحضيض الاوهد»

الى آخر الحديث (زينب فواز -- الدر المنثور ص ٣٤٨)

والواقع ان التاريخ كان في صدر الاسلام ، كما كان في الجاهلية ، عبارة عن معرفة اخبار العرب واياهم واقوالهم بالاضافة الى معرفة بعض اخبار الامم المعاصرة والسالفة . لا يحصلون على هذه الاخبار التاريخية بالقراءة اذ لم يكن لديهم كتب ، وانما بالسماع ابان رحلاتهم الداخلية ، واسفارهم الخارجية المتواصلة الى بلاد الروم وفارس ، ناهيك بما كانوا يسمعون من البعثات السياسية والتجارية

والدينية ، التي كانت تفد تباعاً ايام المواسم الى بلادهم ، في عهد الجاهلية، ولاسيما الى مكة .

٦ - الطب والطبابة في صدر الاسلام

لم تكن الطبابة في الجاهلية تستند الى علم قائم بذاته له اخصائيون ، بل كانت من خصائص الكهان والعرافين : قال عروة بن حزام من قصيدة :

اقول لعراف اليمامة داوني فانك ان داويتني لطبيب

ولم تكن الكهانة محصورة بالرجال ، بل كان للنساء ضلع فيها واشتهر منهن كثيرات ، ومنهن: فاطمة بنت مر الخثعمية . واقدمهن كاهنة اليمن . غير ان التاريخ لا يخلو من ذكر طبيبات من غير طبقة الكاهنات واشهرهن زينب طبيبة بني اود التي كانت ،فضلاً عن تطبيب الاجسام،تحسن الجراحة (المرأة في التاريخ والشرائع للمؤلف ص ١٤٧)

ولكن الاسلام نهى عن العرافة والكهانة بغية فصل العلوم الطبيعية عما مزجها به الكهان والعرافون من علوم ما وراء الطبيعة ، وقصد الحض على رقي العلوم الطبيعية . فكان له ما اراد من نبوغ اطباء بين الجنسين في الحضارة الاسلامية .

على ان الطب في صدر الاسلام كان يكتسب بالممارسة اسوة بعهد الجاهلية ، ويقوم على معلومات انتقل اكثرها الى العرب من اليونان والفرس والهند . وكانت عائشة ام المؤمنين في عداد اللواتي الممن بهذه الصنعة بالممارسة كما يستفاد ذلك من الحوار الذي جرى بينها وبين عروة بن الزبير .

روى البلوي (الف با ج ١ ص ١٣) ان عروة قال لعائشة : « يا اختاه لا اعجب من فقهك . اقول ان زوجة رسول الله (ص) وابنة ابي بكر . ولا

اعجب من علمك بالشعر وايام الناس . اقول ابنة ابي بكر كان اعلم الناس .
ولكن اعجب من علمك بالطب ، كيف هو ؟ ومن اين هو ؟ » قال عروة :
« فضربت على منكبي وقالت : « اي عروة ان رسول الله (ص) كان يسقم في آخر عمره فتقدم عليه الوفود من كل وجه ، فتنعت له . وكنت اعالجه . فمن ثم .. »

وعلى غرار عائشة كان نساء ذلك العصر يتعلمن هذه المهنة ثم يبرع بعضهن فيها ، ويصبحن طبيبات وذلك بالرغبة فيها والاستعداد لها . وكذلك كانت الجراحة والجبارة : فقد كن يأسون الجراح في الحروب ، ويجبرن العظام ، فيصبح بعضهن اخصائيات في هذا النوع من الطب بالممارسة .

على ان حياتهم البسيطة القريبة من الطبيعة كان من شأنها ان تدفع عنهم اكثر الادواء ، واذا مرضوا فالطبيعة بشمسها وهوائها ، وبعشبها ونباتها ، كانت هي الدواء . ومن امثالهم المشهورة : « تداووا بعشب بلادكم » ولذلك فقلما مارس النساء الطب وقتئذ على وجهه الصحيح . وقلما تخصص به احد الا ما كان منه يتعلق بالامراض النسائية فقد كانت لبعضهن فيها براعة تعود الى الاعتماد عليهن دون الرجال .

- ٧ - الغناء والموسيقى في صدر الاسلام

كانت موسيقى العرب بدائية ، وساذجة تنسجم مع البداوة . فلما جاء الاسلام ، معرضاً عن اللهو والزهو ، انصرف المسلمون عنها الى تلاوة القرآن وترتيله ، وصار لبعضهم شهرة في ذلك نوه بها الرسول وهو يقول في ابي موسى الأشعري : « لقد اوتي مزماراً من مزامير آل داود . »

وكان المسلمون تأخذهم روعة ونشوة اذا سمعوا الرسول يقرأ القرآن. وقيل «انهم كانوا يخافون على ارقائهم من الاستماع الى قراءة الرسول، وقراءة ابي بكر

الذي لقب بالبكاء . ذلك بان قراءته كانت تشجي وتبكي ! » غير ان الموسيقى بقي لها مع ذلك انصار في مكة والمدينة ، ولها فنانات وفنانين . ثم لم تلبث المدينة الا ريثما امتد الفتح الاسلامي الى مـــا وراء جزيرة العرب حتى حفلت بكثيرين من اصحاب الفنون الجميلة الذين اصبحوا معلمي الجيل في العهد الاموي .

ولم يحفــل بنو اميــة كثيراً ، في اول امرهم ، بالموسيقى لاشتغالهم بتثبيت ملكهم . غير ان عاتكة بنت معاوية كانت ميّالة اليها . فتعلمت الغناء وضروبه وألفت به بعض الألحان ، وكانت تختلف اليها ، (على ما قال المسعودي (ج ٢ ص ١٣٣) « بعض مغنيات مكة والمدينة فتحسن صلتهن ، وتجيزهن ، وتطلب منهن ان لا ينقطعن عنها . »

ولما افضت الخلافة الى الوليد بن يزيد سنة ١٢٥ هـ ، وكان صاحب شراب ولهو وتهتك وخلاعة ، بعث الى المدينة فاستقدم المغنين الى دمشق ، فأصبحت منذ ذلك عاصمة الأمويــين حافلة بالفنـــانين والفنانات من الموسيقيين ، والمغنين والراقصات . وشرعت هذه الفنون تأخذ طريق التقدم بما حصل للامويين مــن بسطة في الاموال ، ومن اختلاط بالأمم بالاضافة الى غلبــة الرفاه والبذخ عــلى الناس . ومع ذلك فقد ظلت المدينة بمثابة قاعدة هذه الفنون الجميــلة حتى عصر العباسيين ، ولبث اشهر جواري الاسلام من مولداتهـــا . وكان ذلك يرجــع الى ان رجــال السياسة كانوا يريدون الهـــاء اهــل الحجاز بالفن ، فاغدقوا عليهم الخيرات ، وتركوهم في لهوهم فرحين .

وفي ذلك العهد اشتهر بين الرجال مسجح . فقيل انه اول من جارى الفرس في النغم ، وابن سريج ، والغريض ، ومعبد، واشتهر بين النساء رائقة ، وعزة الميلاء . ولكن الشهرة الذائعة كانت لعزة ، وان كانت رائقة استاذة لها .

وكانت عزة ، (على روايــة زينب فواز . الدر المنثور ص ٣٤١) مولدة

للانصار في المدينة فلما قدم نشيط وسائب اليها غنّيا أغاني بالفارسية فلـُقـّنت عزة عنهما نغماً ، وألفت عليه الحاناً عجيبة . فكانت اول من غنى الغناء الموقع من نساء الحجاز ، وأول من فتن اهل المدينة بالغناء ، وحرض نساءها ورجالها عليه حتى صارت اشهر بلاد العرب فيه .

واشتهر نبوغ عزة اشتهاراً هائلاً حتى ان اصحاب الذوق والفن والشعراء مثل طويس ومعبد وعبدالله بن ابي جعفر ، وابن عتيق ، وعمر بن ابي ربيعـة كانوا يغشون عليها بيتها. فاذا غنت أُغمي على بعضهم من الطرب ، كما حدث لابن ابي ربيعة ، او غلب البكاء على غيره ، كما وقع لحسان بن ثابت وهو شيخ .

واشتهر غير عزة ورائقـة طبقـة من الموسيقيات في الحجاز واكثرهن من الجواري . ومنهن عمارة جارية ابن جعفر . بلغ الخليفة يزيد طول باعها في الغناء فاحتال على اقتنائها من صاحبها الذي كان يحبها حباً جماً،ولكنها ما بلغت دمشق الا عقب موته، فردها معاوية بن يزيد الى صاحبها (الدر المنثور ص ٣٢٢).

وهكذا فان النعم التي غمرت المسلمين باتساع الملك في صدر الاسلام سرعان ما تغلبت على نزعـة الدين فحفل ذلك العهد في جملة ما حفل به من زينة الدنيا بالموسيقيين والمغنين واضرابهم . وظلت المدينة التي كانت في عهد الخلفاء الراشدين المنارة التي نشرت اضواء الاسلام فيما حولها ، ظلت ، كما قلنا بمثابة القاعدة لهذه الفنون الجميلة والمدرسة لتخريج الجواري مدة طويلة .

٨ - صاحبات الندوات الادبية في صدر الاسلام .

برزت في ذلك العصر اسماء سيدات لم تكن شهرتهن ترجع الى المشاركه في الآداب والفنون فحسب ، وانما تعود الى فتحهن بيوتهن لأهل الفضل ، فكانت منتديات لرواية الشعر والادب والاخبار ، ولنقدها والمناظرة فيها .

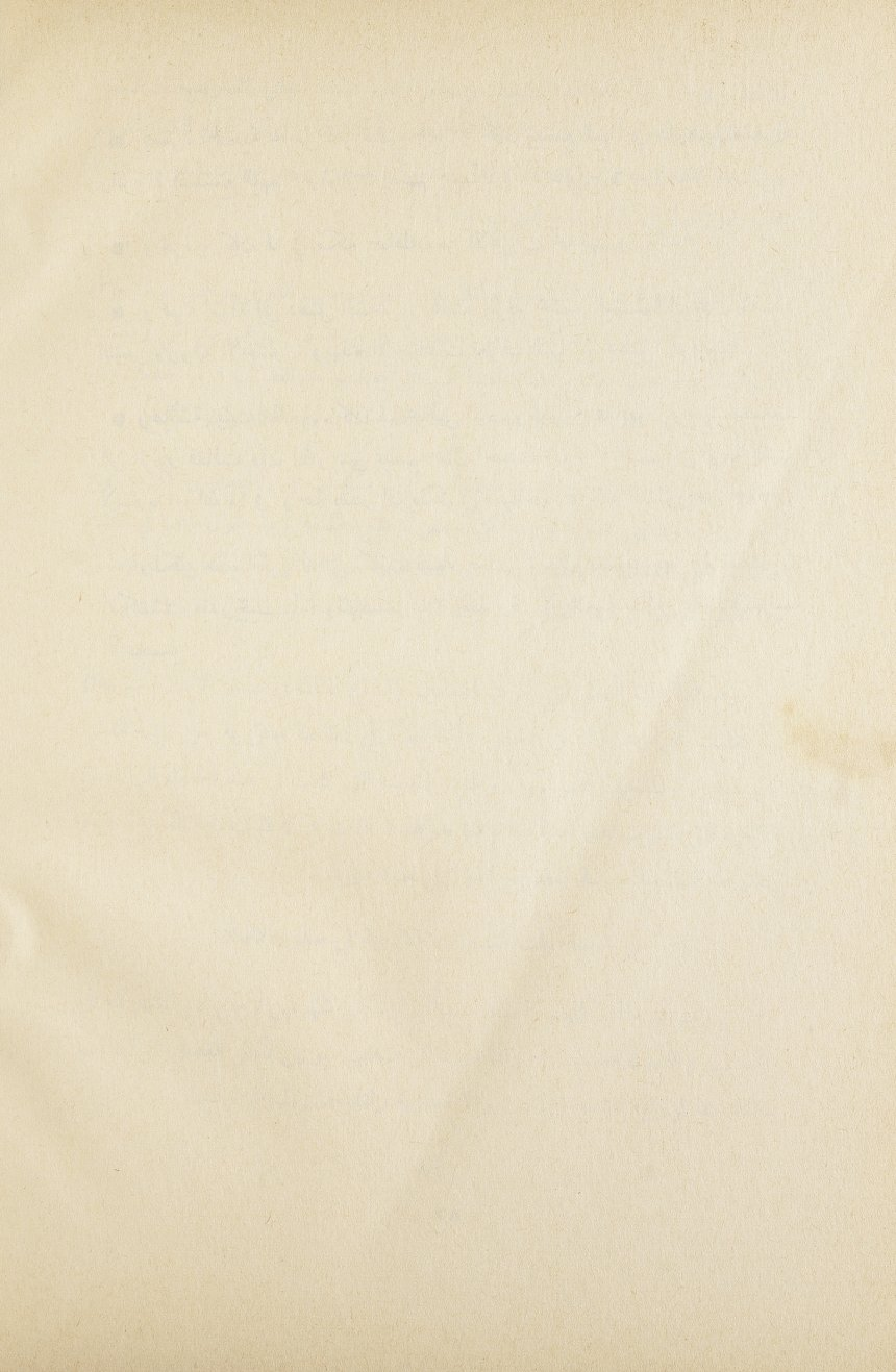
• فعمرة الجمحية – من سراة بني جمح – كان يجتمع اليها في دارهـا الشعراء والرواة فتستمع اليهم ، وتوازن بينهم جميعاً . (الاغاني ج ٦ ص ١٥٠).

• وخرقاء كان لها في مكة سماطان من الاعراب تحدثهم وتناشدهم .

• وعمرة امرأة ابي دهبل الشاعر . كانت جزلة يجتمع اليهـا الرجال لانشاد الشعر ورواية الاخبار . وبهذه الاجتماعات تعرف اليها ابو دهبل وتزوجها .

• وعائشة بنت طلحة . كان لها مجالس ادب وشعر ، فعابها زوجها مصعب ابن الزبير فقالت «ان الله وسمني بميسم جمال احببت ان يراه النـاس،وما كنت لأستره ، والله ما فيّ وسمة يقدر ان يذكرني فيهااحد.»(الدر المنثور ص ٢٨٣).

ولكن هذه الحرية ، التي كانت نساء صدر الاسلام يتمتعن بها ، لم تلبث ان انكمشت تدريجيـاً ، وتقلصت ابان الحضارة الاسلامية بتأثير نفوذ التقاليد الأعجمية .



الفصل الثالث

المرأة العربيّة في صدر الإسلام

مكانتها في الدين ومنزلتها في المجتمع

لكل من موسى وعيسى ومحمد اياد بيضاء على المرأة وذلـــك في رفع مستواها عن مرتبة الرقيق، واصلاح شأنها الاجتماعي. ولمحمد المزيد من الايادي اذ جعلها مستقلة في شئوونها الاقتصادية كل الاستقلال.

وقد ساوى الاسلام اسوة بالمسيحية واليهودية بين الرجل والمرأة في مرتبة الانسانية : « بعضكم من بعض» «الآية آل عمران» « ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منهـــا زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء» « سورة النساء » . واوصى بهـا خيراً مثلهما ، غـير ان توصيته بالمرأة شملت جميع مراحل حياتها : طفلة ، وشابة ، وكهلة ، وشيخة ، ثم ايما ، او متزوجة ،

او ارملة . وخص الام بالتوصية : « الجنة تحت اقدام الامهات » .

وكانت حياة محمد في بيته ، وفي معاملته المرأة في المجتمع تطبيقاً عملياً لوصايا الأسلام ، فأعلى من قدرها في المناسبات الكثيرة . وبلغ من بره بها ، وحدبه عليها بأنه كان يقول : « خيركم خيركم لأهله ، وانا خيركم لاهله » ؛ هذا فضلا عن انه جعلها متبرعة بخدمة بيتها واولادها ليكون لها ، اذا فعلت ، فضل المتبرعين .

وكان محمد ، وهو يريد ان يكون قدوة لغيره ، ينزل الى مستوى زوجاته ، ويباسطهن ، ويداعبهن امعاناً في التلطف بهن . قالت عائشة : «سمعت اصوات أناس من الحبشة وغيرهم، وهم يلعبون في يوم عاشوراء، فقال لي رسول الله ﷺ: « أتحبين ان تري لعبهم ؟ » . قلت « نعم » . فوضع كفه على الباب ، ومدّ يده ووضعت ذقني على يده ، وجعلوا يلعبون وأنظر ، وجعل رسول الله (ص) يقول وأقول : « اسكت ، اسكت» مرتين او ثلاثا .» ثم قال : « يا عائشة حسبك .» فقلت نعم . فأشار اليهم فانصرفوا . (الغزالي : احياء علوم الدين ج ٢ ص١٩). وروى الغزالي ايضاً : « انه جرى بين الرسول وبين عائشة كلام حتى ادخلا ابا بكر (والدها) حكماً . فقال لها رسول الله (ص) : « تكلمين ، او أتكلم ؟ » فقالت : « بل تكلم انت ، ولا تقل الا حقاً » فلطمها ابو بكر حتى دمى فوها، وقال : « يا عدية نفسها . او يقول غير الحق ؟ » فاستجارت برسول الله(ص)، وقعدت خلف ظهره . فقال (لابي بكر) : « لم ندعك لهذا ، ولا اردنا منك هذا . » فكان محمد بذلك رغم اساءة زوجه حريصاً على ان لا تمس المرأة باذى .

بل ذكر المؤرخون اكثر من هذا في الدلالة على رحابة صدر النبي ازاء ازواجه . فزعم بعضهم انهن كن يراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن الى الليل ، وان احداهن دفعت في صدره مرة ، فراجعتها أمها فقال : « دعيها

فانهن يصنعن اكثر من ذلك ! »

وعلى هذا النهج السوي في معاشرة النساء ، سار اصحابه . وهذا عمر بن الخطاب ، الذي ابت ام كلثوم بنت علي ان تتزوج منه وهو امير المومنين لما هو معروف من شدته روى ابن عبد ربه عنه (العقد الفريد ج ٣ ص ١٩٤) انه كان على سعة صدره في معاملة اهله يقول : « ينبغي للرجل ان يكون في اهله مثل الصبي ، فاذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً . » وهو الى ذلك كان يضع ثقته في المرأة حتى ولى احداهن على اسواق المدينة .

● هل ساوى الاسلام بين المرأة والرجل ؟

● لقد اوصى الاسلام بالمرأة خيراً ، وعاملها محمد وصحبه احسن معاملة ، وفقاً للاوامر الدينية ، وساواها في اكثر الحقوق الاجتماعية الا انه ، جعل ، على وجه عام ، للجنس القوي درجة على الجنس اللطيف ، « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » سورة البقرة .

ففي صحيح مسلم ان اسماء بنت يزيد الانصارية اتت النبي وهو بين اصحابه فقالت : « بابي انت وامي يا رسول الله . انا موفدة النساء اليك . ان الله عزوجل بعثك الى الرجال والنساء كافة فآمنّا بك وبأهلك . انا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وحاملات اولادكم . وانكم معشر الرجال فُضلتم علينا بالجُمَع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج . وافضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل . وان احدكم اذا خرج حاجاً ، او معتمراً ، او مجاهداً ، حفظنا لكم اموالكم ، وغزلنا اثوابكم ، وربينا لكم اولادكم . افنشارككم في هذا الاجر والخير ؟ » فالتفت النبي (ص) الى اصحابه بوجهه كله ، ثم قال : « هل سمعتم مسألة امرأة قط احسن من مسألتها في امر دينها من هذه ؟ » فقالوا « يا رسول الله ما ظننا ان امرأة تهتدي الى مثل

هذا !» فالتفت النبي (ص) اليها وقال: « افهمي ايتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء : ان حسن تبعّل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله . »

وهذا الحوار بين النبي وبين اسماء موفدة النساء اليه ، يعيّن مكانة المرأة في الاسلام. وهي مكانة التابع للمتبوع وقد يبدو هذا لابن القرن العشرين غريباً مستهجناً استناداً الى ما أصاب عصرنا من التطور الفكري والاجتماعي . واما اذا أخذ المعاصر بعين الاعتبار احوال المجتمع في العالم وقتئذ وما قبله ، وقرأ رسائل الرسل[1] مؤسسي الدين المسيحي زال عجبه واستهجانه . اذ يجد ان هذا الأمر كان مألوفاً عند سائر البشر في العصور الغابرة .

وحسبنا للتدليل على ذلك نقل الوصية التي وجهها بطرس للجنسين (الرسالة الاولى الاصحاح ٣) حيث قال :

« كذلك ايتها النساء كن خاضعات لرجالكن ، وحتى لو كان البعض لا يطيعون الكلمة . يُربحون بسيرة النساء بدون كلمة ، ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف ، ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية من ضفر الشعر ، والتحلي بالذهب ، ولبس الثياب بل ان انسان القلب الخفي في العديمة الفساد زينة الروح الوديع الهادي الذي هو قدام الله كثير الثمن . فانه هكذا كانت قديماً النساء القديسات ايضاً المتوكلات على الله يزين انفسهن خاضعات لرجالهن ، كما كانت سارة تطيع ابراهيم داعية اياه سيدها . »

وهذه التوصية التي اوصى بها بطرس تشير الى مكانة المرأة الاجتماعية في صدر المسيحية ، كما تشير اليها في عهد بني اسرائيل . وهي الى ذلك تدعو النساء الى

---

(١) راجع : وصية بولس الى كرنثوس ؛ الاصحاح ١١، ورسالة بولس الى تيوتاوس، الاصحاح ٢ ، ورسالته الى افسس : الاصحاح ١١ .

الخضوع لرجالهن حتى ولو كانوا لا يطيعون الله خلافاً للاسلام . « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » حديث نبوي .

وقد يُواخذ كثيرون الاسلام ايضاً لاثباته تعدد الزوجات ، والتسري ، والطلاق ، والحجاب ، كما يأخذون عليه التفاوت في الارث بين الجنسين والشهادة . ولكنا اذا رجعنا الى ما كانت عليه الجاهلية من فوضى التقاليد والاحكام في هذه الامور ، والى ما كانت عليه المرأة في مستوى الأماء ، وسائر الاشياء التي يملكونها ويتوارثونها ، اذا رجعنا الى كل ذلك ، قدرنا حق التقدير ما قام به الاسلام من الاصلاح في كل ناحية من هذه النواحي .

وفضلاً عن ذلك فانا اذا رجعنا الى العالم المسيحي المعاصر لعهد الجاهلية ، ورأينا كَم كانت المرأة فيه مغبونة حتى انهم كانوا يشكّون في انسانيتها قدرنا ايضاً ما جاء به الاسلام من الاصلاحات في تلك الاجيال المظلمة .

ولقد عالجت هذا الموضوع مدام افريل[1] . وبعد ان استعرضت حالة المرأة المزرية في تلك الحقبة، واشارت الى انه كان من واجبها أن تكون تابعة للرجل بل عبدته ، قالت عن الكنيسة : « وقد توسع لديها هذا المبدأ حتى انها في مجمع ماكون سنة ٥٨٢ م جرى البحث فيما اذا كان للمرأة نفس ، وتساءلوا عما اذا كانت تعتبر في عداد البشر » وعلقت مدام افريل على هذا بقولها : « وحفاظاً على كرامة اعضاء هذا المجمع نبادر الى التصريح بأنهم بعد جدال طويل وعنيف اتخذوا قراراً بالايجاب ، ولكنه بكثرة قليلة ! »

- **اثر الاسلام في انتعاش المرأة اجتماعياً .**

- بلغ نفوذ النبي على اصحابه مبلغاً كان المسلم فيه يرى نبيه آثر عليه من

---

(1) Me Avril de sainte croix. Le féminisme P 10 - 11

نفسه وماله ، وولده ووالده . وأين فعل السحر ونفوذ المنوم المغنطيسي من نفوذ محمد الذي صارت ارادته هي الارادة العامة ؟ لذلك فرغم ما في انتقال البشر فجأة من طور الى طور من الصعوبة التي تشبه المستحيل ، ورغم ان تقاليد الأمة التي تقرها العصور لا تندثر دفعة واحدة ، ولا تتبدل الا بمر الزمن ، فان التعاليم الاسلامية الجديدة ، بالاضافة الى معاملة محمد للنساء ، قلبت نظام المجتمع العربي في عهده . فاذا باولئك الرجال الذين كانوا ، في الامس القريب ؛ يعتبرون المرأة مخلوقة للمتعة وللخدمة ، ينقلبون الى اعتبار النساء رفيقات ، لهم ثم لا يعاملونهن بالرحمة والمودة فحسب ، وانما صاروا يعاملون الرقيقة منهن معاملة الرفيقة اسوة بنبيهم . وكان من عواقب ذلك ان نساء صدر الاسلام وجدن في هذا التبدل ، من حال الى حال ، نعمة عظيمة غمرتهن ، فشعرن بمنزلتهن ، وطالبن بحقوقهن ، وقمن بواجباتهن منتعشات الأرواح نشيطات الأجسام . والفين في امتثال الرجال لاوامر الدين حافزاً لتوكيدهن الواجب نحو الاسلام ، والانطلاق به من مجال القول الى مجال العمل .

● **المرأة تنتزع بمساهمتها في السياسة المزيد من المنزلة الاجتماعية .**

● للأنقلابات الاجتماعية من الفوائد الجليلة ما لها : فهي تبعث النشاط بين الناس ، وتجدد فيهم روح الحياة حتى لكأنها توقظهم من سبات . ولا يزال الشيوخ منا يذكرون الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، وأثره في تحريك الهمم ، وتأليف الجمعيات ، وانتشار الصحف ، وبعث النهضة العامة . ولا يزال الكهول منا يذكرون عهد الملك فيصل في سوريا ، وكيف ثارت فيه النفوس ثوران البركان او أشد ؛ ويذكرون ما تخلله من نشاط عام في صعيد العمل ، والتضحية في سبيل البناء والوحدة والاستقلال .

وماذا يكون الانقلاب العثماني ، او العهد الفيصلي في الميزان امام القنبلة الذرية التي القاها محمد فابادت طقوس الجاهلية ، وانارت سبل العرب الى الأزل ؟

ومثلما يولد الاحتكاك النار فان الايام العصيبة ،ايام العمل وتنازع البقاء، تكون فرصة لاكتشاف الافذاذ ، وظهور النوابغ بين الجنسين .

انها قنبلة فعلت في العالم الواسع ما لم تفعله قنبلة اميركا في مدينة هيروشيما المحدودة على ما بين القنبلتين من فارق في الهدف والنتيجة . فاذا بجزيرة العرب تنتفض ، من بعد ، وتخرج اثقالها وتلقي بها شظايا ملتهبة ما بين الصين والمحيط الاطلسي .

ولقد كانت المرأة صورة مجتمعها ، تبدو من خلال جميع ظواهره ، وتشارك في احداثه كلها ، تتأثر بالدين كما تأثر الرجل ، وتربي الاولاد على البطولة كما كما يفعل الرجال، وتقف الى جوارهم في المعامع،ومشتجر الاسنة، فاذا اضطربت الآراء ، واختلفت وجوه النظر في السياسة وغيرها رأيتها هنالك شاهدة لا تغيب تصارحه برأي ولا تلتوي حين يكون الرأي خطلاً.

وقد ابتليت بما ابتلى به المؤمنون من اذى قريش ، وضحت كما ضحوا وهاجرت الى الحبشة فراراً بدينها مع من هاجر ، وسارعت الى الهجرة الى يثرب حين دعا النبي اليها، وجاهدت في بدر وأحد وغيرهما ، واستقبلت فقد الاحبة واستشهاد الآباء والابناء والاخوة بصبر المؤمن ، وجلد الكريم . هذا فضلاً عن انها استطاعت ان تذهب في وفائها للزوج والولد مثلاً باقياً ، وان تنافس الرجال في العلم بالاسلام حتى تكون بعد ذلك معطية له واعية للقرآن ، راوية للحديث سابقة الى الاجادة في شتى ضروب الشعر ، خطيبة تأخذ بأعنة النفوس في ازمات ومناسبات جامعة . ثم حين لقي الرسول ربه ، وغشيت المسلمين من بعد فتنة الاختلاف على من يخلفه ، ويقوم بعده بأمر الامة ، كانت المرأة تمثل دورها ، وترفع صوتها . والزهراء فاطمة بنت الرسول دورها في انكار البيعة لأبي بكر شاهد على ذلك : ولقد حملت علياً على عدم البيعة ، وبقي على ذلك حتى لقيت ربها بعد أبيها بستة اشهر . وانحاز اليها في

مجانبة ابي بكر بنو هاشم جميعاً ، كما انضم اليهم ابو سفيان بن حرب رأس بني أمية ، والزبير بن العوام بطل قريش ، وحواري الرسول . واقام علي والزبير بدار فاطمة لا يبرحانها . (ع عفيفى : المرأة العربية ج ٢ ص ١١٦)

وانصرف المسلمون رجلاً واحداً في خلافتي أبي بكر وعمر يشدون دعائم الدعوة ، ويحملون بركاتها الى جوانب المعمور يومئذ ، والمرأة تنهض في كل ذلك بدور باسل ، حتى أطلت الفتنة برأسها من جديد بعد ان ولى الخلافة عثمان ، واراد اهله بنو امية ان يقطفوا وحدهم ثمار الرسالة ، وان لا يسهم معهم احد في مقال ولا حال ، ونكلوا بمن ابدى معارضة لهم . وكان من الطبيعي ان تجمع الاقطار على معارضتهم والنقمة عليهم ، واعلان ضعف عثمان وعجزه عن النهوض باعباء الخلافة ، وان غيره اقدر عليها واولى بها منه . وقتل عثمان في فتنة لا نزال نجرع حتى الساعة مرارتها ومرارة ما جاء بعدها .

وولي الخلافة من بعده علي فلم يكن عهده صفواً ، وظهرت ام المؤمنين في هذا الجو وهي تنقم أشد النقمة على قتلة عثمان ، فاتهمت علياً، والّبت الناس عليه ، ودعت لحربه ، وساعدها طلحة والزبير وعبد الله بن عامر وجماعة من بني أمية ، وجمعوا جمعاً عظيماً واستولوا على البصرة . وسار علي لقتالها فالتقوا في مكان يعرف بالخريبة، وتقاتلوا وعائشة راكبة الجمل في الهودج، وقد صار كالقنفذ من النشاب . ولمّا كثر قطع الايدي على خطام الجمل قال علي: «اعقروا الجمل ، فضربه رجل فسقط ، وتمت الهزيمة على اصحاب عائشه . ثم امرهم علي بالرجوع الى المدينة ، وان تقر في بيتها (ابي الفداج ١ ص ١٧٤) .

وظهر في أثر عائشة خلال الصراع حول الخلافة بين علي ومعاوية كثيرات من النساء كان بعضهن نصيرات لعلي واهل بيته ، وكان غيرهن مؤيدات لخصومه . على ان نصيرات علي كن اوفر عدداً، واشد حماساً ، وها كم اشهرهن :

● سودة بنت عمارة الهمدانية . كانت من المحرضات على قتل معاوية، ولها اشعار حمّست بها اخاها في صفين .

● الزرقاء بنت عدي بن غالب . كانت يوم صفين وهي على جملها تحمس انصار علي على معاوية .

● عكرشة بنت الاطرش بن رواحة . كانت من خطيبات النساء يوم صفين المحرضات على معاوية .

● ام الخير بنت الحريش البارقية . من خطيبات الحروب اثناء تلك الفتنة . لها خطب حماسية يوم قتل عمار بن ياسر تثير فيه جيش علي .

● بكارة الهلالية . من خطيبات يوم صفين .

● هند بنت زيد بن مخرمة الانصارية . حضرت جملة حروب مع علي ، ولها مراث في انصاره .

على ان هناك سيدات أخريات لم يشتركن في الحروب التي دارت رحاها بين علي ومعاوية ولكنهن ابلين بلاء حسناً في نصرة اهل البيت حتى بعد استتباب الامر لمعاوية. منهن: غانمة بنت عامر القرشية، وآمنة بنت الشريد، وام سنان بنت خيثمة ، والدارمية الحجونية ، وجروة بنت مرة بن غالب . وكان لعلي نصيرات أخريات غير اللواتي نوهنا بهن آنفاً واعني بهن سيدات آل هاشم عشيرته ، كزينب بنت علي زوج عبد الله بن جعفر ، وأروى بنت عبد المطلب، وغيرهما من اللواتي خضن المعارك السياسية في سبيل تأييده ، وكن احرص الناس على انتصاره .

واما خصيمات علي فكن قليلات لان النساء كن وقتئذ يقدسن آل البيت ، على وجه عام . فلما تضاربت المصالح السياسية والعشائرية في اعقاب مقتل

عثمان فان بعض زوجات خصوم علي لم يتبعن رجالهن بـل ظللن ، على الاكثر وفيات لمن يقدسن ، وقاتلن في صفوفه او تخلفن عن اللحاق برجالهم . وتلك الظاهرة اكبر دليل على تمتع المرأة باستقلال الرأي ابان تلك الانتفاضة الاجتماعية .

واشهر خصيمات عـــلي عائشة بنت ابي بكر زوج النبي التي كانت وخديجة احب النساء اليه . فقد اتهمت علياً بقتل عثمان فأثارت الطلب بدمـه كما اسلفنا ، وتوفيت سنة ثمان وخمسين للهجرة . وتليها زينب بنت العوام أخت الزبير ، وهي رفيقة عائشة في المطالبة بدم عثمان ، وفي اثارة المسلمين على علي والدعوة لحربه . وقد اشتركت بنفسها في وقعة الجمل ، وتوفيت بعدها بقليل .

وظل نساء صدر الاسلام بعد ذلك محافظات على النشاط الاجتماعي الذي بعثه فيهم هذا الدين الجديد حتى اذا ما ادعى الخلافة عبدالله بن الزبير بالمدينة بعد موت معاوية (سنة ٦٠ للهجرة) كانت سيدة اخرى تدعى الجمانة في طليعة خصومه .

ومما يذكر بالتقدير لنصيرات علي وفاؤهن له في حياته ومماته بعد ان حالت بينهن وبينه الاحداث .

وأكثر من ذلك فأن الوافدات منهن على معاوية شاكيات من ظلم عماله لم يعرفن المداهنة ولا التمليق . واليكم بعض الامثلة على وفائهن وعلى جرأتهن الادبية :

● جاءته سودة بنت عمارة بلسان قومهـــا شاكية ظلم عامله ابن ارطأة ، فلنستمع اليهـــا تتحدث حديث الزعيم الى الزعيم الاكبر قالت : « يا امير المؤمنين انك للناس سيد ، ولأمورهم مقلد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا . ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسية ، ويسألنا الجليلة . هذا ابن ارطأة ، قدم بلادي وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة . فـأما عزلته فشكرناك ، وأما لا فعرفناك ! » فقال معاوية .

« فقال معاوية . « اياي تهددين بقومك ؟ ووالله لقد هممت ان أردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك . » فسكتت ثم قالت :

صلى الأله على روح تضمنه قبر فاصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا فصار بالحق والايمان مقرونا

قال معاوية : « ومن ذاك ؟ » قالت : « علي ابن ابي طالب » قال : « وما ارى عليك منه اثرا . » قالت : « بلى ، أتيته يوماً في رجل ولاه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والثمين ، فوجدته قائماً يصلي ، فانفتل من الصلاة . ثم قال برأفة وتعطف : « الك حاجة ؟ » فاخبرته خبر الرجل . فبكى ، ثم رفع يديه الى السماء ، فقال : « اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك ، وترك حقك . » ثم اخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . قد جاءتكم بيّنة من ربكم فاوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس اشياءهم ، ولا تعثوا في الارض مفسدين . بقيةُ الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما انا عليكم بحفيظ . اذا اتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك ، والسلام » فعز له يا امير المؤمنين ، ما خزمه بخزام ، ولا ختمه بختام . »

فقال معاوية : « اكتبوا لها بالانصاف لها ، والعدل عليها . »

ان انساناً بمقام سودة اساء امير المؤمنين بما بدر عنه من التهديد ، ومن التعريض بمآثر خصمه ، ثم مُنح ، بعد ذلك الانصاف كان من المفروض به ان يبادر الى الشكر ، قانعاً بما أصاب . لا جرم ، ولكن عواطف سودة كانت أعجز من التغلب على عقلها فتنسيها قومها الذين تكلمت بلسانهم ، وهددت بمهندهم ، فقالت لمعاوية : « أإليّ خاصة ؟ ام لقومي عامة ؟ » قال : « وما انت

وغيرك ؟ » قالت : « هي والله الفحشاء واللؤم ! ان كان عـدلاً شاملاً ، والا فيسعني ما يسع قومي ! » فأمر بأن يكتبوا لها بحاجتها . » (العقدالفريد ج ١ ص ١١٥) .

وجاءت معاويـة ايضاً ام سنان بنت جشمة تشكو اليه مروان بن الحكم عامل المدينة . وكان حديثها معه كحديث سودة ، ونصيبها من الحلم والانصاف كنصيبها .

وهذا مجال للتنويه بمعاوية داهية الاسلام ذلك الذي اتسع حلمه لهاتيك اللواتي تعرضن لشخصه في حرب ، وسلم ، ولقين منه ذلك الحـدب وتلك الرعاية . على انا لا ننسى ان هذا الخليفة الحلـيم استعمل الشدة في مواضع اخرى فقتل حجر بن عدي ، وعمرو بن الحق واصحابهما اذ قالوا بأن علياً لا يجوز لعنه على المنابر . (ابن الاثير ج ٣ ص ٢٣٧) .

وهنا مجال للتنويه ايضاً بما اثاره الاسلام من مزيد النشاط في نساء ذلك العصر ، وما انتزعن لانفسهن ، بهذا النشاط ، من المنزلة السامية بين اقوامهن. أرأيت كيف اوفدت همدان سيدة منهن الى علي في خلافته ، ثم الى معاوية حينما صارت الخلافة اليه ، دون الرجال ، فتتكلم سودة بنت عمارة بلسان قومها. ثم لا ترضى الا ان يكون الانصاف شاملا لهم . وتقول حين راودها معاوية ان تقنع بانصافها وحدها : « هي والله الفحشاء واللؤم ؟»

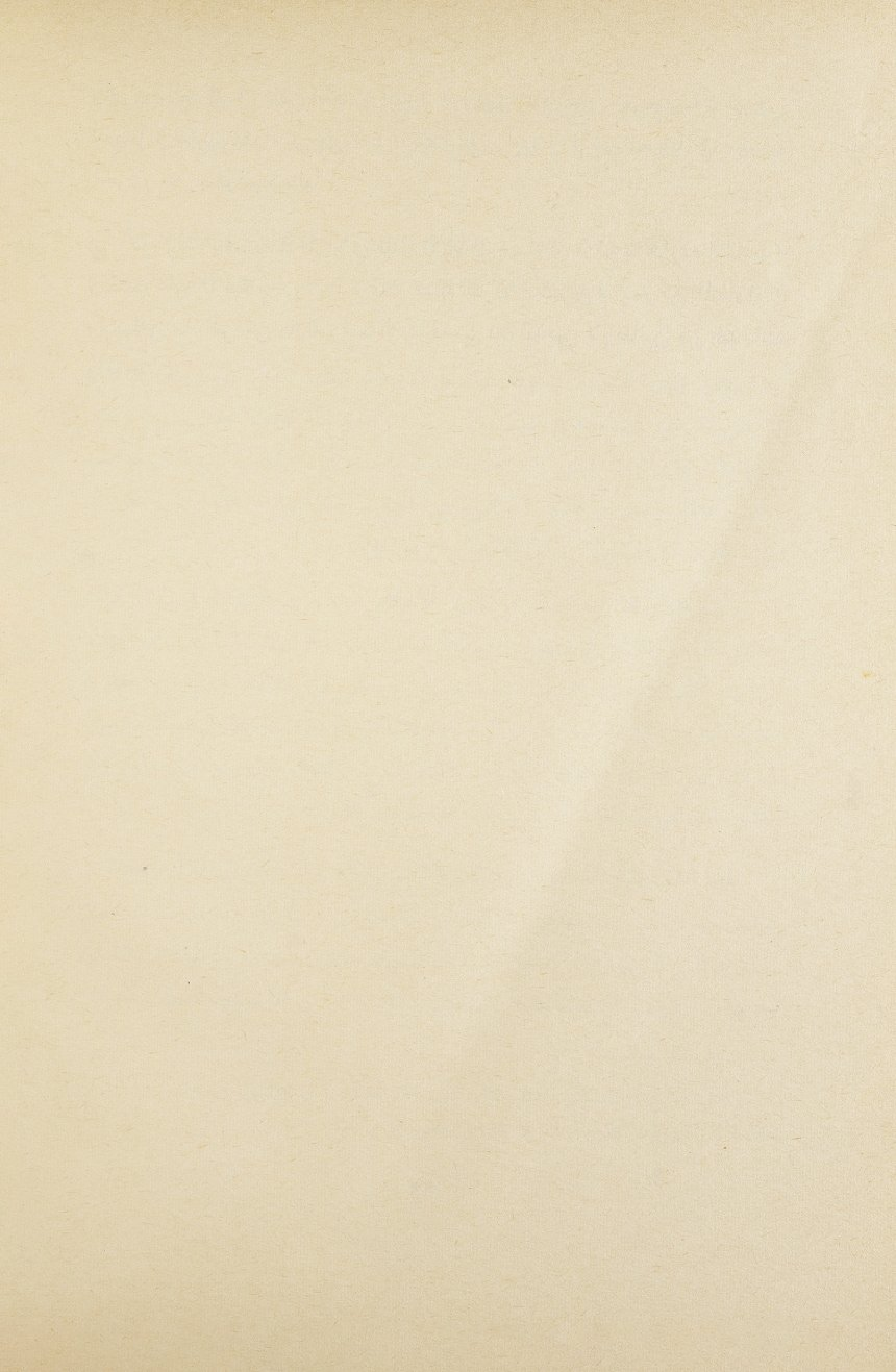
ففيما اتفق عليه المسلمون وقتئذ كانت المرأة والرجـل يداً واحدة في الملمات : تهاجر اذا هاجر ، وتحارب اذا حارب ، وتبذل اذا بذل ، وتحضر معه مجالس الرسول ، وتدخل المساجد لشهود حلقـات العلم والوعظ والصلاة جماعة [١] . وفيما اختلف عليه المسلمون كانت ترأس الاحزاب السيـاسية ،

---

(١) ورد في الصحاح ان الرسول كان يعد للنساء ، في مجالسهن وصلواتهن ، اماكن خاصة ، وكان يأمر الرجال ان لا يخرجوا حتى تخرج النساء .

وتخوض المعارك ، وتلقي الخطب المثيرة ، وتنشد الاشعار المهيجـــة . ثم هي احياناً لا تتقيد باهواء الرجل ؛ بل تعتمد على رأيها ، وتمشي احياناً في صفوف اخرى غير صفوف رجلها .

كل ذلك رفع شأن المرأة في تلك الايام الى مستوى ارفع مما قررته التقاليد، ونصت عليه الاحكام . ولا بدع فان نساء القرن العشرين لم يدركن المساواة ، ولم يبلغن ما بلغن من منزلة رفيعة الا بما قدمن بين ايديهن لاوطانهن من خدمات وتضحيات .



الفصل الرابع

المرأة العربيّة في عهد الانتقال

انتكاس وتراجع واستغلال الرجال لاحكام الاسلام

يرافق الانتفاضات الاجتماعية عند الأمم نشاط ممتاز بين الأفراد يدفع بهم لتجاوز مستوى العادات المألوفة . واستناداً الى ذلك والى ما تناوله الاسلام من الاصلاح في احوال المرأة الشخصية ، والى ما قرره من مساواتها في الانسانية ظهر نساء عصر النبوة والراشدين في مظهر جديد حافل بالنشاط ، فشاركن في الأمور السياسية ،وساهمن في المعارك الداخلية والخارجية،وشاطرن في الأمور الدينية . فكان هذا المظهر رافعاً لقدرهن ، ومقوياً لمعنوياتهن . ولكن ما ان تحولت الخلافة الى ملك عضود، وانتقل الحكم من المدينة الى دمشق ، واستتب الأمر للأمويين حتى انكمشت المرأة ، ولزمت بيتها ، وعرفت مكانتها في نطاق التقاليد ، وحدود الشرع .

حقاً ان الاسلام حرر المرأة من قيود وعادات كانت رائجة في الجاهلية ، ورفع منزلتها اذ جعلها تساهم في الارث ، والاستقلال الاقتصادي فيما تملك من

غير ان يكون للزوج دخل في ذلك ، وأصلح في احوالها الشخصية اذ جعل للزواج احكاماً ، وللطلاق وتعدد الزوجات قيوداً ، بعد ان كانت على شيء كثير من الفوضى ، الا انه ، في الواقع ، لم يمنحها المساواة الكاملة بالرجل ، ولم يرفع عنها وصايته ،بل اوصاها بالتزام طاعته ،فيما عدا معصية الخالق كما ذكرنامن قبل.

ثم استغل الناس هذه الاحكام بعد عصر النبوة ، فاذا بمرتبة المرأة تنزل عن المستوى الذى قرره لها الاسلام . فكانت نكسة انتهت بانسياق المرأة نفسها مع الافكار العامة.انتهت الى الاعتقاد بأنها قاصرة، وانها انما خلقت لتكون متعة للرجل ، وخادمة لهذا السيد ، وذلك اسوة بما وقع عند المسيحيين بعد عيسى .

فما هي اسباب النكسة التي منيت بها المرأة بعد عصر النبوة ؟

لقد اسلفنا ان الاسلام فصم فجأة عرى الصلات بين تقاليد العرب وعاداتهم وأحكامهم القديمة ، وبين مجتمعهم الجديد ، وان نفوذ الرسول عليهم بلغ من قوته ان حوّل وجهاتهم الى وجهته ، وجعل ارادته تهيمن على اراداتهم. بيد ان الطفرة محالة ،«وان أشداخلاق الأمم رسوخاً عندها،(كما قال كوستاف لوبون، روح الاجتماع ص ١٠) هو التراث الفكري الذي ورثته عن أبائها » فما ان توفي النبي حتى شرعوا ، دون تصميم ، يتلمسون طبائعهم ومشاعرهم الأولى . وبدا ذلك اول ما بدا ، ببروز العصبيات القبلية ، والاعتبارات العشائرية .. وكان قتل عثمان ، كما كانت الحروب بين علي ومعاوية ، مظهراً من مظاهرها ، ورجوعاً الى التنافس بين بني أمية وبني هاشم. ومن هذا القبيل عودتهم الى النظر للمرأة كما قبل،وشروعهم في التضييق عليها تباعاً.خصوصاًبعدان اختلط المسلمون بالأعاجم في اعقاب فتح الشام والعراق في عهد الخليفة عمر . ثم مضوا في ذلك إثر استيطانهم تلك الأمصار، وتأثرهم باخلاق أهلها ،وهم من اصحاب مدنيات قديمة كانوا، بالنسبة للعرب ، من بناة الدولة والحضارة . فاذا بالمسلمين ، وقد تأثروا بما رضعه اباؤهم مع ألبان امهاتهم ، وتفاعلوا ايضاً مع محيطهم الجديد، يتخذون

من احكام الاسلام ، في تعدد الزوجات ، والتسري ، والطلاق ، والحجاب ، مطايا لاهوائهم . واذا بهم ينظرون الى المرأة على وجه عام بغير العين التي اوصى بها الاسلام . وكان تدفق الثروة على البلاد العربية حافزاً لهم على هذا التحول ، ولا بدع فان « الانسان ليطغى ان رآه استغنى » .

ونحن هنا نبين كيف استغل المسلمون احكام الاسلام في هـــذه القضايا الاجتماعية للاستمتاع بزينة الدنيا ، وذلك لكشف النقاب عما صارت اليه المرأة في ذلك العهد ، الذي أسميناه عهد الانتقال ، ذاكرين في هذه المناسبة ما رواه سينوبوس (تاريخ التمدن الحديث ص ٤٢) عن بولنبروكي الانكليزي ، قوله : « ان كل فريق يخول سلطة يميل الى جعلها مطلقة . »

● **تعدد الزوجات والطلاق ، وما انتابهما من الاستغلال .**

● راعى الاسلام واقع الناس يومئذ وما ألفوه ، غير انه تلطف في تغيير مـا ليس من تغييره بد ، فجوز تعدد الزوجات والطلاق ، ولكنه جعل لهما مبررات وحدوداً . غير ان بعض المسلمين ، وقد أقبلت عليهم الدنيـــا منذ بدء العصر الاول ، رأوا في هذه الاباحة انسجاماً مع هوى نفوسهم ، وسبيلاً للتمتع بالمرأة وذلك أسوة بالذين سلفوهم ، وعلى غرار الذين خالطوهم من شتى العناصر . وقال قائلهم وهو المغيرة بن شعبة : « صاحب المرأة الواحدة ان حاضت حاض معها ، وان مرضت مرض . وصاحب الاثنتين بين حجرتين ايتهـــما ادركته احرقته ، وصاحب الثلاث في رستاق كل ليلة في قرية . وصاحب الاربع عروس في كل ليلة . » (حامد حشيشو – اخبار ذات السوار ص ٥٣) .

وأخذاً بظاهر الآية التي وردت في سورة النساء : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . » ودون التقيّد بما ورد في آخرها من شبه المنع : « فأن خفتم ان لا تعدلوا فواحدة » فقد راح المسلمون باكراً يجمعون بين

الاثنتين والثلاث والاربع عدا السراري اللواتي لم يحدد الدين عددهن . وكان بعضهم لا يقنع بعدد الزوجات الذي حدده الدين، فاتخذوا الطلاق مجالاً للاستزادة كما يفعل الآن بعض عواهل النفط ، وبعض امرائهم من العرب .

ففي مختصر ربيع الابرار ص ٧١ « ان الحسن بن علي تزوج ٢٥٠ امرأة ، وقيل ٣٠٠ . وكان ابوه يضجر من ذلــك ويستحي من اهليهن اذا طلقهن . وكان كلما خطب له يقول : « ان حسناً مطلاق فلا تنكحوه » . وقيل « ان المغيرة ابن شعبة احصن ٣٠٠ امرأة في الاسلام . وقال ابن نافع الفاً . » وربما كان في كل ذلك مبالغة ، الا ان المبالغة مهما كانت فانها لا تنفي كثرة اقبالهم على النساء .

لقد كان علي يقول : « ما الزواج الا للأولاد » وكذلك كان عمر ، ولكن الذين خلفوهم ، في عصر الانتقال ، لم يعودوا يفكرون بالنسل ، وانما كان همهم ، وقد توفر المال بين ايديهم ، ان يتذوقوا اشتــات الملذات ، وان يتمتعوا بنساء العالم بعد ان افضى اتساع الفتوحات الى غمر العرب بالجواري الحسان ، والسراري الفاتنات . وكان عمر – وقد انهالت الاموال على بيت المـال من سوريا والعراق بعد الفتح – يوزعها على المسلمين ، وجعل لها ديواناً بالمدينــة يشرف على هذا التوزيع . قال له ابو سفيان : « اديوان مثل ديوان بني الاصفر ؟ انك ان فرضت للناس اتكلوا على الديوان ، وتركوا التجارة » فاجابه عمر « لا بد من هذا فقد كثر في المسلمين » (البلاذري فتوح البلدان ص ٤٤٤) . وكان عمر يريد ان يكون هذا العطاء زيادة في رؤوس اموالهم ، بيد انهم استغـلوه في الترفيه عن انفسهم ، ولاسيما في عهد عثمان ، فاكثروا من تبديل الزوجـات ، وابتنوا القصور وملؤها بالسراري . فـاذا بالمدينة ، حيث المسجد الحرام ، تصبح سوقاً من اكبر اسواق الجواري ، ومدرسة لتخريجهن ، وقاعدة لجماعة المغنين والمغنيات ، ومثلها مكة !!

● **التطور في الحجاب والأتزار والمخالطة**

● هل يعطي الجحاب معنى ستر الوجه والأتزار ، واجتناب مخالطة غير ذي رحم من الرجال ؟!

لقد تباينت الاقوال في هذا ، وراح بعض الكتاب المعاصرين مذاهب بعيدة في تقرير رأيهم ، فمنهم من جرى وراء عاطفة فاقره ، ومنهم من ساق ادلته ومنعه ، والناس – على ذلك – لا يطمئن بهم الرأي : أكان الحجاب راجحاً ام مرجوحاً في صدر الاسلام .

واليك جواباً من هذا القبيل على مثل هذا السؤال للكاتب الهندي الأمير علي استشهد به قاسم امين (المرأة الجديدة ص ١٤٧ – ١٤٨) قال : « ولا بد ان يسأل سائل ، هل كان نساء الخلفاء وغيرهن من النساء يبرزن ملتفات بالأكفان كالنساء الشرقيات في مدن الشرق الادنى ؟! يظهر لي انهن لم يكن يلبسن غير النقاب يسترن به وجوههن، كما تستر نساء الأستانة باليشمق، فيخفي غضون الشيخوخة ، ويظهر جمال الصبا . اما البرقع الشامل للوشاح والنقاب والخمار ، فلم يشع الا في اواخر عهد السلاجقة . واما الاحتجاب بالبردة – على ما هو شائع الآن عند مسلمي الهند وغيرها من البلدان – فلم يكن معروفاً في تلك العصور،والنساء من الطبقات العليا كن يظهرن امام الرجال غير متبرقعات .

« واستخدم العرب الخصيان في عهد معاوية آخذين ذلك من الروم ، واقتبسوا نظام الحريم في عهد الوليد الاموي الثاني . وامر المتوكل – نيرون العرب – بفصل الرجال عن النساء في الولائم والحفلات العمومية . ولكن بقي النساء يختلطن بالرجال الى اواخر المائة السادسة للهجرة ، وكن يقابلن الزوار ، ويعقدن مجالس الانس ، ويمضين الى الحرب لابسات الحديد، ويساعدن اخوتهن •

وازواجهن في الدفاع عن المعاقل والقلاع . ولما اضمحل شأن الخلفاء في اواسط المائة السابعة ، ومزق التتار شمل الدول العربية ، قام العلماء يتجادلون في هل الاليق بالنساء ان يظهرن ايديهن وأقدامهن ؟ »

هل نفهم ان الاميرجرى على قاعدة « الغاية تبرر الواسطة » ورغبة في تقرير رفع النقاب تسامح في تحوير التاريخ ؟ ومهما يكن من شيء فما احرى المؤرخ بتحري الحقائق ، والدخول الى الاصلاح من الباب الذي لا يشوه التاريخ. فابواب الاصلاح مشرعة ، وبوسع كل احد ان يدخلها متوكأ على اجتهاده دون ان يعمد الى تبديل الحقائق ، لان تاريخ كل امة ليس ملكاً لها، وانما هو حق مشاع عام .

والواقع ان الاسلام امر بالحجاب ونهى عن الخلوة بالنساء . الا انه لم يمنع المرأة من الخروج الى مجالس العلم والمساجد والاعمال الخيرية ، ولا سيما اذا كانت بحالة او بسن يؤمن عليها فيها !

والذي يهمنا ان نعلمه في هذا البحث التاريخي .. ما هو الحجاب الذي كانت تزاوله المسلمة في صدر الاسلام ؟

هل كانت تستر وجهها وتأتزر ، وتمتنع عن مخالطة الرجال ؟

اما ستر الوجه .. فمن يدقق في التاريخ يلاحظ انه كان عادة جارية وقتئذ عند اهل الحضر وبعض اهل البادية .. وعلى الاغلب معظمهم — والكاتب الهندي اعترف بوجوده وحده من بين بقية ما تدل عليه كلمة الحجاب .. ولكن يرجح ان يكون على شكل النقاب — وهو القناع على مارن الانف مثل نساء مصر — ونحن على رأيه في ذلك ، وان خالفناه بانه كان « كاليشمق للزينة ، وبانه لم يكن حينئذ ازار ولا خمار !» ونحن نؤيد اولاً ما وافقناه عليه ، ثم نثبت ما خالفناه فيه ..

– ان الادلة على وجود عادة ستر الوجة في صدر الاسلام وافرة في كتب الدين والاخبار والاشعار . وليس مقصودنا بكتب الدين ما جاء فيها من اقوال الائمة في وجوب النقاب ، بل المقصود ما فيها من المباحث التاريخية التي تأتي عرضاً ، لان غايتنا الاستنتاج الخصوصي من التاريخ لا التشيع لرأي ما .

– من الاخبار التاريخية التي جاءت – بمناسباتها – في الكتب الدينية ، فايدت وجود النقاب في صدر الاسلام ماروي عن كيفية نظر النبي الى زينب بنت جحش . قيل : « ان النبي مضى يوماً الى بيته لغرض ، فرفعت الريح باب الخباء فرأى زينب حاسرة ... » ففي هذه الرواية دليل صريح على ان الحسور كان محظوراً وقتئذ على النساء .

ويؤيد ذلك تأييداً جازماً ما نراه خلال كتب السنة والفقه في البحث عما يجوز رؤيته من المخطوبة .. ففي الحديث الذي روي عن محمد بن سلمة دليل على الحجاب قال ..

«خطبتُ امرأة فجعلت اتخبأ لها حتى نظرت اليها في نخل لها : فقيل له : أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله (ص)؟ فقال سمعت رسول الله (ص) يقول اذا القى الله في قلب امريء خطبة امرأة فلا بأس ان ينظر اليها » (سنن ابن ماجه ج ١ ص ٢٩٤) .

فلو كان وجه النساء ظاهرا حاسراً وقتئذ ، ما تخبأ ابن سلمة ليرى هذه المرأة ، بل لو كان النساء سافرات لما تعرض النبي لحض المسلمين على رؤية المرأة قبل خطبتها .

.. أما ما اتى في اخبار صدر الاسلام – مما يؤيد وجود النقاب – فهو كثير جداً ، يواجه كل باحث في التاريخ ... قيل «انه لما اكثر الاحوص

الشاعر في تشبيبه بـأم جعفر ابنة عبدالله بن عرفطة الأوسية جاءت متنقبة فوقفت عليه ، وهو في مجلس قومه ، ولا يعرفها ، فقالت له : « اقضي ثمن الغنم التي ابتعتها مني ! » قال .. « ما ابتعت منك شيئاً » ، فـاظهرت كتاباً قد وضعته عليه ، وبكت وشكت حاجة وفـاقة . وقالت : « يا قوم كلموه »فلامه قومه، وقالوا : «اقضي المرأة حقها». فحلف انه ما رآها قط ولا يعرفها فكشفت عن وجها وقالت : « ويحك أما تعرفني ؟! » فجعل يحلف انه ما يعرفها ولا رآها قط حتى اذا استفاض قولها وقوله ، واجتمع الناس وكثروا وسمعوا ما دار وكثر لغطهم واقوالهم قامت ثم قالت :«ايها الناس اسكتوا..» فسكت الناس ، ثم اقبلت عليه ، وقـالت : « يا عدو الله صدقت ، والله ما لي عليك حق ، ولا تعرفني . وقد حلفت على ذلك وانت صادق ، وانا ام جعفر ، وانت تقول: «قلت لأم جعفر،وقالت لي ام جعفر ! » فمن اين قلت لك وقلت لي ؟ وانت لم ترني الا هذه الساعة .»فخجل الاحوص وانكسر عنذلك وبرأت عندهم » (زينب فواز– الدر المنثور ص ٦٨) .

ما اشد دلالة هذه الحادثة على حجاب المرأة في ذلك العصر واستعمالها النقاب.. وامثال هذه الحادثة كثير .. ولعلك ما زلت على ذكر ما اسلفناه في الحديث عن عائشة بنت طلحة التميمية ، وكيف كانت لا توافق قومها على ستر الوجه حتى عابها زوجها مصعب بن الزبير في ذلك . على انها كانت حين تخرج الى الاسواق وتضطر لمخالطة الناس في المواسم تتنقب وتحتجب.وقد جاء في الدر المنثور (ص ٩٠) « ان الشاعر عمر بن ابي ربيعة امام المشببين ما لبث يطوف حول عائشة هذه ايام الحج ويعترض طريقها عساه يرى وجهها ، وهي تكره نظراته ، وتدرك غايته ، حتى رافقها وهي ترمي الحجار سافرة تنظر اليها فقالت « اما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يا فاسق » وشرع يشبب بها . على ان في اخبار أهل البادية واشعارهم أدلة ظاهرة أيضاً على عادة ستر الوجه ، وحتى على وجود البرقع نفسه .

فأذا قلبت صحائف كتب الأدب وجدت ذلك صريحاً خلال حوادثهم، فقد قيل في سبب تعلق سعد بن وائلة، وعشقه رملة بنت أثيلة ما رواه الانطاكي (تزيين الاسواق ص ٩٢) حيث قال: «صادف سعد جارية على بعير، تشد عقاله، وهمّت بالنزول، فلما رأته قالت.. «هل لكِ ان تكفين كلفة التعب؟» قال «وفيما تتعبين، فماذا تطلبين؟» قالت: «ملء هذه السقاية» ورمت بها اليه. فلما ملأتها، وهمت ان تتناولها، شمرت عن زندين كأنما حجبت عظامها بالبلور الصافي. ثم تناولت القربة فانكشف البرقع عن وجه كأنما تستعير منه الشمس الضياء.» بل ان كتب الأدب تشير الى الحجاب عندهم، وحتى على أخ الزوج – كما أمر الاسلام -- وعلى أقارب الزوجة غير محارمها – والحكاية التالية التي رواها الانطاكي ايضاً في تزيين الاسواق ص ٩٤ تدل على ذلك. قال: «استخلف رجل من كندة أخاه على بيته، فصادف يوماً ان دخل فرأى زوجة أخيه سافرة، فلما علمت بذلك سترت وجهها بيديها...»

ولقد يقول قائل «ان هذه الاحداث ليست ثقة، فقد تكون صيغت حسب تقاليد أزمنة واضعيها.» فماذا يقول القائلون في تصريح توبة ابن حمير صاحب ليلى الأخليية حيث يقول في قصيدته السائرة.

وكنت اذا ما زرت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

فستر الوجه كان إذن جارياً في صدر الاسلام.. واما ما استدل به قاسم أمين (تحرير المرأة ص٨٢) على عدم الحجاب من قصة الرسول الذي بعث به مسلمة بن قيس الى عمر بن الخطاب يخبره بواقعة غريبة، وان عمر قال لزوجته أم كلثوم «ألا تخرجين إلينا لتأكلين معنا من هذا؟!» فاذا صحت هذه الحادثة فربما تكون ام كلثوم من السن ما لا بأس معه من كشف الوجه، وان كانت دعوة عمر لها لم تشترط عدم ستر وجهها.

ولقد كان بعض النساء اذا كبرن وأسدلت الشيخوخة نقاباً على جمالهن ، وملاحظ أنوثتهن ، يخالطن الرجال سافرات، وتسمى احداهن « برزة ».وممن عرفن بذلك أم معبد ، وهجيمة ام الدراء ، فكانت تجلس للصلاة في صفوف الرجال وتحب مجالس العلماء . وكذلك خولة بنت منظور زوجة الحسن بن علي ، فلما أسنت كشفت قناعها ، وبرزت للرجال،وصارت تجالسهم (الدر المنثور ص ١٧٨ و ٥٣٠) .

ولقد رأى بعضهم ، فيما صح عن تلقي جملة من المسلمين كثيراً من أمور الدين عن بعض النسوة آنئذ ، وعن شهود بعضهن الدروس والخطب في المساجد ، وذهاب نفر منهن الى الحروب، رؤوا في ذلك ،دليلاً على عدم الحجاب بعامة ، وستر الوجه بخاصة. ولعمر الحق ليس في هذا من دليل مقنع ، لأنه ثبت أن معظم تلك المكالمات مع النساء كانت تجري من وراء حجاب ، وأن النساء في المساجد كن يجلسن وراء الرجال في الصلاة ، وأثناء الدروس . وأما اللاتي كن يشتركن في الحروب ، فقد بلغن من الترجل درجة استطعن معها مقاتلة الرجال . ولا بأس معها من الاسفار والكشف عن وجوههن في ميادين تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وما صح وراء ذلك من الشواذ فهو بحكم النادر ولا يشكل قاعدة بحال .

* * *

واما الائتزار فبديهي أنه لم يكن على الصور الشائعة الآن بين نساء الحضر المسلمات ، فربما كانت أزرهن خمراً طويلة ، كمناديل القرويات المعاصرات.وما روي عن أم سلمة لما نزلت الآية « يدنين عليهن من جلابيبهن » سورة الاحزاب حيث قالت « خرج نساء الأنصار (بعد ذلك) وكأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سود »فهو يشير صراحة الى هذه الخمر الطويلة. على انا

قد عثرنا على ما يفيد أن الأزار نفسه كان معروفاً أيضاً في صدر الاسلام . ففي ترجمة فاطمة بنت الوليد بن عتبة القرشية « أنها كانت في الشام تلبس الجباب من ثياب الخز ، ثم تأتزر فقيل لها .. «ما يغنيك عن هذا الازار ؟» فقالت : «سمعت رسول الله يأمر به » (الدر المنثور ص ٣٦٥). غير ان هذه الرواية تشير كذلك الى ان الائتزار لم يكن عاماً ، لأن اللاتي عارضن فاطمة وسألنها كن غير مؤتزرات طبعــاً ..

ومن هنا يترجح لدينا أن نساء صدر الاسلام كن يستعملن الخمر على وجه عام ، والأزر على وجه خاص ، ساترات على الأكثر وجوههن ، وربما كان الازار من موضوعات المسلمين في اعقاب اختلاط العرب بالأعاجم .

***

واما مخالطة الرجال . فقد شدد المسلمون في منعهـــا كلما بعدوا عن عصر النبوة ، وقد بدأ ذلك منذ عهد الراشدين ، فمنع الصحابة بعض مـــا سمح به صاحب الشريعة ، فصاروا يسدون الكوى وثقوب الجدران كيلا يتطلع الرجال الى النسوان ، روى ذلك الغزالي ، وزاد عليه أن معاذا رأى امرأته تطل من الكوة فضربها (احياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٠) . وكان الأمـــام علي ممن ينكر خروج المرأة من بيتها فيقول «ألا تستحون ؟ ألا تغارون ؟ يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر اليهم وينظرون اليها » (ارشاد العباد ص ١٣٨) .

وكذلك كانت عائشة ، تقول « لو علم النبي (ص) ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج » . واذا صح ان عمر بن الخطاب قال : «جنبوهن الكتابة ، ولا تسكنوهن الغرف» (مختصر ربيع الابرار ص ٢٠٩) فيكون ابن الخطـــاب في مقدمة من رأى عزل النساء فيما وراء جدران بيوتهن . في حـــين ان النبي كان

يسمح للنساء الخروج من بيوتهن في الاعياد ، وهو ،على ما روى الغزالي ، مباحٌ برضى الزوج (الاحياء ج ٢ ص ٣١) .

ويظهر ان المسلمين ، قبل اتفاقهم على منع النساء من الخروج حتى للمساجد ، قد اختلفت في ذلك آراؤهم : فمنهم من أنكر منع ما رخص به الرسول ، ومنهم من أجاز ذلك جرياً على قاعدة « تتبدل الاحكام بتبدل الأزمان » .. أيّد ابن عمر مرة رأيه بالحديث « لا تمنعوا آماء الله من مساجد الله » فقال بعض ولده «بلى والله لنمنعهن » فضربه وغضب عليه ، وقال « تسمعني أقول قال رسول الله (ص) وتقول بلى » :– وقدذيل الغزالي هذه الحادثة بقوله «انما استجرأ ولده على المخالفة لعلمه بتغير الزمان » (الغزالي الأحياء ج ٢ ص ٣١) .

ولقد لجأ بعضهم الى السياسة في منعهن عن الخروج الى المساجد على غرار ما كن يفعلن في عهد النبي : فقد روى أن الزبير العوام شق عليه خروج امرأته عاتكة بنت زيد الى المسجد ليلاً ، وكره أن يمنعها فكمن لها في موضع مظلم من الطريق ، فلما مرت وضع يده على طرف من جسدها فكرت راجعة ، وسبقها الزبير الى الدار . فلما دخلت عليه تسبّح وقال لها . « ماردّك عن وجهك ؟ » قالت : « كنا نخرج والناس ناس ، أما اليوم فلا » وتركت طلب المسجد » (الف باء للبلوي ج ٢ ص ٩٧) .

***

فترى من ذلك أن المسلمين سرعان ما ألبسوا النساء الأزر ، ومنعوهن الاختلاط بعد عصر النبوة ، فكان ما كان من النكسة ، والتضييق عليهن في العهد الأموي وما بعده ، ومن اعتبار الخارجات عن هذه التقاليد شاذات .

● النكسة التي منيت بها المرأة بعد النبي في منزلتها الاجتماعية

● كان عصر محمد العصر الذهبي بالنسبة للمرأة، لأن الاسلام ، رغم حرمانه لها من المساواة بالرجل مساواة تامة في الناحية الاجتماعية ، فقد نقلها من حال الى حال ، وأوصى بها خيراً . فكان هذا الانتقال منشطاً لروحها ، وحافزاً لمواهبها ، ودافعاً لها في تأييد الدين بالقول والعمل ، وفي تحقيق اهدافه . وقد برز نشاطها بالمساهمة في الغزوات عهد النبوة ، وفي الحروب ايام الخليفة عمر ضد الروم والفرس . ثم تبلور في غضون الفتن الداخلية بين علي ومعاوية حيث كان منهن القائدات ورئيسات الاحزاب والخطيبات .

بيد ان الفتوحات الاسلامية فيما وراء شبه جزيرة العرب ادت الى رد فعل في قضية المرأة ، لانها جعلت هذه الجزيرة مغمورة بالسبايا ، مملوءة بالأموال والخيرات ، كما انها أفضت الى تسرب اخلاق الأعاجم الى العرب منذ كانوا اجناداً يحتلون بلاد الروم والفرس .

كان العرب وقتئذ قريبي العهد من الجاهلية ، ولا تزال مقاييسها ماثلة امام اعينهم ، ومختلطة بدمائهم ؛ فاذا بهذا التطور الذى اصاب اخلاقهم بالاختلاط وبوفرة المال يرافقه جنوح الى العودة للتضييق على المرأة ، وعلى حصر وظيفتها في بيتها . واذا بالخلفاء ، وقد خافوا سوء المصير بعد ان دبت بواكير الفساد الى الصفوف، يرفعون الثقة منها، ويحذرون من الركون اليها، ويتجاوزون في معاملتهم لها معاملة النبي .

حقاً ان المسلمين في صدر الاسلام لم ينظروا الى المرأة نظر معاصريهم في العالم المسيحي الذين كانوا على رواية مدام افريل ، ينعتونها بانها نكبة النحس من الأفعى ، ومنبع الشر، واصل الخطيئة ، وباب جهنم [1] الا ان نظرتهم اليها لم

---

(1) Me. Avril de sainte croix le féminisme. P. ll.

تكن ارفع من نظرة بعض عظماء اوروبا في التمدن الحديث ، من امثـــال بترارك ولوثر وروسو وفولتير ونابليون .

تكلم نسوة عند عمر، فقال لهن: « اسكتن فانما انتن لعب، اذا ُفرغ مكنهن لعب بكن » (البلوي . الف باء ج ٢ ص ٣٩٧). ويروى عنه انه قال: « خير خلق المرأة المغزل.»(الف با ج ١ ص ٥٠).وقال علي لأبن محمد بن الحنفية: «اياك يا بني ومشاورة النساء ، فان رأيهن الى الافن ، وعزمهن الى الوهن . واكفف عليهن من ابصارهن بحجبك اياهن . وان استطعت ان لا يعرفن غيرك فافعل . ولا تطل الجلوس معهن فيهلكنك ، وتملهن ، واستبق من نفسك بقية . » وقال سعيد بن المسيب « ما آيس الشيطان من شيء الا اتاه من قبل النساء . » (الف باء ج ٣ ص ٧٧).

وقد رافق هذا التحول في قضية النظر الى المرأة،وما حدث معه منالتضييق عليها رجعة الى الألم من انجاب الاناث ذلك الذي خفف الاسلام من اثره مؤكداً ان البنات كالبنين لا ندري ايهم اقرب نفعاً ، واعود على الوالدين . ويبدو هذا الألم في اشعار امرأة ُعيرت بولادة بنت لها، فقالت وهي تواسي نفسها:

وما عليَّ ان تكون جارية	تحفظ بيتي وتضيء ناريه
وترفع الساقط من خمازيه	حتى اذا تمت لها ثمانية
او تسعة من السنين الوافية	زوجتهامروان او معاوية

وكان من عواقب هذا التحول ابان كثرة السبايا ، ووفرة الأموال استغلال المسلمين احكام الدين في صدد تعدد الزوجات والتسري والطـــلاق ، وراحوا يتمتعون بالنساء كأنهن لعب على تعبير عمر بن الخطاب . وفي طليعتهن سراتهم الذين هم قدوة الامة من امثال الحسن بن علي ، والمغيرة بن شعبة .

ورافق هذا ما يرافقه عادة من الغيرة على النساء، ومن الخوف من نشوذهن.

وفي كلام علي الآنف الذكر لابنه وهو ينصحه بحجبهن، ومنعهن من مخالطة الرجال مثال على هذه الغيرة . ويظهر ان المسلمين قبل اتفاقهم على منع النساء من الخروج حتى للمساجد اختلفت في ذلك اراؤهم. فمنهم من انكر منع ما رخص به الرسول، ومنهم من اجازه جرياً على قاعدة «تتبدل الاحكام بتبدل الازمان» . أيّد ابن عمر رأيه بالحديث: «لا تمنعوا آماء الله من مساجد الله.» فقال بعض ولده: «بلى والله لنمنعهن» فضربه وغضب عليه، وقال: «تسمعني اقول: «قال رسول الله وتقول بلى.» وقد زيل الغزالي هذه الحادثة بقوله: «انما استجرأ على المخالفة لعلمه بتغير الزمان»؛ (الاحياء ج ٢ ص ٣١).

ولقد لجأ بعضهم الى السياسة في منعهن من الخروج الى المساجد . فقد روي ان الزبير بن العوام شق عليه خروج امرأته عاتكة بنت زيد الى المسجد ليلاً وكره ان يمنعها فكمن لها في موضع مظلم من الطريق . فلما مرت وضع يده على طرف من جسدها . فكرّت راجعة، وسبقها الزبير الى الدار . فلما دخلت عليه تسبّح، وقال لها: «ما ردك عن وجهك ؟» قالت: «كنا نخرج والناس ناس . اما اليوم فلا.» وتركت طلب المسجد . (الف باء ج ٢ ص٩٧). وفي كلامها هذا دلالة على تطور الاخلاق، كما ان في كلام عائشة السالف الذكر، دلالة على هذا التطور، وعلى استساغتها التضييق على المرأة في اعقاب هذا التطور.

وبعد ان كانت المرأة في عصر النبوة تكتفي بالحجاب، اصبحت من بعد تلتمس لها نوعاً من انواع الأزر اذا خرجت من دارها لحاجة . وقد ذكرنا آنفاً ان فاطمة بنت الوليد بن عتبة القرشية كانت في الشام تأتزر . وفي الواقع فما كانت هذه السيدة قد لجأت وحدها الى الأتزار. بل هي بعد ان كانت تخرج الى المساجد للصلاة، او لحضور مجالس العلم انزوت في خدرها، وانصرفت عن الشؤون العامة الى المنزل للغزل والطبخ والفراش.

وهكذا فان المسلمين بعد النبي شرعوا باكراً يتجاوزون رخص الاسلام في معاملة المرأة مراعاة لتبدل الزمان . فاذا هي تنكمش من ثم في دارها، وتفقد

مكانتها ، وتعود الى ما كانت عليه في فترة الجاهلية من التبعية لسيدها الرجل ، ومدار متعته . وهذا يتنافى مع قول الامير علي الذي استشهد به قاسم امين وهو : « ان النساء لبثن الى اواخر المائة السادسة من الهجرة يقــابلن الزوار ، ويعقدن مجالس الانس ، ويذهـبن للحرب . » الا ان يكون ذلك قد حدث في في اطراف الهند .

وبعد فان هذه السنة التي لجأ اليها انصار المرأة للتدليل على ان الاسلام لم يمنع الانكشاف والاختلاط لم نأخذ بها في غضون سعينا لتحرير المرأة منذ نحو نصف قرن ، وانما اخترنا ، حفاظاً على التاريخ ، قاعدة : « تتبدل الاحكام بتبدل الازمان ». واذا ما دعونا الى الاصلاح فاننا لا نحاول ان نفسر الدين على هوانا ، وانما ندعو الى ما هو بحكم الواجب في الزمن المعاصر . وهذا ما اعلنته في مقدمة اول كتاب صدر لدي عن المرأة : « المرأة في التاريخ والشرائع ».

الفصل الخامس

المرأة في التمدن العربي بالشرق

عصر العروبة في العهدين: الأموي والعباسي الاول

نريد بالتمدن العربي الشرقي الحضارة العربية التي بدأت بالاسلام وانتهت بقيام التمدن الحديث ، وقد وصفنا هذا التمدن بالعربي لأن العرب هم بناته ورعاته ، ولأن اللغة العربية لغته ، وان كان يصح ان يسمى بالتمدن الاسلامي لاشتراك أمم شتى فيه اشتراكاً بارزاً .

وقد مرت هذه المدنية في مراحل كثيرة بالمشرق والمغرب ، والمرحلتان الأولى والثانية هما اللتان استهللنا بهما الكتاب ، واما المرحلة الثالثة فهي التي سنتناولها في هذا الفصل والذي بعده ، ونريد بها العهد العربي الصافي ايام الأمويين والشطر الاول من العباسيين .

اخلاق المرأة وتطورها في الشرق العربي

خلال العصر العربي

تتطور اخلاق الناس بتطور افكارهم ومقاييسهم ، وتتأثر ببيئتهم ، وبنوع حياتهم . فلما أتيح للأمويين اقامة دولتهم في الشام ، التي كانت من ارقى الامصار البيزنطية ، وتسنى لهم ان يبسطوا سلطانهم على بلاد تمتد ما بين الصين، وبين المحيط الاطلسي ، وذلك في مدة قليلة ، وان ينعموا بحضارة سوريا ، وبخيرات البلاد التي اصبحت في حوزتهم ، أصابهم ما يصيب الناس الذين ينتقلون فجأة من حال الى ضده . فقد اقبلوا ، بعد ان استتب لهم الملك ، على الدنيا ، ولا سيما منذ يزيد بن عبدالملك(١٠١ - ١٠٥ هـ) وأغرقوا في البذح ،والبذل ، واللهو . وكانت البلاد قد امتلأت بالسبايا والجواري فتهافتوا على الاكثار من الزوجات ، وصار لا يقنع بعضهم بما حدده الدين منهن فيلجأ الى الطلاق . ثم انطلقوا فيما لم يحدده الدين من التسري . فكانت العاقبة انقلاباً في اخلاق المجتمع نقل الناس من حال الى حال . فالرجل الذي صار يرعى سعته المالية فحسب ، فيستكثر من النساء ما وسعه ، صارفاً النظر عن مراعاة طاقته الطبيعية ، في زمن افسد الثراء والرخاء الاخلاق ، لم يلبث ان فقد ثقته بالمرأة ، واستعاض عنها بالحذر منها ، فأخذ يشدد عليها الحجاب ، ويمنعها من الاختلاط حتى فيما كان جائزاً من قبل .من ذلك ان سليمان بن عبد الملك(٩٦ -٩٩ هـ) منع الطواف المختلط حول الكعبة . ثم كانوا كلما ازدادوا امعاناً في اللهوا والبذخ والترف يزدادون حذراً من المرأة ، وتضييقاً عليها .

اما المرأة التي أمست لعبة بين الايدي ، فانها فقدت الاطمئنان لمصيرها ، فانصرف همّها الى تدعيم وجودها بين رفيقاتها في بيت الرجل ، ولا نقول في بيتها ، وذلك بالاستيلاء على قلبه ، والاستئثار برضاه بأية وسيلة كانت، وهي،

في الواقع ، لا تكون مخلصة له ، في مثل هذه الظروف ، الا بمقدار . فكان كل ذلك مما افسد الاخلاق .

قال جرجي زيدان (التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٦٢) « بدأت المرأة بتبديل طباعها من ايام الامويين لان العفة والغيرة اصابهما، في ذلك العصر، صدمة قوية بتكاثر الجواري والغلمان ، وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف ، وانتشار الغناء والسكر . فتجرأ الشعراء على التشبيب والغزل. وتكاثر المخنثون في المدن ، وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل ، فأخذ الفساد يفشو بين الناس ، وضعفت غيرة الرجال ، وقلت عفة النساء . »

على انه مهما قيل في الدولة الاموية فهو قليل بالنسبة للدولة العباسية ، ذلك لان الامويين كانوا اصحاب دولة عربية حافظوا على عروبتها رغم دخولها ممالك الاعاجم . وجربت ان تحافظ جهد المستطاع ، على التقاليد القومية ، هذا فضلاً عن محاولة بعض خلفائهم ، وعلى رأسهم عمر بن عبد العزيز ، محاربة الفساد . وكافحوا التشبيب بالنساء اسوة بعمر بن الخطاب ، حتى انقطع دابره في عهدي الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان في اواخر القرن الاول للجهرة . ولكن لما قامت الدولة العباسية في العراق على مقربة من ايران ، واتخذوا الفرس عصبية لهم ووزراء ، لم يلبثوا ، الا قليلاً ، حتى رضخوا لعاداتهم وتقاليدهم ، وتخلقوا باخلاقهم ، وقلدوهم في عمرانهم حتى انهم على ما روى اجاييف (ص ٨٧) « بنو يغداد على شكل المدائن الفارسية ، وأقاموا قصورها على هندسة قصور الفرس . »

وكانت مدنية الفرس ، التي هي من اجلّ مدنيات العالم، قد آلت الى الفساد قبل الفتح العربي ، « لا سيما في اعقاب ظهور مذهب مزدك[١] الدهري الشيوعي

---

١ في رسالة جمال الدين الافغاني : الرد على الدهريين : تصوير لحالة الفرس الاخلاقية بعد ظهور مزدك تلك الحالة التي افضت الى اضمحلالهم .

في عهد كسرى قباد . فالرفه والسفه والخلاعة والسكر ، والاباحية ، هذه الرذائل التي اودت بدولتهم ، لم تكن قد راجت بينهم فقط ، بل تفننوا فيها الى حد ربما لم يدركه الرومان . لذلك فما ان تلقح العرب في العهد العباسي بادواء الفرس الاخلاقية حتى انهارت اخلاقهم ، وتبدلت مقاييسهم ، خصوصاً مذ القيت مقاليد الدولة الى الفرس فوجد هؤلاء في الموارد الوافرة ، التي انهمرت عليهم ، حافزاً للاسترسال في تشييد القصور ، وفي اقتناء الجواري ، وشرب الخمور ، وللبذل في سبيل الملذات ، وغيرها من الامور . وكان البرامكة واترابهم قدوة لسائر الامراء ؛ كما كان هؤلاء قدوة لسائر الناس ، فاذا بالحياة الاجتماعية تنقلب رأساً على عقب ، واذا بالانقلاب يوحي لواضع الف ليلة وليلة قصته التي يحسبها الناس رواية خيالية ، وهي ، في الواقع ، وان كانت قصة تشبه الخيال ، الا انها مستلهمة من حالات راهنة .

وكان من عواقب ذلك ان الناس ، في ذلك العهد العباسي ، استساغوا عادات الفرس في حجز نسائهم في الخدور ، وفي تشديد الحجاب عليهن . وراحوا ، بعد ذلك ، يشددون في ستر وجه المرأة على وجه لا سابقة له في الاسلام . والحكاية التالية التي حدثت في القرن الثالث الهجري ، تشير الى مقدار حرصهم على ان لا يرى احد وجه المرأة ، كما تشير الى حرص المرأة نفسها على ان لا ينظر اجنبي الى وجهها ، حتى ولو كان ذلك لضرورة .

« جلس موسى بن اسحاق قاضي الريّ والأهواز ينظر في قضايا الناس . وكان بين المتقاضين امرأة ادّعت على زوجها ان عليه خمسماية دينار مهراً ، فانكر الزوج ان لها في ذمته شيئاً . فقال له القاضي : « هات شهودك ليشيرون اليها في الشهادة . » فاحضرهم . فاستدعى القاضي احدهم وقال له « انظر الى الزوجة لتشير اليها في شهادتك . فقام الشاهد ، وقال للزوجة : « قومي » ، فقال الزوج :

«ماذا تريدون منها ؟ » فقيل له : « لا بـــد ان ينظر الشاهد الى امرأتك وهي مسفرة ، لتصح معرفتـــه بها . » فكره الرجل (المدعي) ان تضطر زوجته الى الكشف عن وجهها للشهود امام الناس فصاح : « اني اشهد القاضي على ان لزوجتي في ذمتي هذا المهر الذي تدعيه ولا تسفر عن وجهها ! »

فلما سمعت الزوجة ذلك اكبرت في رجلهـــا انه يضن بوجهها على رؤية الشهود، وانه يصونه عن اعين الناس ، فصاحت تقول للقاضي : « اني اشهدك على اني قد وهبت له هذا المهر ، وابرأته منه في الدنيا والآخرة ! » (مجلة حضارة الاسلام ع ٤ س ٢ ص ١ ١) .

وهكذا فان شيوع الفساد في العصر العباسي افضى الى شيوع الحذر منها ، والتضييق عليها، ولما استمر ذلك صارت هي نفسها تألف شروط الحيـــاة التي التي فرضها عليها الرجل ، ولا تتنكر لها . ولا بدع ، فالعـــادة طبيعة ثانية . على ان بعض المؤرخين يتهمون الفرس بأنهم تعمدوا افساد المجتمع العربي في سبيل الانتقام لانفسهم من العرب الذين انتزعوا الملك منهم. ومن هؤلاء عبد الله عفيفي (المرأة العربية ج ٣ص٩و١٠). فهو يقول :«وأراد الفرس ان يخمدوا آخر جذوة من الحميه العربية ، وان يقطعوا اخر عقدة من العصبية العربية ، فأجلبوا عليها بكل ما يوهن النفوس ، ويصبي القلوب من سماع وشراب ، وكواعب اتراب، وأغرقوهم في بحر طام من السرف والترف ، والزهو ، واللهو والمحارم والمآثم ، ولم يمض غير قليـــل حتى راح العرب يخطرون في مطارف الفرس ، والمرأة والرجل كقوتي الكهرباء اذا تأثر احدهما تأثر الآخر . وكذلك بدأت المرأة العربية تتأثر . »

وهذه التهمةوان كانت تحتمل الصحة والبطلان انما الذي لا ريب فيه يتفق ان ما قاله اجاييف(ص ١١١)هو اقرب للصواب:« كلما كان يزداد تأثير رجال الفرس في الخلافة العباسية كانت حالة المرأة تزداد تعاسة . ولقد أصبح مؤرخو العصر لا

لا يذكرون نوابغ النساء الا نادرا . واخذ الحجاب يتكاثف شيئا فشيئا. وحلت دولة الاغوات المنكورة التعيسة ، وسادت مملكة الحرم ، وانتشرت الفتن ، وغلبت على النساء الزينة والتضمخ بالعطور وتزجيج الحواجب ، وزاد الضغط على المرأة.»

هذا وقد اقتبس الفاطميون جملة من احوال العباسيين وسياستهم ، فكما تشبه بهم العزيز (٣٦٥-٣٨٦ هـ) فاصطنع الاتراك والديلم وجعلهم بطانته فان الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ هـ) والمستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) قلداهم في حياة القصور والاستكثار من الجواري ، والاسترسال في اللهو . وقد وليا صغارا فوجد اللهو في قلبيهما فراغا فتمكن ، وكانا قدوة للشعب . وكان الامراء والاعيان يتهادون الجواري والغلمان كما نتهادى الان الازهار ، فامتلأت بهم الدور ، وغصت القصور بالفجور ، وانكست بالجواري شموس الحرائر ، وبنات البيوتات .

● حياة القصور واثرها في الأخلاق.

● لا يزال الناس يذكرون السلطان عبد الحميد الثاني العثماني ، ويتحدثون عن قصره : قصر يلديز ، ودوائره الكثيرة ، ولا سيما ما كان منها للحرم ، وما كان في تلك الدارات من زوجات ، وسراري ، وخادمات ، وطواشية ، وأغوات ، وجواري ، وكيف كانت يلديز ، المحاطة بالأسوار ، امة على حدة تتنازع بينها البقاء ، ولكن باسلحة الضعفاء من الدسائس والمؤامرات والخداع والوشاية .

وما قصر يلديز وامثاله في عهد آل عثمان الا نموذجاً مصغرا لقصور الخلفاء العباسيين والفاطميين . ذلك لان العثمانيين انما كانوا مقلدين ، قلدوا العرب في ذلك ، واساتذتهم الفرس .

وان حياة تلك القصور ، التي كانت عدة اهلها الاسلحة التي ذكرناها ،

وكان هدف النساء فيها اكتساب الزوج او السيد ، والطواشية بكل وسيلة ، كانت حياة محرومة من الاخلاق العالية . ولو انها ظلت محصورة ضمن اسوار القصور لهان الأمر ، وانحصرت المصيبة . والواقع انها اذ تسربت الى الخارج ، واتخذت مثالا يحتذى به بين طبقات الشعب استسلم النساء ، على وجه عام ، للتخنث ، وأضعن الثقة بانفسهن حينما شاركن الرجل في الاعتقاد بانهن مخلوقات متعة له ، والقين على عاتقه شأن الاولاد .

والسلاح الذي هو اشد فتكا في مثل هذه الحياة هو الجمال . ولهذا عني الجنس اللطيف بالتزين والتبرج عناية لا توصف ، كما عني بالملابس والمجوهرات . وقد قالت الكاتبة التركية فاطمة عليّه « ان التفنن في الملابس بلغ مبلغا عظيما . وبذلت المرأة وسعها في استنباط الازياء الحديثة التي كانت تكلفها المبالغ الباهظة . »

وما اكثر ما تؤثر هذه الحياة على الاخلاق ، وفي العواطف حتى انها لتميت الضمير ، وتشل الشعور . ان الغيرة طبيعة غريزية في الانسان ، ولا سيما عند المرأة : وما تباغض الضرائر الا بسبب هذه الغيرة. ومع ذلك فان حرص بعض النساء في تلك الايام ، على كسب بعولتهن دون غيرهن من المزاحمات كان اقوى من الغيرة نفسها : وآية ذلك حكاية سعدة امرأة الخليفة يزيد بن عبد الملك ، فانها كانت تشعر بحب زوجها لجارية اسمها حبابة ، فقالت سعدة يوما ليزيد : « هل بقي من الدنيا شيء تتمناه ؟» فقال «نعم : حبابة !» فرفعت الستر ، وبانت من ورائه تلك الجارية بزينتها ، فتركته لها وخرجت . (الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٨٣) . وعلى ما روي اجاييف (ص ١١١) ان اهداء النساء الجواري لأزواجهن كان عادة مألوفة تمارسها احداهن دون غيرة ولا مبالاة .

وهذه المفاسد التي تفشت بين العرب ، منذ اواسط خلافة الامويين ، ظلت تسوء وتنتشر حتى قضت عليهم مثلما قضت على دولة الاكاسرة من قبل .

على ان هذا الوصف الذي اطلقناه على اخلاق الناس في التمدن العربي الشرقي لا يصح ان يكون وصفا شاملا لجميع الطبقات بـــل كانت هناك فئة من الناس كثيرة العدد تلتزم جانب الصيانة عملا بالوازع الديني ، او تبعا للرادع النفسي . وكانت الأسر الحاكمة حافلة بافرادمن هذه الفئة رجالا ونساء، ولاسيما بين مؤسسي تلك الدول الذين قلما حادوا عن مكارم الاخلاق .

واذا ذكر الامويون بدمشق تذكر فاطمة بنت عبد الملك بن مروان التي يشار اليها بالبنان في حسن السيرة والتقوى . واذا ذكر العباسيون فاسم زبيدة زوجة هارون الرشيد أم الأمين يبرز الى الاذهان . وهي كفاطمة اتيحت لها كل اسباب التمتع بالحياة . بيد انها اذ اخذت بزينتها لم تنس نصيبها من الآخرة. كانت معروفة بالصلاح الى جانب شهرتها الادبية . قال ابن حلكان (ج ١ ص ٣٣٧) : « كان لها مائة جارية يحفظن القرآن . كانت التلاوة في قصرها تسمع كدوي النحل . » والى ذلك كانت معروفة بالمبرات والاعمال العمرانية الخيرية ، واهمها جرّ الماء الى مكة بعد ان كانت الراوية عندهم بدينار . ومنهـا جر الماء الى بيروت من الجبل ، ولا تزال القناطر التي اغدت لهذا الأمر قائمة ، ومعروفة بقناطر زبيدة .

اما جمهور الشعب فكان عدد هذه الفئة البارة لا حصر له بين طبقاته . وفي كتاب الدر المنثور لزينب فواز ذكر لكثيرات من النسوة المعروفات بالتقوى. وكن في ذلك الليل الداج كنجوم تضيء الفجاج. نذكر منهن عفراء بنت مهاجر ابن مالك (صفحة ٣٤٦)، وشعوانة (٢٥٦)، وعاتكة بنت زيد بن نفيل (٣٢٠) وعمرة بنت النعمان بن بشير (٣٥٣) وصفية بنت مسافر (٢٦٢) وآمنة الرمليه (١٧٥) ، وقتيلة بنت النضر (٤٥٠) .

على ان حب الدنيا والافراط فيه خلقا فئة اخرى من الجنسين افرطت بدافع رد الفعـــل في حب الآخرة . ومن طبيعة المرأة الجنوح الى الافراط فيما تحب

وتكره ، فكان نصيبها من الزاهدات غير قليل .

● **ما كان لفساد الاخلاق من ردة فعل في بعض الاوساط .**

● خضعت الاخلاق العربية الفطرية للنواميس الطبيعية حينما انتقلوا فجأة من حياة البداوة الى حياة العروش والقصور والدواوين الملكية ، وحينما فاضت الاموال بين ايديهم في اعقاب دخول نحو نصف العالم المتمدن بحوزتهم ، وحيرتهم في امر انفاق تلك الاموال. وقد فسدت الاخلاق بعد الصلاح ، والتوت بعد الاستقامة . ولا بدع ونحن نعاصر حالة تشبه تلك الحالة فيما نشاهد من الانقلاب الاخلاقي في جزيرة العرب بعد ان فار تنور النفط في انحائها، وتكدست الأموال في خزائن امرائها. غير ان للافراط ردة فعل تؤدي ايضا الى افراط مثله معاكس في بعض الظروف. فقد كان ذلك العصر القريب من عصر النبوة عصر صراع بين تعاليم الاسلام ، وبين المادية المفرطة . وهـذا الصراع هو الذي افضى الى ازاحة عمر بن العزيز الخليفة الاموي عن عرشه حينما حاول كبح جمـاح الناس ، والرجوع الى سنة الرسول ، وسيرة الخلفاء الراشدين . فاستشراء الفساد كان له اثر معاكس في اوساط معينة حملها افراط الناس في حب الدنيا على الافراط في الزهد بها . ولقد استجابت المرأة ، كما استجاب الرجل لدعوات الاصلاح والدين : هذه الدعوات ، التي تظهر عادة في مثل تلك الظروف ظهور النجم عندما تتسع سجف الظلام . وعرفت تلك الايام زاهدات بالدنيا بقدر ما عرف من اخريات اقبلن على لذائذ الحياة . وخلال هذا الصراع ظهرت الطرق الصوفية التي استهدفت ارجاع الناس عن الترامي في احضان اللذائذ والشهوات ، وترغيبهم في الحياة الاخرى . ولا نشك في ان الاعتدال في العمل للدنيا والآخرة معاً كان سنة مؤسسي الصوفية في الاسلام ، ولكن الاتباع والمريدين لم يلبثوا ان افرطوا في التزهيد بالدنيا حتى كادوا يشرعون للمسلمين الرهبانية الاجنبية التي ذمهـا الاسلام : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناه عليهم الا ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها. » سورة

الحديد . وفي هؤلاء قال الشاعر :

ايا جيل التصوف شر جيل لقد جئتم بأمر مستحيل
افي القرآن قال الله فيكم كلوا اكل البهائم وارقصوا لي

والواقع ان تصوف معظم النساء او التشبه بالصوفيين كان رائدهما الاخلاص لأن عواطف النساء مرهفة تتأثر بالدين اكثر من سواها ، واذا تأثرت بتعاليمه اخلصت له ، وغالت احيانا في الزهد شأنها في كل ما يستأثر بعواطفها وقلبها. وقد حفل التمدن العربي في الشرق بزاهدات وتقيات وعابدات عالمات لا شائبة في مقاصدهن . وهاك اسماء اشهرهن مرتبة بحسب حروف الهجاء :

- **امة الجليل** : بلغت شهرتها في الزهد والتقوي حدا قيل فيه ، ان العابدين اختلفوا مرة في تعريف الولاية فوردوا اليها يستفتونها .
- **أم هرون** : كانت من زهدها لا تأكل غير الخبز ، وتقوم ليلها ، فاذا دخل النهار ارتاعت .
- **تحفة الزاهدة** : كانت جارية احد تجار بغداد تحسن الشعر والغناء ، ولكنها لم تلبث ان زهدت وصرفت قوة شاعريتها الى النظم في الحب الالهي . ورموها بالجنون ، وادخلوها المارستان. وروى السري السقطي انه سمعها تقول :

معشر الناس ما جننت ولكن انا سكرانة وقلبي صاحي
اغللتم يدي ولم آت ذنبا غير جهدي في حبه وافتضاحي
انا مفتونة بحب حبيب لست ابغي عن بابه من براح
فصلاحي الذي زعمتم فسادي وفسادي الذي زعمتم صلاحي
ما على من احب مولى الموالي وارتضاه لنفسه من جناح

ثم عرفوا حقيقة حالها ، فاخرجوها من المارستان ، واعتقها سيدها ، وجاورت في مكة حتى ماتت .

● **ذؤابة امرأة رباح القيسي** : كانت زاهدة قوامة الليل تـأخذ بلبنة من الارض وتقول : « والله للدنيا اهون علي من هذه . »

● **رابعة العدوية من البصرة** : مولاة آل عتيك، اشتهرت بالزهد مثلما عرفت بالأدب . قيل ان موضع سجودها كان كمستنقع ماءمن دموعها . ولم ترد بديلاً عن ربها حين خطبها السراة . ولها اشعار سائرة ، وحكم يرددها الناس. توفيت سنة ١٣٥ هـ ، ودفنت على رأس جبل الطور بفلسطين .

● **عبدة بنت ابي شوال** : كانت تخدم رابعة العدوية وتقتدي بها حتى اعجب بها معاصروها .

● **عبيدة بنت ابي كلاب**. قيل ان عبدةبنت ابي‌شوال رأت‌رابعةالعدوية في منامها، فسألتها عن عبيدة هذه فقالت : « هيهات هيهات ، سبقتنـا والله الى الدرجات العلى » فقالت عبدة « ويم ، وقد كنت عند النـاس اكبر منها ؟ » قالت رابعة : « انها لم تكن تبالي على اي حال اصبحت من الدنيا او امست . » وكانت عبيدة من الزاهدات المنقطعات للتبتل في الرمـلة خلال القرن الثالث للهجرة ، يزورها الصالحون من معاصريها ، ويطلبون بركتها ودعاءها.

● **فاطمة القرشية** : ذكرها الشعراني انهـا من المتعبدات الصالحات ، واثنى عليها .

● **فاطمة النيسابورية** . كانت من الزاهـدات لابسات المسوح ، حجّت على مرات ماشية من بيت المقدس الى مكة . وعاصرت الزاهدين: ذا النون المصري وابا زيد البسطامي فمدحاها . وماتت في طريق العمرة بمكة سنة ٢٢٣ هـ .

● **السيدة نفيسة الحسنية العلوية** : اشتهرت بالصلاح والزهد حتى بلغت، كما قال المقريزي ، الحد الذى لا مزيد عليه ، وزوى انها حجت ثلاثين حجة ،

فقيل لها : «ألا ترفقين بنفسك ؟ » فقالت : « كيف أرفق بنفسي وانا في عقبة لا يقطعها الا الفائزون ؟ » ولما ماتت بمصر ، وشاء زوجها المؤتمن اسحق بن جعفر الصادق نقلها الى المدينة سأله المصريون بقاءها عندهم ، ففعل ولا يزالون يتبركون بها الى اليوم .

وكانت السيدة نفيسة تجمع الى تقواها طول باع في علم الحديث ، وتفسير القرآن . ومن يجهل الامام الشافعي ؟ فهو لما دخل مصر قصد اليها وسمع عليها الحديث . وقد توفيت سنة ٢٠٨ هـ .

فهؤلاء الزاهدات كن يمثلن بين نساء ذلك العصر فئة الصلاح الى جانب الكثرة التي استرسلت في حياة اللهو ، والزهو والجنوح . وكان بين الزاهدات نفر حملهن حب الآخرة على تناسي الذات الى حد لا يتفق مع الطبيعة البشرية . ولا نمر دون ذكر احداهن التي حملها صلاحها على طلب الزواج من احد الاتقياء لتستعين به على عمل المبرات . وقد اشاد بها الغزالي في الاحياء (ج ٢ ص ٣٧، وقال) :

«خطبت رابعة بنت اسماعيل احمد بن ابي الجواري . فكره ذلك لما كان فيه من العبادة ، وقال لها : « والله ما لي همة في النساء لتشاغلي في حالي » فقالت : « اني لأشغل بحالي منك ، وما لي شهوة ، ولكني ورثت مالاً جزيلاً من زوجي . فاردت ان تُنفقه على اخوانك ، واعرف بك الصالحين ، فيكون لي طريقاً الى الله عز وجل . » فقال : « حتى استأذن استاذي ، فرجع الى ابي سليمان الداراني . قال « وكان ينهاني عن التزويج ، ويقول : « ما تزوج احد من اصحابنا الا تغير » . فلما سمع كلامها قال : «تزوج بها فانها ولية لله ، هذا كلام الصديقين » قال ... « وتزوجت عليها ثلاث نسوة ، فكانت تطعمني الطيبات ، وتقول : « اذهب بنشاطك وقوتك الى ازواجك !! »

وفي هذا مثل من امثلة انكار هؤلاء الزاهدين لانفسهم في سبيل الآخرة ،

يبلغ حد اماتة المشاعر والعواطف .

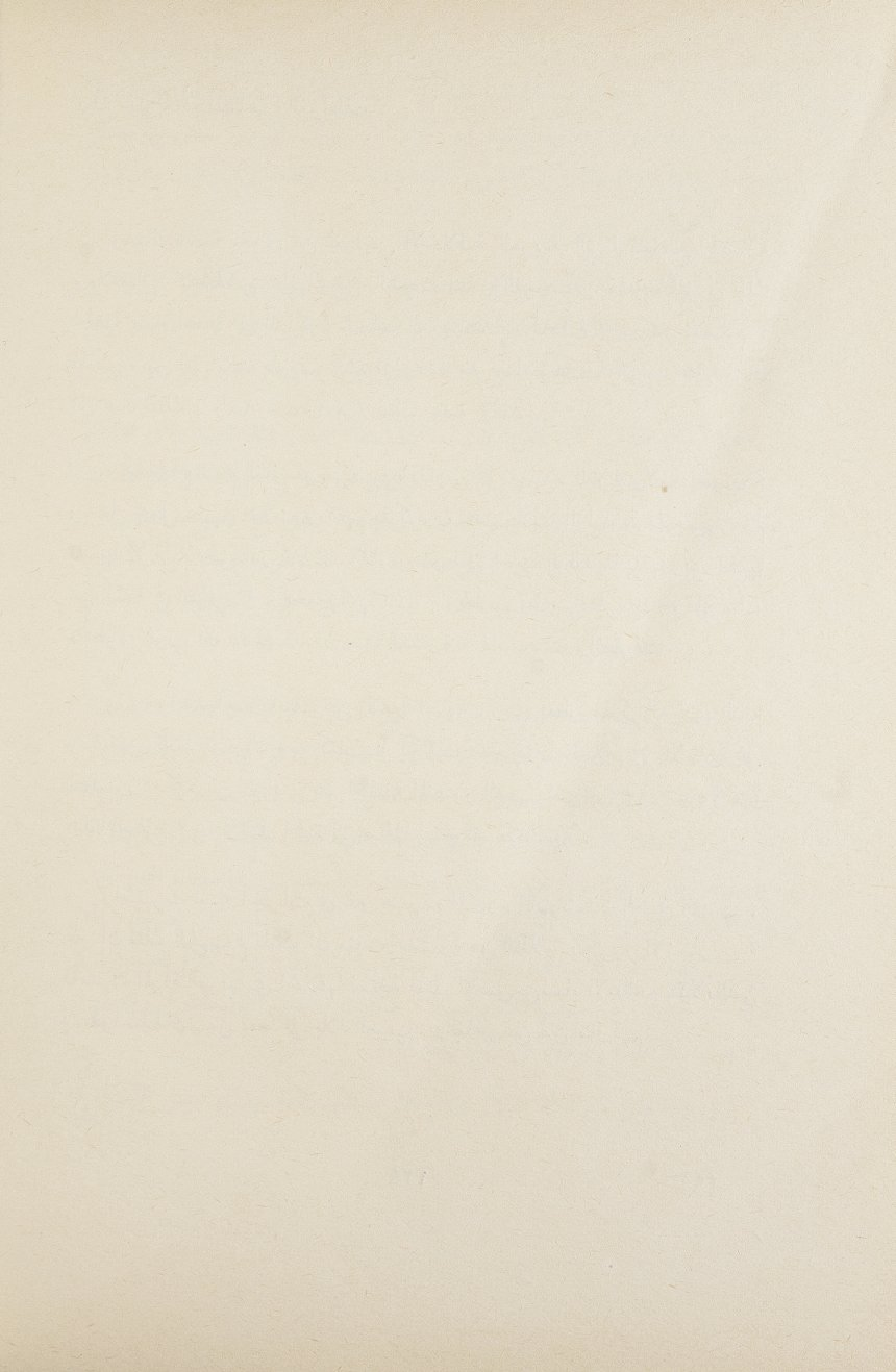
. . . .

وهناك ناحية اخرى من النواحي الاخلاقية العربية التي لم تستطع الحضارة وملابساتها ان تطمس عليها وهي الشجاعة والفروسية . فقد اشتهر في تلك الحقبة نساء اعدن الى الذاكرة شجاعة العربيات في الجاهلية ، وصدر الاسلام . نذكر منهن ليلى بنت طريف الشيباني. فقد خرج اخوها الوليد على يزيد ابن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥ هـ).فظهر عليه وقتله .

وفي صباح اليوم التالي فوجىء يزيد بفارس على جسده الدرع ولامة الحرب ، وجعل يحمل عليهم حملات تركتهم يذكرون حملات الوليد بن طريف . ولم يلبثوا الا قليلا حتى ادركوا ان الفارس هو ليلى اخت الوليد لما بينها وبين اخيها من الشبه في الفروسية . فخرج اليها يزيد ، وضرب قطاة فرسها ، وقال لها : « اغربي غرب الله عليك قد فضحت العشيرة ، فاستحيت وانصرفت »

وروى احمد اجاييف عن الامير اسامة .. في بعض مذكراته ان والدته وشقيقته كانتا تسيران معه كتفاً لكتف مدججتين بالسلاح في الاغارة على الصليبيين ، كما ذكر ان ابنتي عم الخليفة المنصور العباسي (١٣٦ - ١٥٨ هـ) حملتا السلاح ، وسارتا في الحملة التي ساقها لفتح القسطنطينية .

واشتهرت نساء أخريات في غير هذه المكارم ابان التمدن العربي الشرقي . غير ان تلك الشهب لم تلبث ان منيت بغشاوة من الظلام بكرور الازمان ، فأمست المرأة العربية في اخلاقها نسخة طبق الاصل عن نساء الاعاجم هؤلاء الذين بسطوا سلطانهم من بعد على بلاد العرب . والناس على دين ملوكهم .



الفصل السادس

المرأة في التمدن العربي بالشرق

التطور في ثقافتها واخلاقها خلال العهدين الاموي والعباسي الاول

درج التمدن العربي على غرار كل تمدن قبله من حيث تمتع الرجل بالسلطة على المرأة . بل ان الرجال في الاسلام تعدوا بعض الحدود التي اقرها الدين في صعيد حقوق المرأة . فكان من عواقب ذلك ان اماني النساء وقتئذ انحصرت ضمن نطاق استرضاء الرجال ، وكسب قلوبهم بالتزام النواحي التي ترتاح اليها تلك القلوب .

وكان العرب في حضارتهم قد شغفوا بالعلوم والاداب والفنون ، واصبح هذا الشغف عاماً الى حد ان سواد الناس غير المتعلمين شرعوا يقلدون الخاصة في المظاهر التي تشير الى المعرفة ، ورافق هذا الشغف ، استرسال في التمتع بالحياة ، ولا سيما بالمرأة . فافضى تضافر هذين العاملين : عامل التلذذ بالمعرفة ،

وعـــامل التلذذ بالنساء الى ان يكون الحرم النسائي في العصر العربي يجمع بين الجمال والمعرفة . وهذا ما حمل المأمون، وهو العالم المثقف، لأن يختار من البادية زوجة له ، على رواية الاشبهي (المستظرف . ٤٩) عرفت بأم العباس ، وكانت من الموهوبات العارفات باداب السلوك .

واما الحرم الذي عاصرنا اواخره في ايام آل عثمان ، وعبد الحميد الثاني فقد كان حرماً على غير ما كان عليه في العصور العربية ، كان حرماً يقتصر على الجمال ، ويقتصر على المتعة بالحسان ، على غرار مـا سلفه عند اكثر الاعاجم ، وما عاصره . ان التمدن العربي تضافرت فيه ثلاثة عوامل لدفع المرأة الى اكتساب المعرفة : نفوذ الرجال المطلق ، وحرص النساء على كسب قلوبهم ، وتقديرهم النساء بمقدار ما وهبهن الله من جمال بالأضافة الى ما كسبن من أدب وفن . فكان كل ذلك حافزاً للمرأه على تحصيل مــا امكن تحصيله من الآداب ، والفنون الجميلة بغية الاستئثار بقلوب الرجال .

وقد امتازت وقتئذ طبقة الجواري ، وكان لهن تجار يعدونهن اعداداً فنياً ، مثلما يعد الصانع بضاعته ليدرك بهــا اكثر ربح يمكن ادراكه ؛ ويراعون في اعدادهن روح العصر ، من حيث التثقيف والتهذيب ، ولا سيما في رواية الشعر والأدب ، والمعاشرة والرقص والغناء والموسيقى . فنشأت طبقـــة رفيعة من الجواري المهذبات المثقفات كانت حافزاً لغيرها من الطبقات الاخرى للأقبال على العلوم والفنون بغية الحظوى عند الرجال .

وهذه الاسباب كلها جعلت المرأة في التمـــدن العربي تساهم مع الرجل في حب المعرفة ، وفي ادراك نصيب منهـا . غير ان المساهمة لم تكن على مستوى واحد في كل ادوار هذا التمدن ، ولا على لون واحد ، بل اختلفت باختلاف مراحل التمدن نتيجـة لاختلاف الظروف والاحوال حتى في الدولة الواحدة . فكانت في عهد الأمويين مساهمة ادبية دينية ، وفي العصر العبـاسي الاول جمعاً

بين الادب والعلم والسياسة، وفي العصر العباسي الثاني كانت ذات صبغة علمية. واما في عهد الفاطميين فقد خضعت لمثل ما خضعت له ايام العباسيين من التطور بمقتضى تطور روح الزمن .

لذلك رأينا ان نفرد لكل عهد باباً في الكلام عن المرأة في التمدن العربي بالشرق . غير ان الذي يحسن الاشارة اليه هنا ان شمس الجواري في هذا التمدن كانت اسطع من اقمار الحرائر ، وظلت تكسف انوارها حتى كان ذلك العصر يتميز بادب الجواري .

ثقافة المرأة في عهد الامويين

لقد امتاز العصر الاموي بكونه دور التأسيس والتشكيل من الوجهة السياسية والعلمية على السواء. ففيه نشأت العلوم اللسانية من نحو وصرف وبيان ، وظهرت العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وكلام . وفيه تثقفت العلوم الجاهلية من انشاء وشعر وخطابة ، وفيه بُدىء بتدوين التاريخ، كما بدىء بترجمة بعض العلوم الأجنبية من طب وجغرافيا وكيميا .

وفي كلمة واحدة ولدت في هذا العصر الآداب الاسلامية، ونضجت الآداب الجاهلية ، وبدأ النقل من اللغات الاجنبية . وقد كان للمرأة مشاركة في هذه النهضة الثقافية وبعض المشاركة في الناحية العلمية، وكثيراً من المساهمة في الناحية الأدبية . فقال في هذه المناسبة احمد اجاييف العالم الروسي :

« ففي ايام الدولة الاموية زاحمت المرأة الرجال في طلب جميع العلوم والمعارف ، واصبحت لا تختلف عنهم في شيء . انكبت على طلب الشريعة والفقه والحديث والشعر والادب والبيان والخط . وبوجه الاجمال فانها احاطت بجميع فروع العلوم فاتقنتها ايما اتقان . وفي عهد هشام والوليد لم تكن النساء تختلف عن الرجال . »

وفي هذا القول شيءٌ من المغالاة التي قد يقع فيها الكتاب حينما تسيطر عليهم العواطف . والواقع ان النساء وان لم يقفن في ذلك العصر عند حد رواية الحديث اسوة بأخواتهن في عهد الخلفاء ، بل اقبلن على العلوم الدينية كافة ، وادركن نصيباً وافراً منها أهّل بعضهن للتدريس فيها ، الا ان عدد الشهيرات منهن كان قليلا . وقد و ت اسماء تلك الشهيرات في الجزء الاول من كتاب العبر في خبر من عبر للحافظ الذهبي فقال عن الدرداء الاوصابية الحميرية المتوفاة سنة ٨١ هـ : « كان لها نصيب من العلم والعمل ، ولها حرمة زائدة بالشام . » واشار الى عمرة بنت عبد الرحمن الانصارية المتوفاة سنة ٩٨ هـ بقوله : « انها فقيهة كانت في حجر عائشة فاكثرت منها . » ونوه بمعاذة العدوية المتوفاة سنة ١٠١ هـ في البصرة وبعلمها في الفقه ، كما نوه بعبادتها . على ان قرب المرأة من عهد البداوة وقتئذ ، جعلها اشد عناية باداب الجاهلية ، ولا سيما الشعر ، منها بالعلوم. ومع ذلك تخلفت في هذه الناحية عن جدتها بالجاهلية ، كما تخلفت عن حفيدتها في العصر العباسي . وربما غُفر لها هذا التقصير لانصرافها الى حفظ القرآن وروايتها لاحداث الاسلام . واما من حيث الاخلاق فانها كانت ارفع مرتبة من اختها في ايام العباسيين . والى ذلك فان شمس الحرائر في العهد الأموي ظلت متألقة تكسف اضواء اقمار الجواري خلافاً للعهد العباسي الذي امسى ادب الجواري فيه يستعلي على ادب الحرائر . وهذا ما سنبينه فيما يلي :

● نهضة الحرائر الادبية في العصر الاموي

● كان العصر الاموي امتداداً لعصر الخلفاء الراشدين من حيث الاقبال على العلوم الدينية ، كما كان امتداداً لفترة الجاهلية من حيث العناية بالأدب ، ولا سيما الشعر . فالى جانب القليل من النساء اللواتي اشتهرن في تلك العلوم فقد تألقت اسماء كثيرات في الناحية الادبية . ويرجع ذلك ، بالاضافة للوراثة ، الى تحضر العرب وما رافقه من وفرة الاموال التي انهارت عليهم بسبب الفتوحات،

وإلى تقليدهم الفرس والبيزنطيين بحياة الرفه والترف والبذخ التي هي من ملازمات الحضارة . والشعر يزدهر عادة في مثل هذه الظروف المؤاتية . على ان هناك سبباً آخر كان له اثر كبير في ازدهار الأدب، واعني به عودة الأمويين الى العقلية الجاهلية من حيث الاعتماد على الشعراء ، هم وخصومهم ايضاً في الحروب الداخلية التي نشبت بسبب الخلافة من اجل تبرير اعمالهم ، وهجو اعدائهم .

وكانت المدينة قاعدة الخلفاء الراشدين اسبق المدن العربية الى محاكاة العالم المتحضر ، ذلك بانها كانت اول العواصم الاسلامية اختلاطاً بالاعاجم بالفتوحات. وظلت على ازدهارها ، لما توفر فيها من الاموال ، حتى بعد ان اصبحت دمشق عاصمة الخلافة الاموية . وقد تألق فيها اسم سكينة بنت الحسين بن علي المتوفاة سنة ١١٧هـ التي قال عنها وي سلان احد الكتاب الاجانب في عهد الخلفاء :

«وكانت اشهر نساء عصرها، واعلاهن مقاماً ، واوفرهن ذكاء وعقلاً وادباً ، وأحدّهن جنانا . احرزت قصب السبق في مضمار الادب . والتف حولها الشعراء والادباء » .

وقال عنها المستشرق الفرنسي بيرّون :

« سيدة سيدات عصرها واجملهن واظرفهن ، واسماهن صفات واخلاقا . »

ورغم ان المسلمين لا يزالون يتألمون بعد مضي اربعة عشر قرناً على استشهاد ابيها الحسين ، ويبلغ من شدة حزن بعضهم عليه انهم ، في يوم ذكراه من كل عام، يدمون اجسامهم ، رغم ذلك فان الحياة التي عاشتها ابنته سكينة توحي إلينا بانها نست تلك الاحداث المفجعة . فقد تمتعت بحياة الازدهار فكانت قبلة الانظار ، ومنتجع السمار . وكانت انيقة لا في ادبها فحسب ، بل في زينتها ، فكانت تصفّ جمّتها تصفيفاً لم ير احسن منه حتى قلدتها فيه سائر النساء ،

وعرفت بالطرة السكينية . وكانت دارها مجمعاً للادباء ، وموئلا للشعراء ، تحكم بينهم وتفاضل ، وتحذو حذو الملوك في الجود والعطاء ، بل انها لترجح عليهم ، فهم يعطون من يمدحهم ويثني عليهم ، وهي تعطي لوجه الشعر والادب ابتغاء التجويد والاتقان فيهما .

لقد قرأنا ما كتب الكاتبون عن أبهاء (صالونات) كل من الآنسة لسبوناس وغيرها في القرن الثامن عشر ، والسيدات جيراردن ، وأنسلو في القرن التاسع عشر ، فعرفنا تلك الابهاء بأنها مجمع الادباء والعلماء ، وقدرنا صاحباتهن حق التقدير . ولكن اين فيهن مثل سكينة بذلاً لأضيافها ، واين منهن مثلها حكماً بين هؤلاء الزائرين حين تختلف الاراء ؟

كان علماء فرنسا في القرن الثامن عشر وادباؤها امثال كريم و كندرست وتركو وسلامبر وكانديلياك وسوارد وديدرو وهولباخ ، كان كل هؤلاء يجتمعون في صالون الآنسة لسبوناس ، كما كان جرير والفرزدق وكثير عزة وجميل بثينة ونصيب زينب ، فحول الشعراء في عهد الامويين ، يجتمعون في دار سكينة ، فيجدون في دارها من رحابة صدرها وبرّها اكثر مما يجدون من سعة دارها ، ووفرة ادبها . ويجدون ايضاً في هذه الدار احياناً امثال اشعب صاحب الفكاهات المضحكة ، وسريح المطرب المشهور مغمورين باكرامها وعطاياها . فكان زوار سكينة يعيشون ساعات حياة مزدوجة بين الادب والمرح والطرب مما لا يتوفر في ابهاء غيرها ، خصوصاً وان سكينة كان علمها بمذاهب الغناء وضروب الايقاع كعلمها باعطاف الشعر ، وقطاف الادب .

أمّها هؤلاء الشعراء ومكثوا في ضيافتها اياما ، ثم أذنت لهم ، وقيل انهم دخلوا الى حيث تراهم وتسمعهم ولا يرونها ، فجاءتهم جارية لها وضيئة تروي الاشعار والاحاديث ، وقالت : ايكم الفرزدق ؟

ثم سألته : أأنت القائل ؟

همـــا دلتاني من ثمانين حجة　　كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي بالارض قالتا　　أحيٌ نرجى ؟ أم قتيــل نحاذره
فقلت أرفعوا الأمراس لايشعروا بنا　　واقبلت في اعجــاز ليل أبادره

أجاب نعم . قالت : فما دعاك الى افشاء السر ؟ خذ هذا الألف دينار . ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، وسألت أيكم جرير ؟ ثم قـــالت له : أأنت القائل ؟

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا　　حين الزيـــارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغرّ كأنـــه　　برد تحدّر من متون غمـــام
لو كان عهـــدك كالذي حدثتنا　　لوصلت ذاك ، وكان غير ذمام
اني أواصـــل من أردت وصاله　　بحبـــال لا صلف ، ولا لوّام

أجاب نعم . قالت : ألا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ انت عفيف وفيك ضعف ، خذ هذا الألف ، ثم دخلت على مولاتهـــا وخرجت ، وسألت : أيكم كثير ؟ وقالت له : أنت القائل :

واعجبني ياعزّ منك خلائق　　كرامٌ اذا عدّ الخـــلائق أربع
دنوّك حتى يدفع الجاهل الصبا　　ورفعك أسباب المنى حين يطمع
فوالله مـــا يدري كريم مماطل　　أينساك اذ باعدت أو يتصدع ؟

أجاب نعم . قالت : ملحت وشكلت : خذ هذه الثلاثة آلاف . ولما عادت من عند مولاتها ايضا سألت عن نصيب ، وقالت انت القائل ؟

ولو ان يقـــال صبا نصيب　　لقلت بنفسي النشأ الصغـــار
بنفسي كل مهضوم حشاها　　اذا ظلمت فليس لهـــا انتصار

اجاب نعم . فقالت : ربيتنا صغارا ومدحتنا كبارا ، واعطته الفا ، ثم عادت وسألت عن جميل ، وقالت يا جميل: مولاتي تقرئك السلام وتقول لك ،والله ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هـل أبيتنّ ليلة بوادي القرى اني أذن لسعيـد
لكل حـديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء ، وأعطته ألفا ، وانصرفوا جميعا ، الواحد تلو الاخر .

وكانت سكينة مثلما تساجل الشعراء انفسهم تقف حكما بين انصارهم اذا فاضل كل منهم بشاعره . من ذلك ما روي انه اجتمع في المـدينة رواة جرير وكثير ونصيب والاحوص فافتخر كل منهم بصاحبه وفضله ، وأجمعوا رأيهم على تحكيم السيدة سكينة لما يعرفون من عقلها وبصرها بالشعر ، فشرعت تنشد من اقوال كل منهم ، ثم تنقدها بما لا يبلغه سواها ، ولا يتسع المجال هنا لايراده ، فقيل انها لم تثن على واحد منهم ، ولم تقدمه ، وانما استثنى الهيثم بن عدى جميلا منهم . وذكر انها قالت لراويه : اليس صاحبك الذي يقول :

فيا ليتني أعمى أصم ، تقودني بثينة ، لا يخفى عليّ كلامها ..

أجـاب نعم . قالت : رحم الله صاحبك ان كان صادقا في شعره ، وحكمت له ..

وكانت سكينة حديدة الذكاء مع منزلتها التي عرفت في الشعر ، فلا عجب ان تبلغ درجة الادراك العميق لبواعث الشاعر ، والعلم الواثق بمكان شعره من الطبع او التكلف ، ومن الشعور الخاص هو ، أومن الكلام النحيل المصنوع ..

اشتهر عروة بن أذينة في عصرها بالصلاح والعلم والشعر ، فلمـا بلغها

قولـــه :

اذا وجدت أوار الحب في كبدي أتيت نحو سقاء القوم ابـــترد
هبني بردت ببرد المـــاء ظاهرة فمن لنار على الاحشاء تتقد ؟ !

فمضت اليه وقد سرت كهرباء هذه الشاعرية القوية في نفسها ، ولم يثنها ما ما استفاض من خبر تقواه ان تسأله في جرأة عفيفة واثقة عن هذا الشعر هل هو قائله ؟ فقال نعم . فعادت تسأل ، وأنت القائل ؟

قالت ، وأبثثتها سري وبحت به ، قد كنت عندي تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي ، فقلت لها غطـّى هواك ، وماالقى ، على بصري ؟

قال نعم . فالتفتت الى جوارٍ كنّ حولها – وكان النساء لها هالة كما كان الرجال لها طفاوة – وقالت وهي تشير الى جواريهـــا : « هن حرائر ان كان خرج هذا الشعر من قلب سليم قط » .

ولقد أثارت نباهة ذكرها سخائم نفوس الامويـين وانصارهم – فهي من الهاشميين الذين ناصبوهم العداء وجاهروهم بالخصومة – فراحوا يلتمسون لها المعايب ويفترون عليها المثالب .

ولقد لفت نظري في سيرتها امر يفيد اكثر من مغزى ومعنى . ذلك انهم ذكروا في ترتيب أزواجها ان الاصبع بن عبد العزيز بن مروان قد تزوجها ثم لم يلبث ان فارقها قبل ان يدخل بها ، ثم تزوجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، ولكنه طلقها كذلك امتثالا لامر سليمان بن عبد الملك ، فاذا علمت ان الرجلين – وهما امويان – تزوجاها عن رغبة ، وطلقاها كرها واضطرارا ، عرفت ما كان يجيش في صدر خصوم الهاشميين من نوايا الغض من قدر هذه السيدة . وقد تكون روح العصر ساعدت على هذا الفراق بين الزوجين بعد الوفاق . ذلك لان روح العصر في ذلك الزمـــان لا تتفق مع سلوك سكينة في مجـالسها

الادبية حتى ولو كان ذلك يتم من وراء حجاب ، ان هذه الروح كانت تصور مواقفها هذه شاذة . والواقع اني لا ادري اذا كان كلما ورد في سياق التنويه بسكينة وفضلها ، وفي معرض ذمها وانتقادها كان خاليا من المبالغة على اعتبار انها كانت مدار مدح الهاشميين وانصارهم، وذم الامويين واتباعهم . اما الذي لا شك فيه انها ، وقد كانت عرضة لاهواء السياسة ، لم تسلم ترجمتها من الافراط والتفريط . وعلى كل حال فان مقاييس الذين تعرضوا لها بالقدح لا تصلح لان تكون مقاييس عامة . لان عظمة هذه السيدة قد تكون وليدة الشذوذ . وكم يغبطني قول الامير علي الهندي فيها ؟ « من اعظم البراهين الدالة على حالة المسلمين الادبية في عصرنا الحالي هو ان ذكر سكينة قد برح من اذهانهم، وطوت ايدي الاهمال ضريحها . بينما ان قبر معاصرتها رابعة العدوية لم يزل الى يومنا هذا مقصد الزائرين للتبرك ، كما ان سيرة رابعة كانت المورد العزب لبعض الشعراء . وان الخاقاني الشاعر الفارسي كان ممن تغزل في مناقبها الحميدة ، وتمنى لوالدته ان تكون كرابعة في صلاحها وتقواها » وقد توفيت سكينة سنة ١١٧ هـ، واما رابعة فقد توفيت سنة ١٨٠ هـ .

وكانت عائشة بنت طلحة تتأثر خطوات سكينة في نقد الشعر والغناء، ومجالسة الشعراء والمغنين والرواة والادباء . وقد جاء في العقد الفريد (ج ٣ ص ٢٨٣) انها زارت هشام بن عبد الملك فبعث الى مشائخ بني امية فما تذاكروا شيئا من اخبار العرب وايامها الا افاضت معهم . ونوه ايضا ابن عبد ربه بمعرفتها بالنجوم . واما رابعة العدوية في البصرة فهي وان كانت على ما اسلفنا من العابدات الزاهدات الا انها كانت شاعرة مطبوعة ، وكان مدار شعرها الحب الالهي . وكان حبيبها مصدر الجمال كله ، فاين رقتها في مناجاته من الشعراء المعاصرين لها ؟ تأمل قولها :

اني جعلتك في الفؤاد محدثي	وابحت جسمي من اراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانسي	وحبيب قلبي في الفؤاد انيسي

وهي كانت لا ترضى عن حبيبها بديلا مهما جل في تقدير الناس . فلما ارسل اليها الحسن البصري يخطبها ، بعد وفاة زوجها ، ردته غير حافلة بما له من شهرة عالية ، ورفعة قدر اجتماعية : وقالت في قصيدة مطلعها :

راحتي يا اخوتي في خلوتي   وحبيبي دائما في حضرتي

لقد كانت تردد قولها : « الهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك ، بل حبا لك ، وقصد لقاء وجهك . ومن شعرها :

فواعجبا كيف يُعصى الاله   ام كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية   تدل على انه الواحد

هذا واذا تركنا سكينة واترابها من اهل الحضر ، وولينا وجوهنا وقتئذ الى البادية وجدنا الكثيرات من الشاعرات والراويات على غرار جداتهن في فترة الجاهلية . فعَمرة الجُمحية – من سراة بني جمح – روى صاحب الاغاني (ج٦ ص١٥٠) ان دارها كانت ندوة للشعراء والرواة . فتستمع لكل ، وتوازن بينهم جميعا . وزينب بنت الطشرية من بني عامر – كانت الى جمالها وكمالها مطبوعة على الشعر ومشهورة في الفصاحة وفنون الكلام ، ومن شعرها في مطلع قصيدة ترثي بها اخاها يزيد الذي قتله بنو حنيفة (١٢٦هـ – ٧٤٤ م) وكان شاعرا :

ارى الأثل من وادي العقيق مجاوري   مقيم وقد غالت يزيد غوائله

وهناك في البادية كثيرات من امثال عمرة وزينب من اللواتي يشار اليهن بالبنان في اجادة الشعر ، ورواية اخبار العرب في عهد الامويين . وقد حفل كتاب الانطاكي تزيين الاسواق باخبار العشاق باخبارهن واشعارهن . ونحن نكتفي بالاشارة الى هذا الكتاب ، وبما اتينا على ذكره من ادابهن في مواضع أخرى .

● شهيرات الجواري المثقفات في عهد الامويين .

● كان التسري قديما شائعا عند الرومان ، وكانت السرية عندهم أحط منزلة من الزوجة ، وان كانت علاقتها بالرجل شرعية ، وجاء الاسلام والعرب يزاولون التسري ، ويبيحون ما استباح الذين سبقوهم . وربما ولدت احداهن لبعضهم فلا يمنعه ذلك من بيعها وهي أم ولد ، حتى نهى عمر عن ذلك . ولبث أولاد الجواري عند العرب دون أولاد الحرائر منزلة واعزازا ، حتى نبغ منهم ثلاثة رجال أمهاتهم من بني يزدجرد ، وهم : علي بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبدالله . وكان بنو أمية يتحرزون من مبايعة خليفة أمه جاريه ، تعظيما للخلافة الى ان صار الامر الى يزيد بن الوليد فكان أول خليفة أمه أمة ، وكان يفاخر بعراقة نسبها ، وشرف آبائه فيقول :

انا ابن كسرى وأبي مروان وقيصر جدي ، وجدي خاقان

ولم يل أمر الأمويين من ابناء الاماء غيره ، سوى مروان بن محمد الذي كان ختام دولتهم (١٢٧-١٣٢ ﻫ) .

وقد احدث الجواري في عهد الامويين شكلا جديدا بعد ان كن لمجرد الفراش واللهو . ذلك ان الأمويين اقتبسوا من الأمم التي دخلت بالفتوح في حوزتهم - وهي ذات حضارة قديمة - اساليب حياتها المدنية والسياسية ، وقلدوهم في حياة القصور وما فيها من طبقات المحظيات والخدم ، وألوان المعيشة ، وجاروهم في دقة أذواقهم ، ورقة مظاهرهم . غير ان الجمال لم يعد وحده كل ما يطلبونه من الجواري ، وانما التمسوا عندهن الادب وفنون الغناء والموسيقى . وبقدر حظ الجارية من هذه الفنون كان يعلو قدرها وينبه ذكرها ويرتفع ثمنها . فلما ارتفع معناهن الاجتماعي ، وحسنت هكذا منازلهن ، تسامح الناس في مساواة اولادهن باولاد الحرائر حتى بلغ بعضهم منصب الخلافة .

وكانت مغالاة الخلفاء والكبراء في اثمانهن سبباً في حرص النخاسين على تعليمهن ، واباحة الفرص الكثيرة لنبوغهن في الآداب والفنون ، ومن هنا نبغت الطبقة الراقية منهن في الآداب والغناء والموسيقى .

بيد ان نبوغهن لم يكتمل الا في العصر العباسي ، لأن الامويين وان وضعوا أساس النهوض بهذه الطبقة ، فانهم كانوا ، اول الامر ، مشغولين بالسياسة واستقرار الحكم عن القصور واللهو اذا غضضنا النظر عن يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) والوليد بن يزيد (١٢٥ - ١٢٦ هـ) . فاللهو انما يسوغ للاهين عند صفاء البال ووفرة المال . كان المال قد توافر زمن الامويين الا انهم قلما فرغوا من شواغل السياسة ، وتوطيد اركان الدولة ، وقص اجنحة خصومهم السياسيين ، كما يبدو ذلك من عهد معاوية الى الوليد بن عبد الملك . فلما استتب لهم الامر من بعد انصرفوا منذ الوليد المشار اليه الى التوسع في الفتوح ، فانشغلوا بذلك عن زخرف الحياة ولهو القصور . ثم لما كمل دور التأسيس والفتح ، وغمر العهد يُمن سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز تحولت الحال بعدهما وجاء عقب الرجال رجال . جاء يزيد بن عبد الملك صاحب الجاريتين سلامة وحبابة اللتين انشغل بهما عن الملك ، وخلفه هشام بن عبد الملك فشغلته الحروب عن اللهو ، وعاد الى سنة اسلافه من الجد والحزم ، ولكن كان هذا كالجملة المعترضة بين يزيد وابنه الوليد الذي لم يلبث ان ردّ عهد ابيه في اللهو والطرب . غير ان صفو الزمان لم يطل ، واعتكر جو السياسة من جديد ، وسرعان ما قُتل الوليد بن يزيد . وكان اول خليفة اموي يُقتل ، واتسعت جوانب الخلافات الداخلية فلم يقدر للثلاثة الذين خلفوه وتتابعوا على الدولة من بعده شيء من الراحة ، وبذلك أفل نجم الدولة وساعد على ظهور العباسيين .

فهذه الفذلكة التاريخية تعرض امام الانظار كيف ان الامويين في شطر كبير من عهدهم ، كانوا ما بين منصرفين عن اللهو وبين معتدل فيه مما ساعد المجتمع

العربي على السلامة من أدران الفساد جهد الامكان ، وحفظ عليه اخلاقه الفطرية الفاضلة. ولقد بلغت حدود الدولة على عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) (٧٠٥ - ٧١٤ م) الصين وقلب الهند، والى جبال اوستوريا في شمال اسبانيا، والى سواحل الاتلانتيك في غربي افريقيا ، فكان العز والثراء في ايامه اعظم ما بلغه الاسلام. ومن يقرأ ما غنمه المسلمون إبان فتح الاندلس ، يقدر اهمية الكنوز التي اصابها الامويون في ذلك العهد . ومع ذلك فكان الاعتدال في النفقات الخاصة - نفقات الخلافة - كان بالغا حدا حريا ان يجعله المثـــل العجيب في « التفريط في الاقتصاد » !! يدلنا على ذلك كلام ام البنين والدة الوليد بن عبد الملك حين كتبت للحجاج الذي نصح ابنها بالعدول عن الركون للنساء فقالت :

« ومع هــذا فان نساء امير المؤمنين قد نفضن العطر من غدائرهن ، والحلى من ايديهن وارجلهن فبعثنه في أعطية أوليائه » .

– أرأيت كيف استفاض المال في هذا العهد فلم يبدل الفطرة البدوية دفعة واحدة من حيث الاقتصاد في المعيشة ، وان قصورهم وان كان قـد دخلها من الأبهة ما تدعو اليه بعض حياة الملوك الا انها كانت معتدلة كثيرا جـدا بالنسبة لقصور الفرس قبلهم وقصور العباسيين بعدهم .

- على انا لو رجعنا الى فصل « اثمان الجواري » الذي عقده زيدان في كتابه التمدن الاسلامي (ج ٥ ص ١١٩) ، لرأينا قلة العناية باللهو والرخاء في العصر الاموي . اجل وبينما نراه ، قد أورد عددا وافرا من اسماء الذين غالوا في مدة العباسيين في اثمان الجواري ، نلاحظ انه لم يورد في عهـد الامويين غير مثالين فقط هما :

(١) شراء سعيد اخي سليمان بن عبـــد الملك ، الزلفاء بمليون درهم ، اي (٧٠٠٠) دينار .

(٢) وابتيـــاع يزيد بن عبد الملك ، سلامة بعشرين ألف دينار .

ونزيد على ذلك ان يزيد بن عبد الملك اشترى حبابة بأربعة آلاف دينار ..

ولا يجب ان يفهم من كلامنا ان اوائل الامويين كانوا زاهدين بحياة القصور. وبالجواري ، وانمـــا الذي نريد الاشارة اليه ان هؤلاء وغيرهم كانوا يلزمون الاعتدال ، وان الجواري كن يلقين في كل وقت الاقبال ، ولا سيما اللواتي حظين بنصيب من التربية والأدب سابقات فيهما الرجال الى حد ملحوظ..

واشهر بين جواري الامويين الزلفاء، التي صارت الى سليمان بن عبد الملك(٩٦ – ٩٩ ﻫ) والتي يقول فيها الشاعر ..

انما الزلفـــاء ياقوتة   أخرجت من كيس دهقان !

ومثلها في شهرتها : سلامة المتخرجـة على معبد في الغناء ، والمقدمة لديه على سواها من مولدات المدينة : سمعها عبد الرحمن بن عبد الله ، المعروف بالقس لزهده سمعها تغني ، فشغف بها ونظم فيها الأشعار ، ومما قاله في وصف صوتها :

ألم ترها ، لا يُبعد الله دارها   اذا طربت في صوتها كيف تصنع ؟!
تمد نظـــام القول ثم ترده   الى صلصل من صوتهـا يترجع

وكان لسلامة مناظرات ومحاورات ومجالس انس مع حبابة ويزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥ ﻫ .) تنوه بما ادركته من المنزلة الادبية، كان غرام يزيد بحبابة جعلها في منزلة من الشهرة بعيدة ، وكانت من مولدات المدينة، أخذت اصواتها على ابن سريج ومحرز ومالك، فشغف بها يزيد ، ونظم فيها شعراً .. ومنه :

أبلغ حبابة ، أسقى ربعها المطر،   ما للفؤاد سوى ذكراكم وطر
ان سار صحبيَ لم أملك تذكرهم   او عرّسوا، فهموم النفس والسهر !

قيل ان مسلمة دخل على اخيه يزيد وقال : «يا امير المؤمنين تركت الظهور للعامة ، والشهود للجمعة واحتجبت مع هذه الأمَة » فارعوى يزيد قليلاً وظهر للناس فاغرت حبابة الى الأحوص الشاعر ان يقول ابياتاً يهون بها عليه ما قال مسلمة ، فقال وغنت حبابة بها .

ألا لا تلمه اليوم ان يتبلدا فقد مُنع المحزون ان يتجلدا
اذا انت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
هل العيش الا ما تلذ وتشتهي وان لام فيه ذو الشنان وفندا؟

فلما سمعها يزيد ضرب بجران الارض وقال : «صدقت . على مسلمة لعنة الله .» ثم عاد الى سيرته الأولى .

ومن شهيرات جواري الخلفاء عوان ، جارية سليمان بن عبد الملك . وقد اشتهر غير هؤلاء نفر من الاماء ، كن بغير قصور الخلفاء ، مثل جميلة الخزرجية ، ونعمى ، وخليدة ، وعقيلة العقيقية وكلهن من المعروفات بالفن والأدب .

● كانت جميلة الخزرجية مولاة بني سليم من مكة ، تجمع مع جمالها ورزانتها بين أرفع طبقات الغناء ورخامة الصوت ، فأجمع مجيدو عصرها في الموسيقى ، مثل الغريض وابن محرز ومعبد بن جامع وحبابة وابن عائشة وسلامة وزين وخليدة وعقيلة العقيقية ، اجمعوا على أنها امام هذا الفن ، وكانوا يحكمونها فيما كانوا فيه يختلفون .

فقد كانت جميلة وهي في شبابها تجتمع بعزة الميلاء في شيخوختها وتستفيد منها ، فلذلك يمكن أن يقال : «انها عوّضت الفن عنها ، واشغلت مكانتها » .

وكانت نعمى جارية ظريف بن نعيم ، اغتصبها الحجاج ، وأرسلها الى عبد الملك بن مروان ، فدفع حب صاحبها لها ان ترك العراق وقدم دمشق ، وتجرأ

وطلب في رقعة من عبد الملك ، المعروف بشدته ، ان يسمعه غناها ، وليفعل بعد ذلك ما يشاء .

غير ان عبد الملك تلقى هذا الطلب بالحلم ، وأجاب سؤل ظريف ، ولكنه قضى عليهما من حيث لا يريد ، اذ ان ظريفا لم ينته من سماعها حتى ألقى بنفسه من شاهق فمات ، فقال عبد الملك « لقد عجّل على نفسه . أيظن أني أخرجت جارية وأعود فيها؟! خذها يا غلام فأعطها لورثته ،أو فتصدقوا بها عليه »فلما نزلوا بها نظرت الى حفيرة معدة للسيل ، فجذبت يدها من الغلام ، وقالت :

من مات عشقاً فليمت هكذا   لا خير في عشق بلا موت

وألقت نفسها في الحفيرة وماتت .

تلك اخبار الجواري في عهد الأمويين نقلناها ، من هنا وهناك ، من كتب الأدب والتاريخ . وهي اذا دلت على شيء فانما تدل على ما كان لهن من المساهمة في الادب والموسيقى والغناء. بيد ان هذه الطبقة لم يكتمل نضوجها ،ولم تتفتح ازاهيرها الا في ايام العباسيين .

ثقافة المرأة في العصر العباسي الاول

ليس في الواقع تقسيم لعهد العباسيين في بغداد الى اول وثان ؛ ولكننا لجأنا الى هذا لما كان بين اوائل هذا العهد واواخره من بون في درجات معارف المرأة ، ومن فرق في الوان ثقافتها ، وذلك تبعاً للظروف الطارئة ولاختلاف الحكام .

ونحن نريد بالعصر العباسي الأول ايام كان الخلفاء هم اصحاب الدولة والموجهون لها . واما العصر العباسي الثاني فهو يتناول العصور التي صار الحكم فيها للأعاجم سواء اكان ذلك في عهد الخلافة العباسية بالعراق ، والخلافة

الفاطمية بمصر ؛ او في ايام السلاطين والملوك الذين عاصروهما . وقد اصطلح بعض المؤرخين على تحديد نهاية العصر العباسي الأول بسنة ٣٢٤ هـ = ٩٤٥ م .

● وثبة العباسيين الثقافية .

● ورث العباسيون من الأمويين ملكاً فسيح الأرجاء ، لا مطمع بعده لطامع ، فزهدوا بالفتوحات والحروب الا لدفع عادية او لضرورة ، وتحولوا الى ارساء قواعد العمران ، وتدعيم صرح المدنية العربية . وبلغ من زهدهم في اتساع الملك ، من اجل الانصراف الى العلم والانشاء ، انهم تخلوا عن المغرب ومشاكله الى دولة بني الأغلب (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) في تونس ، واكتفوا بان تكون الخطبة لهم ، وهي رمز السيادة .

وكان عصر الرشيد العصر الذهبي بالنسبة لهم . ونحن لا نتعرض لما بذل هو وخلفاؤه من الجهود في سبيل الثقافة لان هذا اصبح من البديهيات ، الا انا لا نمرّ دون التنويه بما كان لاهل العلم عندهم من الأجلال . والتنويه هذا وحده كاف للدلالة على مقدار اهتمامهم بالعلم .

كان محمد المهدي (١٥٨ - ١٩٦ هـ) وهو والد هرون الرشيد ، ثالث الخلفاء العباسيين ، وكان معروفاً بحبه للعلوم والفنون ، وبالبذل في سبيل تعزيزهما حتى انه ليقال « ان اباه خلف في الخزانة مائة الف الف درهم ، وستين الف الف درهم فرقها بالعطاء » . وكانت حصة العلماء والادباء منها حصة الأسد. فأجاز شاعراً بمائة الف درهم . ولما استولى الرشيد على عرش بغداد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) فاق اباه في العلم وفي تكريم اهله . قيل انه كان يصب الماء على يدي ابي معاوية الضرير ، وهو لا يعلم ، فقال له يوماً : «اتدري من يصب الماء على يدك ؟ « قال: « لا » قال : « انا » .قال : « انت يا امير المؤمنين ؟ » قال : « نعم اجلالاً للعلم ! »

وكانت حضانته لأهل الادب ، واجزاله العطـاء لهم حافزين للشعراء على الأزدحام على بابه ، حتى ضاقت بهم بغداد ، واضطر المسؤولون الى امتحانهم ، وترتيبهم في الجوائز . وقد عهد يحيى بن خالد البرمكي بذلك الى شاعره ابّان اللاحقي . بل كان الرشيد ، علاوة على ذلك ، لا يكتفي بمن يفد عليـه منهم للاستجداء فيرسل في طلبهم الى شتى الانحاء .

ونهج ابناء الرشيد وبعض خلفائه نهجه في الاخذ بنصيب كبير من الثقافة ، وفي اعزاز اهلها. وكان ابنه المأمون عالماً فيلسوفاً يعقد مجالس العـلم، ويناظر فيها ، ويبذل الأموال الطائلة في سبيل الترجمة والتأليف ، ويبذلها ايضاً في العطاء للموهوبين ؛ ويبجل اهل الفضل .

عهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النحو ، واتفق ان اراد الفراء النهوض فابتدرا الى نعليه ، وتنازعا أيهما يقدمها . ثم اصطلحا على ان يقدم كل منهـما واحدة . فلما دخل الفراء على المأمون ، وكان قـد بلغه الخبر ، سأله : « من اعز الناس ؟ » قال الفراء : « لا اعرف احداً اعز من امير المؤمنين . » فجاوبـه المأمون : « بل اعزّ منه من اذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليّـا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما ان يقدم له فردا » فقال الفراء : « يا امير المؤمنين قد اردت منعهما . ولكن خشيت ان ادفعهما عن مكرمة سبقا اليها ، او اكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها ! »

و ذا كان هذا لا يستغرب صدوره عن عالم مثل المأمون لان الفضل يعرفـه ذووه فالغرابة تعظم حين نجد رجلاً اميـاً او شبه امي كالمعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) يمضي على سنة المأمون في حب العلم ، وشهود مجالس المناظرة ، ويهـتم بمسألة المسائل في ذلك العصر ؛ وهي قضية القول بخلق القرآن ، الى حد كبير . وحادثته مع الامام احمد بن حنبل ، وجلده اياه من اجل تلك المسألة مشهورة سائرة .

وسار الواثق بعد المعتصم في القول بخلق القرآن . وكان عالماً اديباً شاعراً كالمأمون ، ويزيد عليه في جودة الشعر ، وكان معززاً لشأن العلم والعلماء والادباء . ومثله كان اخوه المتوكل ، ولكنه خالف سلفيه في مسألة خلق القرآن ، وأخمد حركتها التي قام بها المعتزلة .

وانقضى من بعده العصر الذهبي للعباسيين مذ اقدم المنتصر بالله (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) على اغراء الاتراك لقتل أبيه المتوكل . وكان اول قتيل من الخلفاء ، فصار القتل فيهم سنة لهؤلاء المماليك لم تنته الا بانتهاء ملك العباسيين .

● نهضة الحرائر الادبية في عهد العباسيين

● ليس من الغريب في ذلك العصر الذهبي بروز نهضة عامة في الاوساط النسائية ، انما الغريب ما يأتي على عكس ذلك . اما وقد اصبح الناس يقدرون الاشخاص بمقدار نصيبهم من العلم والادب فمن الطبيعي ان تتوسل المرأة ، وهي المفطورة على حب اكتساب الانظار والقلوب اليها ؛ بالوسائل التي تحمل القوم على حبها واحترامها .

قال احمد اجاييف : « وفي عهد الدولة العباسية قامت النساء بتربية البنات وتثقيفهن ، وبارضاعهن ألبان الآداب والمعارف . وكان الناس لا يختارون لأولادهم مدرّسة ، او مهذبة لبناتهم الا من اللواتي احرزن نصيباً وافراً من العلوم والفنون . وكان المتمولون من العباسيين والسراة يتزاحمون ، مزاحمة شديدة ، على امثال اولئك المدرسات المربيات لتعليم البنات وتهذيبهن . وكان هؤلاء يعلمن بنات الاشراف والاعيان ، في باديء الامر ، القراءة ، والموسيقى ، والآداب الاجتماعية ، حتى اذا برعن فيها اوقفوهن على اسرار اللغة العربية ، وفروع البيان والمعاني والبديع ، وقرض الشعر ، والمنطق ، وغيرها من العلوم العالمية . وكثيراً ما كانوا يقيمون الاحتفالات لامتحان البنات ، وكان يشرف

عليها العلماء والقضاة . » على ان المرأة في هذا العصر العلمي لم تساهم في طلب العلم فقط ، ولا سيما الديني منه ، وانما تضلعت في هذا حتى اصبحت في عداد مدرسية الثقات . وفي الجزء الاول من كتاب العبر في خبر من عبر ذكر لكثير من عالمات العصر اللواتي روى عنهن كبار من العلماء : فالفقيه المفتي موسى بن عقبة المدني صاحب المغازي المتوفي سنة ١٤١ روى عن ام خالد بنت خالد الاموية . وعبدالله بن جعفر المخزومي المدني روى عن عمة ابيه ام بكر بنت المسور ابن مخرمة.

والذي يبدو لي ان اقبال النساء كان اكثره على العلوم الادبية، وان اشعارهن كانت، في اول الامر ، محصورة ضمن نطاق الرثاء ، او المدح شأن عصر الجاهلية . من ذلك رثاء لبانة بنت ريطة بن علي زوجها محمد بن هرون الرشيد الذي قتل قبل ان يبني بها. قالت :

ابكيك لا للنعيم والانس بل للمعالي والرمح والفرس
يا فارساً بالعراء مضرجا خانته قواده مع الحرس
ابكي على سيد فجعت به أرملني قبل ليلة العُرس
أمّن لبرّ ، أمّن لفائدة أمّن لذكر الاله في الغلس
مَن للحروب التي تكون بها ان أُضرمت نارها بلا قبس ؟

ومن ذلك غزاء زبيدة لولدها محمد الامين في جارية له تسمى نظمى . وكان يهواها ، واشتد جزعه على موتها . قالت في مطلعها :

نفسي فداؤك لا يذهب بك التلف ففي بقائك ممن قد مضى خلفُ

ولزبيدة اشعار اخرى في رثاء ولدها الامين ، وفي مدح المأمون اخيه ، والشكاية اليه من قاتله طاهر بن الحسين ، وكذلك في مناسبات اخرى .

بيد ان الشعر النسائي في ذلك العصر كان عند ليلى بنت طريف

الشيباني، التي ذكرناها في معرض الشجاعة، ابرزمنه عند غيرها. وهي اخت الوليد بن طريف الذي خرج على الرشيد . ولما قتل (١٨٩ هـ = ٧٩٥ م) سلكت ليلى في رثائه سلوك الخنساء في رثاء اخيها صخر ، ولعلها اجادت مثلها اذ قالت :

ذكرت الوليد وايامه اذ الارض في شخصه بلقعُ
فاقبلت اطلبه في السما ء كما يبتغي انفه الاجدع
أضاعك قومك فليطلبوا افادة مثل الذي ضيعوا
لو ان السيوف التي حدُّها يصيبك تعلم ما تصنع
نبت عنك او جفلت هيبة وخوفاً لصولك لا تقطع

وحق لهذا العصر ان يفخر باديبة تذكر مع الاجلال والتقدير جمعت من كل فن خبر ، وهي عُلية المعروفة بالعباسة بنت الخليفة المهدي (١٦٠ – ٢١٠ هـ) . لقد كانت ، الى جمالها ، تجمع بين الذكاء والعلم ، وبين الصوت الحسن ، والصنعة الموسيقية . وكان اخوها الرشيد يبالغ في احترامها ، وفي الرغبه بمجلسها . وآية ذلك ما رواه بعض المؤرخين في سبب نكبة البرامكة التي تضاربت فيها الاراء: « ان الرشيد قال لجعفر بن يحيي البرمكي : « ويحك. ليس في الارض طلعة انا بها آنس ولا اليها اميل مني برؤيتك . وان للعباسة اختي مني موقعاً ليس هو دون ذلك . وقد نظرت في امري معكما ، فوجدتني لا اصبر عنك ولا عنها.. وقد رأيت شيئاً يجتمع به السرور : قد زوجتكما تزويجاً تحلل به مجالستها ، والاجتماع بمجلس انا فيه معكما » واخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه ان لا يخلو بها . ولكن البرمكي ما كان بوسعه التزام هذا العهد بعد المخالطة ، فكان ذلك سبب قتله ، ونكبة عائلته . »

وهذه الحادثة التي رواها المسعودي وغيره وان لم تبلغ عندي مبلغ اليقين الا انها ، مع ذلك، تشير ، فيما يشير اليه التاريخ في مواضع اخرى، الى تعلق الرشيد باخته العباسة . قيل ان الرشيد خرج الى الري بايران ، واخذها معه ، ولما دخلت الى

المرج نظمت وغنت :

ومغـترب بالمرج يبكي لشجوه — وقد غاب عنه المسعدون على الحب
اذا ما اتاه الركب من نحو ارضه — تنشق يستشفي برائحة الركب

فعلم الرشيد انها اشتاقت الى العراق واهلها ، فأمر بردها .

على ان اشعار علية خرجت من اطار الشعر النسائي القديم الى نطاق الغزل حتى ليشعر سامعها او قارؤها انها تصدر عن قلب مفعم بالغرام . وديوانهـا الحافل بهذا اللون من النظم يدل ضمناً على تطور روح العصر ، وتبدل المقاييس العامة اسوة بما حدث في الاندلس . ولولا ذلك لما استطاب الخليفة استرسالها في انواع الغزل. ولعلها كانت في الشعر حكيمة اكثر منها شاعرة ، ومن قولها :

اني كثرت عليه في زيارتـه — فمل والشيء مملول اذا كثرا
ورابني منه اني لا ازال ارى — في طرفه قصراً عني اذا نظرا

فما ابلغ الأعتذار في البيت الأول ، وما ألطف استخراج خبايا الحبيب ، في البيت الثاني ، من ظاهر حسه ؟

ولها ايضاً شعر حكيم كأنها تعطي فيه درساً في الحب والأحباء اذ تقول :

بني الحب على الجود فـلو — انصف المحبوب فيه لسمج
ليس يستحسن في حكم الهوى — عاشق يحسن تأليف الحجج
وقليل الحب صرفاً خالصاً — هو خير من كثير قد مزج

ولقد عاصرتها عريب جارية المأمون وجالستها فلنستمع الى رأيها فيها وان كان الضرائر في الفن لا تسمع لاحداهن شهادة عـلى الأخرى . قالت عريب . « احسن يوم مر بي في الدنيا واطيبه يوم اجتمعت فيه مع ابراهيم بن المهـدي

واخته عليّة وعندهم يعقوب ، وكان من احذق الناس بالزمر ، فبدأت عُليّة ، وغنتهم من صنعتها في شعرها ، واخوها يعقوب يزمر عليها :

تحبّب فان الحب داعية الحب ... وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصّر فان حُدثت ان اخا الهوى ... نجا سالماً فارج النجاة من الحب
واطيب ايام الفتى يومه الذي ... يروع بالهجران منه وبالعتب
اذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى ... فاين حلاوات الرسائل والكتب ؟

وانشدت غير ذلك فما سمعت مثلما سمعت منها قط ، واعلم اني لا اسمع مثله ابدا » .

وهذه الحادثة التي اوردناها في سياق الحديث عن عليّة اديبة العصر تصح ان تكون في ناحية اخرى مصورة لحياة المجتمع ، ومنوهة بمقدار انغماسه باللهو والملذات : علّية واخواها ابراهيم ويعقوب ، وهم من الاسرة المالكة ، يؤلفون فيما بينهم جوقة طرب . فماذا عسى تكون حالة الشعب الذى يتخذ هذه الاسرة قدوة له ؟ لا ريب في انه كان خلال ذلك العصر الذهبي ، يرقص طرباً مصداقاً لقول الشاعر :

اذا كان رب البيت بالدف ضارباً ... فشيمة اهل البيت كلهم الرقص

فصدق اذن اذا سمعت عن وصال جعفر البرمكي وعُليّة ، وصدق ايضاً ما جاءت به قصة الف ليلة وليلة من الاخبار التي تشبه الاساطير .

على ان سوء الظن هذا لا يمنعنا من الاعجاب بعُلية . واذا كانت لذات الهوى بالتنقل فما من مجلس هو اكثر تنقلاً بين طرائف الحسن والجمال ، والادب والفن ، من مجلس عُلية . فهي طوراً شاعرة متغزلة ، وتارة حكيمة مرشدة ، ومرة عالمة متفننة واخرى مطربة آسرة ، ثم هي اذا سكتت اشغلت الحاضرين

بتأمل جمالها . هذا علاوة على انها كانت تجمع بين سحر الجاه وبين جلال العلم . ولا بدع ان تكون معشوقة الجميع .

وانت جميل تحب الجمال وكيف عبادك لا يعشقون؟

هذا وكانت تُعاصر عليّة سيدة اخرى من الاشراف لمع اسمها مثلها، ولكن في ناحية اخرى معاكسة ، واعني بهـا نفيسة زوجة المؤتمن اسحق بن جعفر الصادق . وقد كانت ، على تقواها ، من عالمات العصر في العلوم الدينية ، ومن اساتذة الجيل . وحسبها فخراً ان الامام الشافعي سمع عليها في مصر .

ثم لا يضيق المقام بالمسامة سريعة عن سيدة اخرى تسمى ام القراطيس في بغداد التي قيل عنها : « أشعر أهل عصرها واعف النساء واجملهن . » سمع شعرها المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ) واجرى عليها نفقة تقديراً لأدبها وعفافها . على اننا لا ننسى ايضاً قطر الندى زوجة المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩) فهي تركية كانت تتذوق العلم والادب ، فانشأت في قصرها حلقة تجتمع فيها الاديبات والعالمات . وكن يتناقشن ويتناظرن في شتى الامور ثم لما مات زوجها ، وافضت الخلافة الى ابنها المقتدر ، وكان حديث السن ، اصبح بيدها امر الحل والعقد .

والى هذا فمن الانصاف ان ننوه بسيدتين اخريين نبغتا في الموسيقى والضرب على الآلات ، وهما لبانة بنت ربطة زوجة الامين بن الرشيد ، وشعانين زوجة المتوكل . وكان اكثر نساء الخلفاء الحرائر يجدن الفنون الجميلة . ولكن ذلك العصر كان عصر الجواري اللواتي كن زينة القصور ، اولئك المتضمخات اناء الليل واطراف النهار بالعطور ، المترنحات بالهوى والشباب والجمال الساحر ، أم المسحور .

● حياة القصور في العصر العباسي الاول واثرها في الثقافة

● حين استتب الأمر للعباسيين جرى خلفاؤهم الاولون على سنة البساطة في

الحياة الملكية؛ فلم يحفل السفاح ولا المنصور بأبهة الملك ، ولم ينصرف المهدي ولا الهادي الى حياة القصور كل الانصراف ، بل انصرفوا جميعهم الى ارساء قواعد الدولة على اسس متينة ، والى الاهتمام بشؤون الرعية .

غير ان السيل اذا انهمر ، وسقط الى منحدر فلا يقف في وجهه سدّ مهما كبر . وهكذا اذا غمرت الثروة الانسان ، وتماثلت امام انظاره مغريات الحسان ، وثارت نفسه الأمارة بالسوء ، واطمأن الى المآل ، فامام هذه السيول تنهار تباعاً الروادع ، ويستسلم الى قلبه وهواه .

ولما كان من مستلزمات الملك تشييد القصور ، ومن مستتبعات القصور تزيينها بالتحف والجواري والخدم فسرعان ما عمد العباسيون الى ذلك منذ المنصور ثاني خلفائهم فسارعوا الى تشييد الصروح من امثال قصر الخلد ، وقصر باب الذهب ، وقصر وضاح . ولكن ذلك كله كان يلتزم الاعتدال حتى اذا جاء الرشيد ، وكان عهده عهد الاختلاط بالفرس ، والتأثر بهم ، استرسل في تقليد اكاسرتهم الاولين ، فاشاد القصور ، وعني في زخرفتها ، واحدث اشكالاً من الفرش والرياش لم يسبقه اليها احد . وكان قصره المعروف بقصر الرشيد ، وقصر زوجته زبيدة المعروف بدار القرار ، كانا تحفة الدهر ، وزينة العصر .

وقد روى الراوون ان زبيدة كانت اول من اتخذ القباب من الفضة والابنوس والصندل ، واتخذت كلاليبها من الذهب والفضة ملبّسة بالوشي ، والسمّور ، والديباج ، وانواع الحرير الاحمر ، والاصفر ، والأخضر ، والأزرق .

ومال هرون الرشيد الى حياة القصور ، وما فيها من لهو وزهو على غرار البرامكة وزرائه برغم ما عرف به من التقوى حتى اذا قرأنا سيرته لا نعرف ان كان هذا الخليفة من الاتقياء ، أم هو في عداد اهل الهوى . ولعله كان بين هذا

وذاك على حد قول الشاعر .

وللہ مني جانب لا أضيعه   وللهو مني والصبابة جانب

ولعل رغبة الرشيد في معاشرة النساء ، وميله ، في نفس الوقت ، لمجالسة اهل الفضل مفتاح شخصيته التي كانت تطمح لاتحاد الكمال بالجمـــال . وخلف الرشيد خلف اقتدوا به في العمران ، وفي بناء القصور ؛ وربما فاقوا عليه في الاستسلام لاهلها من ذوات الحسن والجمال ، والادب والفن .

● عصر الجواري المثقفات في عهد العباسيين الأول

● لم يتزوج السفاح اول العباسيين (١٣٢ — ١٣٦ هـ) غير امرأة واحدة ، ولم يعرف بكثرة الجوارى ، وزاد خلفه المنصور عليه قليلاً في اقتناء الجواري ، ثم تجاوزهما المهدي والهادي حتى اذا جاء بعدهما الرشيد كان عهده عهد الجواري والقيان .

فالمهدي كان معروفاً بحبه للأدب والموسيقى ، وحظي عنده من الجواري مغنيتان بارعتان : حلة وحسنة : ثم افتتن بالخيزران التي اوتيت حظاً كبيراً من النباهة اهّلها لان يعتقها الخليفة ويتزوجها . وحق لها هذا التكريم لانها كانت الى جمالها باعثة الحركة الأدبية في قصر الخلافة . كانت تقابل العلماء وتناظرهم ، ويفد اليها الشعراء في شتى الجهات . وهي الى ذلك كانت تحض المهدي على تشييد دور العلم ، ومكافأة الموهوبين ، وتنشيء اولادها واحفادها على ما نشأت عليه من حب العلم والعلماء ، والأدب والأدباء . ولعل الفضل يرجع اليها في تربية ولديها الهادي وهارون الرشيد ، ثم حفيدها المأمون ، تربية جعلتهم أركان النهضة العلمية .

وجرى الهادي على سنة أبيه فكان يحب جارية أخرى لأدبها وفضلها

فاشتراها وتزوجها . واما الرشيد فلقد روى الراوون انه اتخذ الفي جارية لكل واحدة منهن ميزة خاصة ، ومعهن ثلاثمائة قينة للغناء والموسيقى ما بين جنكية ، وعودية ، ودفّية ، وقانونية ، وزامرة ، وراقصة ومغنية ، وسنطرية . وبذل في شرائهن الوفاض الدنانير . فابتاع واحدة بمائة الف دينار . واضاف الى هذه الحاشية ابراهيم الموصلي المطرب المغنى ، وابا الحسن الخليع الدمشقي المضحك المجوني . وبالغ اهله مثله في البذل على الملابس واقتناء المجوهرات حتى نظموها في عصائب نسائهم ، كما فعلت اخت الرشيد ، ورصعوا بها خفافهن ، كما فعلت زوجته ام جعفر .

ثم لم يقف خلفاء الرشيد عند هذا الحد ، بل زاد بعضهم على بعض في اقتناء الجواري ،فكان بين ما خلف المعتصم ثمانية آلاف جارية ، واما المتوكل ابنه فكان له اربعة آلاف جارية .

وجرى الشعب على مألوف حكامه ، فاعانتهم الثروة الزاخرة على تشييد القصور ، والمفاخرة في تزيينها بالرياش والتحف ، وبالجواري الحسان ، وربات الأدب . وكان اسبقهم الى ذلك البرامكة ونساؤهم ، وكانت ام جعفر البرمكي تنهج نهج زبيدة ، زوجة الرشيد ، في الاكثار منهن ، والمفاخرة بانواعهن . فكان ذلك العصر يجمع بالجواري بين نهضة ادبية نسائية ، وبين حياة كلها زهو ولهو وطرب .

- **كيف جمع الجواري بين الثقافة وبين حياة اللهو والطرب ؟**

- كان ابو نواس صورة صادقة لعصره حين قال :

الا فاسقني خمراً ، وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً اذا امكن الجهر

لقد اراد ان تسمع اذناه ، كما ترى عيناه ، انه يشرب الخمر بغية اشراك

حواسه جميعها ، دون استثناء ، في لذة الشراب . وكذلك كان العباسيون يحرصون على ان لا تستأثر ابصارهم واجسادهم بالتلذذ بالجمال، وانما كانوا يريدون اشراك ارواحهم في التلذذ بالجمال ، وكانوا يريدون ايضاً اشراك ارواحهم في التلذذ بالكمال الادبي حتى كانت الجارية لا تحسن عندهم لمجرد حسنها وفتنتها الانثوية ، ورخامة صوتها ورشاقة رقصها ، ولكنها تحسن بما اضافت الى ذلك من علم وادب وفن .

ووغبة الخلفاء ومعاصريهم في الجواري على هذا الاساس حملت النخاسين ، وبعضهم من اليهود ، الى تهذيبهن وتعليمهن ، ودعت الذين يتقربون الى الحكام، وذلك باهداء الجوارى اليهم،دعتهم الى اختيار الهدايا من خيار المتعلمات منهن ، وبخاصة العلوم الادبية ، والفنية، والموسيقية . فكانت نهضة نسوية ادبية قوامها هؤلاء الجواري . لأن كثيرات منهن نبغن في نظم الشعر ، وتغنيته واجازته ومعارضته ، كما برع غيرهن في الموسيقى ، واصولها ، وفنونها ، أو في رواية الاخبار ، ونقدها ، حتى ملكن بجمالهن ، وثقافتهن ، ومعرفتهن حسن السلوك ، قلوب رجال العصر وعواهله. وقد روى ابن عبد ربه (العقد الفريد ج١ ص١٨٣) ان هرون الرشيد والمأمون والمعتز من العباسيين كانوا في عداد الذين نظموا الشعر في قيناتهم .وكان للبارعات منهن في الأدب، او الممتازات في الفنون الجميلة ، المامة شاملة بكل منها لما تقتضيه صنعة تأليف الاصوات من الثقافة العامة ، ولما يتطلبه ادب الجواري من التحسس بالفنون الجميلة. على ان بعضهن كان يجمع بين الاحاطة بالثقافة والفنون الجميلة وبين النادرة وحلو الحديث والجمال .

وتبرز عنان جارية الناطفي ـ احد المقينين في بغداد ـ على رأس اللواتي اشتهرن بالادب ، حتى زعم بعضهم انها لتقدم على ابي نواس وغيره من شعراء عصرها . استعرضها الرشيد يوماً ليشتريها ، ثم امسك عن شرائها ، فجلس ليلة ومعه سمّاره ، فغناه بعض من حضر من المغنين بابيات جرير التي فيها .

ان الذين غدوا بلبك غادروا وشَلا بعينك لا يزال معينا

فطرب الرشيد ، واعجب بالابيات . وقال لجلسائه : « هل منكم احد يجيز هذه الابيات بمثلها وله هذه البدرة ؟ فتبادروا ولكنهم لم ينالوا استحسانه فتقدم خادم على رأسه وقال :

انا لك بها يا امير المؤمنين ، فاحتمل البدرة وأتى الناطفي ، واستأذن على عنان ، وأخبرها الخبر ، فقالت له : « اكتب ، ولمحت الى ما سبق من تعريض الرشيد من حبه لها . .

هيّجت بالقول الذي قد قلته داءً بقلبي ما يزال كمينا
قد اينعت ثمراته من طيبها وسقين من ماء الهوى فروينا
كذب الذين تقوّلوا يا سيدي ان القلوب اذا هوين هوينا !

فلما سمعها هرون الرشيد راقت له ، وأعجب بناظمها ، فبادر بشرائها ، ودفع ثمنها ثلاثين ألفاً من ليلته ، وعاشت عنده زمناً كان يأنس بمنادمتها ومغازلتها . وهي من مولدات اليمامة .

« قال الأصمعي : ما رأيت الرشيد متبذّلاً قط ، إلا مرة ، كتبت اليه عنان .

كنت في ظل نعمة بهواكا آمناً منك لا أخاف جفاكا
فسعى بيننا الوشاة ، فأقرر ت عيون الوشاة بي ، فهناكا
ولعمري بغير ذا كان أولى بك في الحق ، يا جُعلت فداكا !

فقال لجلسائه : « أيكم يشير الى المعنى الذي في نفسي ، وله عشرة آلاف درهم ، فقال ابو جعفر الشطرنجي .

مجلس ينسب السرور اليه لمحب ريحانه ذكراكا

فقال : يا غلام بدرة . وتلوته بقولي :

لم ينلك الرجاء ان تحضريني وتجافت امنيتي عن سواكا

قال احسنت والله يا أصمعي ، ولك بهذا البيت عشرون الفاً ، ثم قال جرير :

كلما دارت الزجاجة والكا س أعارته حبوة فبكاكا

فقال الرشيد .. انا اشعركم حيث أقول :

قد تمنيت ان يغشيني الله نعاساً لعل عيني تراكا ..

قلنا له -« صدقت يا امير المؤمنين . »

وتذكر « جنان » ايضا جارية عبد الوهاب الثقفي ، اذا ذكر الادب والجواري في عهد الرشيد ، وكانت حسناء أديبة عاقلة ، راوية ، تعرف الاخبار ، وتروي الاشعار ، رآها أبو نواس عند مولاها بالبصرة فأحبها ، وقال فيها اشعاراً كثيرة ، نبه بها ذكرها بين اترابها ، وبلغ من شغفه بها انه لما بلغه عزمها على الحج سبقها اليه . ومن طريف ما كتبه اليها :

اكثري المحو في كتابك وامحيه اذا ما محوته باللسان
وامرري بالمحاء بين ثنايا ك العذاب المفجعات الحسان
انني كلما مررت بسطر فيه محو لطعته بلساني
تلك تقبيلة لكم من بعيد أهديت لي وما برحت مكاني

ومن شعره اللطيف فيها وقد رآها في مأتم سيدهـــا تندبه باكية ، وهي مخضبة، قوله:

يا قمرا ابرزه مأتم يندب شجوا بين اتراب
يبكي فيذري الدرّ من نرجس ويلطم الورد بعنــاب
لا تبك ميتاً حل في حفرة وابك قتيلاً لك في الباب

وتوفيت جنان في دار سيدها بعد ابي نواس بقليل .

وثالثة كان لها كِفل ونصيب من اسمهـــا ، وهي فضل جارية المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ) . قال عنها صاحب فوات الوفيات (ج ١ ص ١٢٦) . «كانت من مولدات اليمامة ، ولم يكن في زمانها امرأة افصح منها ولا اشعر.» وروي انها كانت تهاجي الشعراء ، ويجتمع عندهـــا الادباء ، ولها في الخلفاء والملوك مدائح كثيرة . وكانت تتشيع وتتعصب لاهل مذهبها، وتقضي حوائجهم بجاهها عند المـلوك والاشراف . ويوم اهديت الى المتوكل قال لها : « أشاعرة انت ؟ » قالت : « كذا يزعم من باعني واشتراني ! » فضحك . وقد تأدبت ، وتخرجت في البصرة . وكان عصر المتوكل عصر الشعر الرقيق . اجتمع فيه من الشعراء المرققين ذوي الديباجة المذهبة ، والاسلوب الغنائي البديع ما لم يجتمع في عصر من العصور . ففيه البحتري ، وسعيد بن حميد ، وابو دلف ، وعلي بن الجهم ، وابراهيم بن العباس ، وابن الرومي وغيرهم . وكانت فضل تعاصرهم فما قصرت عنهم ، بل كثيراً ما تقدمتهم في صعيد الشعر الغنائي . وكانت لها معهم محاورات ومناظرات. تساءل عفيفي : (المرأة العربية ج ٣ ص ١٨) وقال :

« كم من الشعراء من يحسن ان يقول قولها ؟ »

الصبر ينقص والسقـام يزيد والدار دانية وانت بعيد

اشكوك ام اشكو اليك فانه   لا يستطيع سواهما المجهود »

واورد من شعرها في المتوكل :

ان من يملك رقي   مالك رق الرقـاب
لم يكن يا احسن العا   لم هـذا في حسابي

وعلق على هذين البيتين بقوله : « من يسمعها تغني هذا الشعر ، ثم لا تميد به النشوة ، ويستخفه الطرب؟» وذكر ان الشعراء تناشدوا بحضرة المتوكل . فقال لعلي بن الجهم قل بيتا وطالب فضلا باجازته . فقال علي :

لاذ بها يشتكي هواها   فلم يجد عندها ملاذا

فقالت فضل مجيزة :

ولم يزل ضارعاً اليها   تظل اجفـانه رذاذا
فعاتبوه فزاد شوقا   فمات وجدا. فكان ماذا؟

فطرب المتوكل . والى هذا فقد طلب سعيد بن حميد منها ان تجيز قوله :

من لمحب احب في صغره ؟

فقالت غير متوفقة :   فصار احدوثة على كبره

فقال : من نظر شفه فارقه ...

فأكملت وابدعت قائلة :   وكان مبدا هواه من نظره .

لولا الأماني لمات من كمد   كما الليالي تزيد في فكره
ليس له مسعد يساعده   بالليل في طوله وفي قصره

وكأني بها كانت كنساء الجاهلية ، وصدر الاسلام، جرأة وثقة واعتمادا على

النفس، او كالمرأة الغربية في القرن العشرين لا تنكر سماع ما فيه تعريض بما بين الرجل والمرأة، ولا يكبر عليها مقابلة القول بمثله. فلما القى عليها ابو دلف قوله:

قالوا ركبت صغيرة فاجبتهم   أشهى المطي اليّ ما لم يُركب
كم بين حبة لؤلؤ مكنونة   ثقبت وحبة لؤلؤ لم تثقب ؟!

بادرته، تدفع حجته بمثلها، فقالت:

ان المطية لا يلذ ركوبها   ما لم تذلل بالزمام وتركب
والحبّ ليس بنافع اربابه   ما لم يؤلف بالنظام ويثقب

ونوادرها مع الادباء مما لا يدخل في احصاء! وهي كانت في صراحتها ببغداد كالولادة بنت المستكفي في قرطبة مع الفارق ان هذه جارية، وتلك اميرة. وكان يعاصرها «خنساء» جارية هشام المكفوف، وهي مثلها ذات ضلع في الادب والشعر. ولكن دبيب التحاسد قد دبّ بينهما، فتهاجتا وكان ابو شبل عاصم بن وهب يعاون فضلاً عليها، ويهجوها، وكان القصيدي والحفصي يعينان «خنساء» على «فضل». ومن قول خنساء في هجائها:

لما اكتنيت بما اكتنيت به   . . . . . .
كادت بنا الدنيا تميد ضحىً   ونرى السماء تذوب كالمهل

وبموت فضل سنة ٢٦٠هـ دفن فضل الجواري، وتضاءل الى حد كبير شأنهن، وقلما ذكر التاريخ فيما بعد غير قطر الندى «جارية المعتضد» في القرن السادس للهجرة ممن بلغن شأوها في الادب.

وما كان مرد ذلك الى قلة عدد الجواري والقيان في العصر العباسي،

الثاني ، وانما يعود السبب الى ان السواد الاعظم من خلفاء وملوك ذلك العصر درجوا على سنة الاعاجم اصحاب السلطة في الاقتصار على اختيار الجواري والقيان من ربات الحسن والدلال ، وصاحبات الاصوات الجميلة ، والرقص البديع ، دون اي اعتبار للثقافة .

● شهيرات الفنانات والقيان في العصر العباسي

● كان العصر العباسي حافلاً بطبقة اخرى من الجواري لم تكن شهرتهن تعود الى ثقافتهن وادبهن ، وانما ترجع الى نبوغهن في الفنون الجميلة من غناء ورقص ، والى براعتهن في الضرب على الآلات الموسيقية كالجنبك ، والعود ، والطنبور ، والدف ، والقانون ، والزمر ، وغيرها من الآلات الموسيقية المعروفة في ذلك الزمان . وكانت هذه الطبقة تتدرب على اساتذة واستاذات ماهرين بالأصول من امثال فليح ، وابراهيم الموصلي ، وابن اسحق ، وابن جامع ، وبذل ، ودنانير ، ومن سبقهم وخلفهم من علماء في الفنون الجميلة .

ولعل اولى هؤلاء الشهيرات من الفنانات كانت الزرقاء : جارية ابن رامين ، التي كانت غاية في الجمال ، وحسن الصوت . وقد اشتراها جعفر بن سليمان ، الذي كان ابوه عامل المنصور على البصرة ، في منتصف القرن الثاني للهجرة ، وبقيت عنده معززة مكرمة حتى ماتت . وتليها بصبص جارية ابن نفيس . قال عنها ع . عفيفي (المرأة العربية ج ٣ ص ٢٣) « اوتيت كثيراً من ملاحة الوجه ، وسحر الغناء . تلقت صناعتها عن الطبقة الأولى من المغنين . وكان سيدها ابن نفيس صاحب قيان يرويهن الشعر ، ويعلمهن الغناء . ومن اجل ذلك كانت داره في المدينة مهبطاً للوجوه والاشراف – وحدث عثمان بن محمد الليثي قال :

« كنت يوماً في منزل ابن نفيس فخرجت الينا جاريته بصبص ، وكان في القوم فتى يحبها ، فسألته حاجة ، فقام ليأتيهـــا بها ، فنسي ان يلبس نعله ، ومشى حافياً ، فقالت له « يا فلان نسيت نعلك » فرجع ، فلبسها ، ومضى وقال :

وحبك يلهيني عن الشيء في يدي ويشغلني عن كل شيء أحاوله

فاجابته فوراً :

وبي مثل ما تشكوه مني وانني لأشفق من حب لذاك تزايله

وقد اشتراها المهدي بسبعة عشر الف دينار ، وهو ثمن ينوه بقيمتها ومكانتها. وهناك جارية اخرى جمعت الى نبوغها في الغناء شاعرية رقيقة ، وادباً فائقاً ، وهي برقا . كانت لعلاء الدين البصري فباعها على كره منه ، بدافع الحاجة ، الى ابن معمر العامل على البصرة . وكان هذا كريماً ، فما ان علم بما كان بينها وبين سيدها من حب متبادل وهو انمـــا باعها اضطراراً ، حتى رق قلبه لهما ، وأعادها اليه ، ووهبه ثمنها الذي بلغ مائة الف درهم . على ان عصر هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) كان العصر الذهبي ايضاً لهؤلاء الفنانات : ففيه كثر عددهن ، وبرزت مواهبهن اكثر من كل عصر آخر تبعاً للازدهار العام . وكانت لعُلية اخته جارية تجمع بين الجمال والاجادة في الغناء ، ومعرفة الاصول ورواية الشعر اسمها تنوسة ، وصف جمالها مان الموسوس بقوله :

ظبية كالغزال لو تلحظ الصخـ ـر بطرف لغادرته هشيما
واذا ما تبسمت خلت ما تبـ ـدي من الثغر لؤلؤاً منظوما

ووصف صوتها الرقيق بقوله :

لم تطب اللذات إلا لمن طـــابت له لذات تنوسه
غنت بصوت اطلقت عبرة كانت بحسن الصوت محبوسة

وكانت تعاصرها قينة اخرى تلقب بذات الخـال . كانت في الأصل لقرين مولى عُلية اخت الرشيد . اعجب بها ابراهيم الموصلي الفنان الشهير ، وعشقهـا ، واكثر من قول الشعر فيها مما اذاع صيتها . ومن قوله فيها :

جزى الله خيراً من كلفت بحبه وليس به الا الممـــوه من حبي
وقالوا قلوب العـــاشقين رقيقة فما بال ذات الخال قاسية القلب
وقـــالوا لها هذا محبك معرضاً فقالت ارى اعراضه أيسر الخطب
فما هو الا نظرة بتبسم فتنشب رجلاه ، ويسقط للجنب

وكانت شهرتها حافزة للرشيد على شرائها بتسعين الف درهم .

وكان البرامكة وزراء الرشيد يحذون حذوه في الاخـــذ بمظاهر الابهة والعظمة ، وقد برزت بين جواريهن دنانـــير جارية يحي بن خالد . وهي من مولدات المدينة . برعت في الغناء رواية وتلميحاً ، وفي الادب ، شعراً ورواية ، حتى كان الرشيد يزور كثيراً دار سيدها لاستماع غنائها. وكان اعتمادها في غنائها على ما اخذته من اشهر الفنانين ، وبرعت حتى صارت تنـاظر احد اساتذتها : ابن جامع وغيره وتغلبهم ، ووضعت مؤلفات في الموسيقى ، وكتاباً في الاغاني مشهوراً . وكان سيدها يحيى يقدرها ويحبها حتى انه كان يتصدق عنها في كل يوم من شهر رمضان بألف دينار فدية لانها كانت تفطره لمرضها وبقيت على ولائها للبرامكة بعد نكبتهم حتى ماتت .

وكان للبرامكة جارية اخرى اسمها فريدة من مولدات الحجـاز . كانت مولاة آل الربيع ، ثم صارت الى البرامكة . فلما نكبوا هربت ، فجد الرشيد

الطلب عليها فلم يعثر عليها ، ولكنها صارت من بعـــده الى ولده الامين ، ثم تزوجت بعد قتله (١٩٨هـ) وكانت لهـــا صنعة جيدة . منها في شعر الوليد ابن يزيد.

ويـــح سلمى لو تراني لعناها ما عنـــاني
واقفـــاً في الدار ابكي عاشقاً حور الغواني

واما التي بولغ في التنويه بها فهي بذل من مولدات المدينة . ابتاعها جعفر بن محمد الهادي،واحتال الامين بن الرشيد حتى اشتراها منه. عرفت بروايتها شتى الاغاني حتى زعموا انها كانت تغني ثلاثين الف صوت،وانها وضعت كتاباً في يوم وليلة ، يشتمل على اثني عشر الف صوت . وهو قول وان كان ظاهر الغلو الا انه يشير الى ما ادركته من سمو في هذا الفن . قيل ان اسحق الموصلي خالفهـا في نسبة صوت غنته بحضرة المأمون فأمسكت عنه ساعة ، ثم غنت ثلاثة اصوات . وسألت اسحق عن صانعها فلم يعرفـــه ، فقالت : « والله يا امير المؤمنين هي لأبيه ابراهيم . اخذتها من فيه . فاذا كان هذا لا يعرف غنـــاء ابيه ، فكيف يعرف غناء غيره ؟ » فاشتد ذلـك على اسحق حتى رؤي اثر الالم في وجهه . وقد واتت بذلاً فرص كثيرة للحصول على الغنى والثراء ، ورغب اليها وجوه القواد والكتاب في الزواج ، ولكنها أبت ، واقامت في موطن الاجلال من الخلفاء والامراء حتى ماتت .

واشتهرت في ذلك العصر عبيدة بنت صبـــاح مولى ابي السمراء . وكانت شهرتها تعود لجمعها بين حسن الوجه وجـــال الصوت ، وبراعة الصنعة . وقد عرفت بالطنبورية لتفوّقها في ضرب الطنبور . وكانت تكتب على طنبورها :

كل شيء سوى الخيا نة في الحب يحتمل

وهي كانت تعاصر الفنانين اسحق ابن ابراهيم الموصلي ، وابي حشيشة ، وكلهم شهدوا لها بالامتياز في صنعتها .

بيد ان الشهرة الممتازة وقتئذ كانت لعريب (١٨١ - ٢٧٧ هـ) التي انتقلت من خليفة الى خليفة. وكان حسنها وصوتها وصنعتها وادبها تجعلها،وهي جارية، في مرتبة السيد على اسيادها . اشتراها الامين ثم المأمون ، ثم المعتصم ، ثم الواثق، ثم المتوكل حرصاً من كل منهم على التمتع بحسنها وادبها ، وروايتها الشعر ، وفنونها في الغناء ، والموسيقى .

ومن شعرها في محمد بن حامد الذي كانت تهواه :

ويلي عليك ومنكا	اوقعت في الحب شكا
زعمت اني خئون	جورا علي وافكا
فابدل الله ما بي	من ذلة الحب نسكا

وقد قال يحيي بن علي: « امرني المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ان اجمع غناءها الذي صنعته ، فاخذت منها دفاترها وصحفها التي كانت تجمع فيها غناءها فكتبته فكان الف صوت . »

وكانت تعاصرها جاريه اخرى اسمها متيم الهاشمية عرفت بصنعتها وادبها، كانت من مولدات البصرة فاشتراها علي بن هشام ، وتزوجها واستولدها . ثم صارت الى المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) فاعجب بها . وعاشت هي وابراهيم المهدي ، وبذل أستاذتها ، في آن واحد .وكان للمعتصم جارية ذات مجون فقالت له : « يا سيدي اظن ان في الجنة عرساً فطلبوا هؤلاء اليه . » فنهاها المعتصم . وبعد ايام وقع حريق في حجرة هذه الجارية التهم تحفها ونفائسها . فلما رآها

المعتصم تبكي قال لها : « لا تجزعي فان كل هذا لم يحترق ، وانما استعاره اهل الجنة اصحاب ذلك العرس ! »

وأخرى كانت تسمى قلم الصالحية نسبة لمولاها صالح بن عبد الوهاب . اخذت صنعة الموسيقى عن ابراهيم الموصلي، وعن ابنه اسحق، ويحي البرمكي ، وزبير بن رحمان . ثم اشتهرت حتى صار مشاهير المغنين يغنون الحانها . وقد لفتت شهرتها انظار الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) فاشتراها واستخلصها لنفسه . وكان في قصر الواثق جارية حسنة الوجه ، رائعة الغناء ، حادة الفطنة اهداها له ابن بانة فاحبها وتزوجها . ثم صارت بعد موته الى خلفه المتوكل فقدّرها ايضاً حق قدرها وتزوجها على ان محبوبة المتوكل المفضلة كانت جاريته محبوبة البارعة في الجمال ، والمتخرجة في البصرة على احسن الفنانين . وقد ظلت وفية لمولاها بعد قتله . وصارت ، من بعد ، الى المملوك بغا احد قواد الاتراك المسيطرين . ولما اعتقها احتجزت نفسها في بغداد عن لقاء الناس حتى ماتت .

على ان العصر العباسي الاول حفل بكثيرات غير هؤلاء، ولكنا لانحاول ان نحيط بهن جميعاً ، اما ما تجدر الأشارة اليه فهو ان شهيرات جواري ذلك العصر غلب ذكرهن على الالسنة وشاع صيتهن اوفر من معاصريهم مشاهير ائمة الفن والغناء . وان البصرة كانت في عهد العباسيين كالمدينة في عهد أمويي الشام والأندلس اشهر المدن في تهذيب الجواري وتخريجهن .

والذي يلفت النظر في تراجم وهؤلاء القيان شيوع الحب عندهن والغرام . وهو ليس غريباً بالنسبة لهن وقد أعددن اعداداً خاصاً لزينة القصور ، والعبث فيها ، وانما الذي يصح ان يكون غريباً تساهل الناس في هذا الشيوع . على ان هذا التساهل يدل على تبدل المقاييس عصرئذ في أمر العفاف . ولا بدع ، فهل تبقى للصيانة قيمة بين الذين انغمسوا بالملذات حتى اعلى هاماتهم ؟ ولكن الذي

لا ريب فيه ان اهل ذلك الزمان كانوا لا يغفرون للحرائر بمقـــدار ما كانوا يتسامحون مع الجواري، ناهيك بأن كثيرين منهم كانوا لا يزالون على سنة اجدادهم من الحرص الشديد على الاعراض .



الفصل السابع

المرأة في التمدن العربي بالشرق

العصر العربي المخضرم : عصر العباسيين الثاني والفاطميين

المقصود بهذا العصر الحقبة التي صارت فيها السلطة ببغداد وغيرها الى امراء الأجناد وسلاطين الأعاجم . اما الخلفاء فكانوا كالمحجور عليهم يكاد نفوذهم لا لا يمتد الى ما وراء اسوار قصورهم. بل كان بعضهم حتى في قصورهم اتباعاً لقوادهم الاعاجم على ما وصفهم به الشاعر حيث قال :

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببغا

ونريد به ايضاً عهد الفاطميين بمصر الذين جاؤها يريدون الخلافة لأنفسهم بوسيلة اتصالهم بالنبي والاقتفاء به، وبترويجهم لانفسهم بالارجاف ببني العباس ، واذاعة السوء عنهم. ثم انقلبوا الى تقليدهم في زينة الحياة ، بعد ان استتب لهم

الاستقرار وتقليدهم ايضاً بالاعتماد على البربر والترك اولئك الذين استبدوا بالسلطة، ثم استأثروا بالحكم .

وقد كان لهذا العهد تأثير عظيم على المرأة ، ولا سيما على طبقة الجواري ، لأن الفرع يتبع الاصل . حقاً ان بعض خلفاء ذلك العهد من العباسيين لم يغفلوا عن تخصيص الاساتذة والمعلمين لابنائهم ، وان افراداً منهم ، كالراضي والمرتضي، ادركوا نصيباً وافراً من الثقافة حتى ان ابن خلدون وصف المرتضى بقوله : « كان شاعراً ماهراً فصيحاً مجيداً مخالطاً للعلماء والادباء . وهو صاحب التشبيهات التي ابدع فيها ، ولم يتقدمه من شق غباره . » ولكن ظروف الزمان حولت في الجملة انظار اولئك الخلفاء غن اولادهم ، وعن الاساتذة الذين اعدوهم لهم فجرفهم تيار الزمان، والقاهم في الهاوية الأخلاقية التي سقط اباؤهم فيها .

وكذا الجواري فان عددهن وقتئذ في القصور وان لم ينقص الا ان نوعهن قد تبدل ، وفقدت هذه الطبقة ميزتها الادبية والثقافية اذ لم يعد الخلفاء على الاكثر يقدرون فيهن الا الجمال ، والرقص، والغناء، والموسيقى ، وعلى شاكلتهم كان الامراء اجنادهم وحاشيتهم . بيد ان هذه المرحلة من الحياة وان كان اكثرها شائكاً بالنسبة للعرب الا انها كانت زاهرة بالنسبة لمدنيتهم التي كانت تنضج بقوة الاستمرار ، وبرعاية بعض ملوك الاعاجم وذلك ما عدا الشعر فقد خبا نجمه منذ ان غربت شمس العروبة .

انهيار العباسين سياسياً وانهيار الاخلاق

منذ تواطأ المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ) مع القائد التركي بغا على ابيه المتوكل وقتله استبد الاتراك بالحكم وصار منصب الخلافة العوبة بين ايديهم . فهم ان شاؤوا ابقوا الخليفة ، وان شاؤوا خلعوه ، او قتلوه . واستأثر بعضهم في الامصار ، وكان اولهم احمد بن طولون الذي استقل ببلاد مصر في خلافة

المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ).

اما الخلفاء، وقد صاروا حبيسي القصور، فقد سقطوا الى الاذقان ، الا نادراً منهم ، في اللهو والملذات . ولما ولي المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠) أستسلم للنساء والخدم فخلعه الترك ، مرتين وأعادوه ، فساءت احوال الدولة . ثم ازدادت سوأ على سوء في عهد الطائع (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) من جراء الصراع بين الترك والديلم على السلطة في بغداد؛حتى اذا صارت الخلافة للمستظهر (٤٨٧-٥١٢هـ) بدأت الحروب الصليبية .وجاءت في اعقابها حملات المغول التي قضت على خلافة العباسيين في العراق . وقد انصرف الخلفاء خلال ذلك عن الثقافة ورعايتها ، ولم يعد عندهم للعلم والادب وزن او اعتبار . وشتان ما بين اولئك الذين قضوا اعمارهم بين الجواري والسراري ، وبين المأمون الذي قضى شبابه بين الاحمر النحوي، والكسائي، واليزيدي وسيبويه ، وغيرهم من الفلاسفة والعلماء . اما وان العالم يواجه في مستقبله حصاد ماغرس في ماضيه فان العرب لم يحصدوا مما غرسه وبذره العباسيون المتأخرون الا الحنظل والعلقم . وبالاضافة الى ضياع الملك خسروا شيئاً كثيراً من اخلاقهم القومية وثقافتهم . وفي الحادثة التي رواها صافي مولى المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) الذي كان من احسن هؤلاء الخلفاء سياسة ، ومن اكثرهم مهابة ، دليل على خروج الأمر من ايديهم، وعلى اليأس الذي استحوذ عليهم : قال : « مشيت يوما بين يدي المعتضد ، وهو يريد دار الحرم . فلما بلغ دار المقتدر (المشار اليه آنفاً بأنه استسلم للنساء والخدم) وقف وتسمع وتطلع من خلال الستر . فاذا هو بالمقتدر ، وله اذ داك خمس سنين او نحوها ، وهو جالس وحوله قدر عشر وصائف من اترابه في قدر سنه ، وبين يديه طبق فضة، وفيه عنقود عنب، في وقت فيه العنب عزيز جداً، يأكل عنبة واحدة، ثم يطعم الجماعة عنبة عنبة على الدور حتى فني العنقود . والمعتضد يتمزق غيظاً . ثم رجع ولم يدخل الدار . ورأيته مهموماً . فقلت يا مولاي « ما سبب ما فعلت ؟ » فقال « يا صافي والله لولا العار والنار لقتلت هذا الغلام اليوم ؛ فان في قتله صلاحاً للامة » . الى ان قال : «وهو صبي وله من الطبع والسخاء هذا

الذي قد رأيته . والشيخ على مثله في طباع الصبيان غـالب ، فتحتوي عليه النساء لقرب عهده بهن ، فيقسم ما جمعته من الاموال كما قسم العنب ، ويبدد ارتفاع الدنيا ، فتضيع الثغور ، وتعظم الامور ، وتخرج الخوارج ، وتحـدث الاسباب التي يكون فيها زوال الملك من بني العباس . » وعلق صافي على ذلك بقوله : « وولي المقتدر ، فكانت الصورة كما قـال مولاي المعتضد بعينها . فوالله لقد وقفت يوماً على رأس المقتدر ، وهو في مجلس لهو ، فدعـا بالأموال فأخرجت اليه ، ووضعت البدر بين يديه فجعل يفرقها على الجواري والنساء ، ويلعب بها ، ويمحقهـا ويهديها ، فذكرت قول مولاي المعتضد . » وروى الذهبي ان المقتدر اعطى جارية له الدرة اليتيمة ، وكان وزنها ثلاثة مثـاقيل وما كانت تُقوّم ! »

وهنا مجال للتساؤل عما حمل المعتضد وغيره من الخلفاء الصالحين على العزوف عن تقويم اعوجاج اولادهم وتعليمهم كما كان يتعلم اجدادهم .وهم الذين سيخلفونهم على الملك ، وعليهم يتوقف مصير الامة ؟

فهل كان القلق ، الذي كان يرافق تلك المرحلة ، لا يفسح المجـال لمراقبة اولادهم واساتذتهم . والمراقبة وحسن التوجيه عناصر هامة في التربية ،وهما اذا لم يتوفرا جرت السفينة من بعد على غير هوى ربانها ؟

ام هل كان السبب يعود الى انصراف معظم الخلفاء الى اللهو ؛ والى ان الاولاد كانوا يتشبهون بابائهم ؟

ام يعود ذلك الى حذر الآباء من الأبناء هذا الحذر الذي احاق بالاسرة العباسية مذ تصدى المنتصر لقتل ابيه بالاتفـاق مع الاتراك ، والى شيوع هذه البدعة من بعد مما حمل الخلفـاء على الرضا بانصراف اولادهم عن السياسة الى معاشرة النساء ،كما شاهدنا الأمثلة على ذلك في العهد المتأخر من سلطنة آل عثمان؟

والجواب على ذلك هو : ان الاسباب كلها كانت تتضافر ، في اكثر الاحيان

فتجعل الخليفة يمضي في سبيله قائلاً : « بعدي الطوفان » . واذا تصدى احدهم للاصلاح كان مصيره مصير عمر بن عبد العزيز في الدولة الاموية : فالمستظهر بالله احمد كان ديّناً خيّراً ، وكانت الخلافة في ايامه باهرة وافرة الحرمة (على ما وصف الحافظ الذهبي ج ٣ - ٣١٦) وقد امر بنفي الحواظي والمغنيات من بغداد ، ولكنه لم يلبث ان لاقى حتفه ، وقيل ان جارية له سممته .

الاعاجم يحتضنون التمدن العربي ايام نضوجه

كانت آمال العرب أثر انحلال امر العباسيين واستئثار الاعاجم بالسلطان عالقة بالخلافة الفاطمية (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ) التي انتقلت من المهدية في تونس الى مصر . وقد بايعها معظم العالم العربي حتى اهل الكوفة ، والموصل . وكادت تستولي على بغداد وسائر العراق لولا ان تصدى لها السلجوقيون وردوها . غير ان الآمال المعقودة على الفاطميين لم تلبث الا قليلا حتى تبخرت في الفضاء ذلك بانهم اتبعوا سنة العباسيين في استكثار المماليك ، والاعتماد عليهم ، حتى اذا استأثر هؤلاء بشؤون الدولة ازاحوهم عن العرش ، وتربعوا فيه ابتداء من الدولة الايوبية .

وفي غضون حكم الفاطميين نشأت دولة عربية اخرى في سوريا وما حولها ، وهي دولة آل حمدان (٣١٧ - ٣٩٤ هـ .) كانوا عمالا للخلفاء ببغداد على بلاد الموصل ، ولما رأوا الاعاجم يستبدون في الامصار ، ويعلنون استقلالهم ، اشرأبت نفوسهم الى الاستقلال فاستأثروا بحكم ما هو في نطاق ولايتهم ، ثم بسطوا سلطانهم على حلب والجزيرة واتخذوا حلب عاصمة لدولتهم .

وشاء سيف الدولة ان يحاكي سائر ملوك عصره من المسلمين في تزيين بلاطه بأهل العلم والادب ، فمضى في هذا السبيل شوطاً بعيداً مما اوحى للثعالبي ان

يقول : « لم يجتمع بباب احد الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . » وكان على رأسهم المتنبي ، وابو العباس النـامي ، وابو بكر الصنوبري ، فضلا عن ابن عمه ابي الفراس الحمداني .

وهذه الرعاية من قبل سيف الدولة لأهل العلم والادب حملت غير العرب من العلماء والادباء على المجيء الى بلاطـه . وكان اشهرهم ابا الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الأغاني ، وخالويه العالم اللغوي ، وأبا علي الفارسي النحوي . هذا فضلًا عن الفارابي الفيلسوف المعروف بالمعـلم الثاني على اعتبار ان ارسطو هو المعلم الاول . وصحب الفارابي سيف الدولة لفتح دمشق ، ومات فيها سنة ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م . وكان ابو العلاء المعري شاعر المعرة الحكيم المتوفي سنة ٤٤٩ هـ يعاصر هذه الدولة ، ولكن حبه للعزلة حمله على ان لا يكون من اتباعها .

وكانت هذه الدولة تتاخم البيزنطيين وتقف في وجههم درعاً منيعاً للبـلاد الاسلامية ، ولكنها مع ذلك لم تلق مؤازرتهم ، بـل واصلها المتغلبون من الأعاجم على بغداد والقاهرة بالقتال والمؤامرات حتى انقرضت على يد لؤلؤ غلام سيف الدولة الذي غلب على ابي الفضائل آخر الحمدانية .

ومن هنـا تلاشت امال العرب في استرداد الاستقلال ، وظل العباسيون يحكمون روحياً باسم الخلافة تاركين للأعاجم ، في بغداد وغيرهـا ، ممارسة السلطة الحقيقية دون منازع . واما الحضارة العربية فانها لم تذبل في غضون انتقال السلطان من حوزة العرب الى حوزة الأعاجم . ذلك بأن الاسلام كان قد أتى بمـا لم يأتِ به غيره في تعريب الامصار التي دخلت في حوزته حتى اذا أتيح لهذه الامصار استرداد استقلالها ظلت تعتبر اللغة العربية لغـة السياسة والعلم ، وترعى الحضارة العربية على اعتبار انها حضارتها .

زد على ذلك ان ملوك الاعاجم وسلاطينهم ، سواء أكانوا قد أقاموا دولهم في بلاد

اعجمية ام عربية ، ظلوا ينهجون نهج الخلفاء في تعزيز الثقافة وتكريم اهلها . فكان من عواقب ذلك ان اصابت الحضارة العربية نضوجها في ايامهم في الشرق وفي الغرب على السواء ، وقد برز في تلك العصور اشهر علماء وأدباء الاسلام .

وكان للفرس سهمان في خدمة الحضارة العربية : سهم في بناء الدولة ابان الحكم العربي، وسهم في بناء الحضارة نفسها سواء أكان ذلك في غضون سلطان العرب ، ام في صدر ايام ما صار الحكم للأعاجم .

مساهمة الفرس في بناء الدولة منذ الفتح العربي .

حقاً ان جهوداً مختلفة تضافرت على بناء الحضارة الاسلامية ، وفي مقدمتهاجهود الفرس والهنود والسريان والسوريين والترك ، فضلاً عن العرب . ولكن الفرس كانوا ، في الواقع ، اركان هذا البناء ، وكانوا ، الى ذلك ، بمثابة البناة الاولين للدولة مذ فتح العرب الامصار . فالعرب ما ان استولوا على البلاد المجاورة لهم ، وذلك ابتداء من عهد الخلفاء الراشدين ، حتى وجدوا انفسهم امام تبعات دولية لا عهد لهم بها من قبل . ومذ احتلوا مدينة المدائن عاصمة الساسانيين على ضفاف الفرات خفوا لاملاء هذا الفراغ بالاستعانة ببعض ساستها لتنظيم الدولة تنظيماً يتفق مع بسطة الملك . وعلى رواية الفخري فان عمر بن الخطاب كان اول من اتخذ له مستشاراً من الفرس عهد اليه بتنظيم شؤن الاراضي وغنائم الحرب وسواهما . وان هذا المستشار انشأ الديوان ، على ما كان في بلاده ، وهو نواة التنظيم المالي الذي ظل مرعياً طوال قرون عده .

وعلى رغم ان الامويين كانوا ، في تعصبهم للعروبة ، يحاولون ابعاد الاجانب عن المناصب الكبرى في الدولة فما وسعهم الا الاستعانة ببعض رجال الفرس لتنظيم الشؤن الادارية والاقتصادية على الاسس التي كان وضعهاخسرو الاول المعروف بالعادل . وكما ان النقد اتخذ الشكل الفارسي منذ ذلك فقد راجت

الاصطلاحات الفارسية في المعـــاملات الحكومية والتجارية . فالصكوك جمع صك ، وهي كلمـــة فارسية ، استعملت في كتابـــة الحكام للناس بارزاقهم واعطياتهم ، وكذلك السفاتج جمع سفتجة ، وهي كلمة فارسية ايضاً معناهـا التحويل المالي تداولت بين التجار وسواهم .

وكان التفاعل الشعبي بين العرب والفرس قد بدأ منذ الفتح وذلـــك بهجرة قبائل عربية متعددة الى خوزستان وجرجـان وخراسان . ثم ازداد الاختلاط بين الشعبين اتساعاً في عهد الامويين فتضاعف هذا التفاعل . ومثلما شرع الفرس يتعربون فان العرب، ولاسيما الذين اختاروا فارس مسكناً لهم ،اخذوا يتلقحون بالعادات الفارسية وتقاليدها .

وكان امتداد الفتوحات في العصر الأموي مصدراً لوفرة الاموال في بلادهم ، وحافزاً لهم ولشعبهم للعناية بالعمران ، وللتنعم بملاذ الحياة ، فاستعانوا ايضاً بمعماري الفرس ، فيمن استعانـــوا ، ومهندسيهم ، واستدعوا اليهم مشاهير مغنيهم وفناناتهم . من ذلك ان عبدالله بن الزبير ، الذي أبى ان يبايع يزيد بن معاوية وأعلن خلافته بمكة، لما اراد تجديد بناء الكعبة (٦٤ هـ) استقدم اليـه بعض البنائين من فارس. وكانوا ينشدون الاغاني في غضون البناء حسب عادتهم فراقت هذه الاغاني لاهل مكة ، وراحوا يرددونها ، ثم لما اقبل السراة عـــلى التشبه بالفرس في عقد مجالس الطرب استقدموا الى الحجاز المغنين والفنانـــات اسوة بالشام وغيرها ، حتى اصبح القطر الحجازي ، ولا سيما المدينة ، مدرسة من أهم مدارس تخريج اهل الفن والطرب .

ثم لما قامت الخلافة العباسية على انقاض الامويين، وذلك بمؤازرة الفرس ، وازداد الاختلاط في عهدها بين هؤلاء وبين العرب ، اصطبغت دولتهم بصبغة فارسية ، ولا سيما في عهد البرامكة الذين مارسوا الوزارة من سنة ١٣٦ هـ الى سنة ١٨٦ هـ وكانوا وزراء كالملوك . وحينئذ لم يقتصر تشبه الخلفاء بالأكاسرة في

تشييد القصور والترفع عن الشعب ، بل ملأوا تلك القصور بالجواري والفنانات وأقبلوا على عقد مجالس الطرب فيها بين الغواني والشعراء والموسيقين ، وبين الكاس والطاس . وفي ذلك الحين جاء الى بغداد بيسيار ديرام شيخ موسيقيي الفرس ، ورفع مستوى هذا الفن حتى ازدهر اسوة بازدهار سائر الفنون الجميلة . والى ذلك فقد راجت الالعاب الرياضية الفارسية وعلى رأسها اللعبة المعروفة الآن بالبولو ، كم راجت الالعاب الاخرى كالشطرنج والنرد ، هذا فضلاً عما أصاب البلاد العربية من التطور الاخلاقي ، وتبدل المقاييس والقيم الاجتماعية .

مساهمة الفرس في بناء الحضارة العربية

منح العباسيون الامصار الفارسية شيئاً من الاستقلال المركزي ، في عهد البرامكة [1] ، فكان هذا نواة لاستقلالهم التام من بعد ؛ وكان ايضاً مصدراً لظهور نهضة ثقافية عربية في تلك الامصار ذات لون يختلف بعض الاختلاف عن نهضة بغداد، فتعددت مراكز الثقافة بعد ان كانت محصورة في عاصمة العباسيين والعراق .

وكانت الدولة الطاهرية ، التي تنسب الى طاهر عامل المأمون على خراسان ، أولى الدول الفارسية التي اعلنت استقلالها عن بغداد (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) . وقد قلدت العباسيين في رعاية الحضارة العربية منذ قيامها حتى اذا صار الحكم لطاهر ابن عبد الله رابع ملوكها حفلت عاصمته نيسابور بالعلماء والادباء . ولاسيما علماء

---

(١) كان البرامكة من رجال الدين في معبد نوبهار البوذي في فارس ، واقبلوا على العراق فيمن اقبل من الفرس في اعقاب قيام الدولة العباسية ، واستوزر خالد بن برمك للخليفة السفاح وتوفي سنة ١٦٥ هـ . وكان متهماً بالمجوسية رغم اسلامه ، كما كان اولاده وخلفاؤه على الوزارة في بغداد متهمين بتعصبهم للفرس رغم تظاهرهم بالعروبة .

الفلك . ولما قامت في عهدها الدولة الصفارية في فارس (٢٥٤ هـ - ٢٩٠هـ) حذت حذوها في تنشيط هؤلاء ، وفي العناية بالعلم والأدب .

وفي ذلك الحين قامت الدولة السامانية الفارسية في بخارى (٢٦١ هـ - ٣٨٩ هـ) فبذتهما في العناية بالثقافة . واصبحت هذه المدينة مجمع العلماء والادباء وعلى رأسهم ابن سينا ، والجيهاني ، والبلعمي . ونافستها في ذلك سمرقند ولا سيما في علمي الحديث والفقه . واشتهر فيهما محمد بن حيان التميمي ، وابو الليث نصر بن محمد السمرقندي . وكان الرازي يجد في رحاب ملوك هذه الدولة البيئة الخصبة لازدهار المواهب . والرعاية له .

ثم لما تسنى للدولة البويهية المعاصرة (٣٢٠ - ٤٧٧ هـ)ان تزيح الترك عن منصب امارة الامراء في بغداد ، وان تستأثر بهذا المنصب حاول ملوكها ان يحيوا عهد المأمون . ونخص بالذكر منهم عضد الدولة وشرف الدولة . وكانا من العلماء فأصبحت عاصمتهم في فارس تنافس بغداد في الثقافة . وقد تسنى لعلماء الفلك في عهدهما حل مسائل قصرت عنها مدرسة الاسكندرية . وقد ازدهرت في ايامهم اصبهان والري وشيراز ، واشتهر فيها كثير من المحدثين والفقهاء كأبي بشر محمد الدولابي وابن حيان الاصبهاني ، كما اشتهر فيها في الطب علي بن عباس الفارسي ، وفي الشعر مهيار ، وفي النثر ابن العميد واضع الشعر المنثور . وقد تشبه هذا بالبرامكة وفتح بابه للعلماء والادباء ؛ هذا فضلاً عن الصاحب ابن عباد كبير الادباء . وحسب هذه الدولة فخراً ان يعيش في كنفها الفيلسوفان العظيمان ابو بكر الرازي ، وابن سينا .

محاولة الترك المساهمة في بناء الحضارة العربية

كان ابن طولون عاملاً للعباسيين على مصر فاستقل فيها واتخذ الفسطاط عاصمة للدولة (٢٥٤ - ٣٢٣ هـ). ثم خلف آل طولون دولة اخرى تركية

تبتدىء بمحمد الاخشيد، وتنتهي باستيلاء الفاطميين على مصر ٣٥٨ هـ . ولا يذكر لهاتين الدولتين عناية كثيرة بالثقافة مثل عنايتها بالعمران .

واما عناية الترك بالعلم والأدب فقد برزت على اتمها في عهد السلطنة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٧٨ هـ) ويرجع ذلك الى قيامها على انقاض الدول الفارسية ، ولا سيما السامانية منها . قامت هذه الدولة في الافغان ، ثم لم تلبث الا قليلاً حتى احتلت تركستان وفارس وغزت الهند ، وضمت اليها البنجاب . ولما صار عرشها الى الى محمود الغزنوي (٣٠٠ هـ - ٩٩٩م) وهو اشهر سلاطينها وصاحب الفتوحات، شاء ان يجمع بين بسطة الملك والعمران ؛ فالتف حوله العلماء والادباء . وعلاوة على رجال الدين حفل بلاطه ببعض مشاهير العصر من المثقفين . ومنهم الكاتب ابو الفتح علي بن محمد البستي ، والمؤرخ ابو النصر بن عبد الجبار العتبي ، والفيلسوف البيروني (٣٦٣ هـ - ٤٤٠ هـ) من خريجي بغداد الذي لا يخلو علم لم يؤلف فيه مختاراً في ذلك اللغة العربية على الفارسية .

وكانت البلاد الاسلامية ، في ذلك الحين ، قد أمست مهبطاً للعشائر التركية تزحف اليها موجات موجات من اواسط آسيا وشرقيها وذلك اما للتمتع بخيراتها العظيمة التي انتشرت انباؤها في العالم مكبرة ، واما فراراً من المغول . ولما اتيح لآل سلجوق ان يتربع سلطانهم طغرل بك على عرش نيسابور بخراسان ظل يبسم لهم الحظ حتى ازاح هذا آل بويه عن منصب امارة الامراء في بغداد ، واستأثر دونهم بهذا المنصب (٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م) ثم ازدادوا رفعة في عهد السلطان ملكشاه (٤٦٥ هـ - ٤٨٥ هـ) في اواخر القرن الحادي عشر ودانت له اكثر البلاد الاسلامية في الشرق الاوسط. وكان في عداد التوفيق الذي لازم هذه الاسرة اعتماد السلطان الب ارسلان على نظام الملك الطوسي الذي عني باعمار السلطنة عنايته بتنشيط الثقافة على غرار الخلفاء وملوك الفرس . وقد استعان هذا الوزير الخطير بعلماء العرب والفرس على تحقيق برامجه الاصلاحية :

فانشأ المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٥٩ هـ ومكتبتها . وهما لا تزالان تذكران بالاطراء ما ذكرت الحضارة العربية ، كما انشأ مدارس اخرى مجانية في عهد ملكشاه بن الب ارسلان المشار اليه . وكانت له عناية خاصة بعلم الفلك والتقويم ، فجاءت الروزنامة التي وضعها عمر الخيام بالاضافة الى عبد الرحمن امام التقويم في عصره اوفر دقة ،واقرب للصواب من روزنامة الروم الغريغورية على ما روي المؤرخ الافرنسي سديّو .

ولكن عصري الب ارسلان وملكشاه كانا في عهد السلجوقيين (٤٢٩ هـ — ٧٠٠ هـ) كواحة في صحراء : ذلك لانهم لم يلبثوا ان تنابذوا بعدهما وانقسموا، وتقاتلوا حتى شجعوا العناصر الاجنبية من شرقية وغربية على مهاجمة البلاد الاسلامية ، والقضاء على ثقافتها .

ولقد حاولت الدويلات التركية التي قامت في العهد السلجوقي الاخير وقاسمتهم الحكم كآل بوري اصحاب الشام (٤٩٤ هـ — ٥٤٩ هـ)،وآل زنكي اصحاب الشام والجزيرة (٥٢١ هـ — ٦٤٨ هـ) ، وآل ارتق في ديار بكر وماردين (٤٩٥ هـ — ٧١٢ هـ) حاولت هذه الدويلات ان توقف انهيار التمدن الاسلامي . ولكنها عبثاً كانت تفعل لان مصيره كان قد تقرر ، خصوصاً ابان الحروب الصليبية التي شغلت العالم الاسلامي نحو مايتي عام عن كل شيء آخر . وفي عصر هذه الدويلات التمعت اسماء بعض مشاهير التمدن العربي كالغزالي ، والحريري ، وابن الاثير ، وابن الفارض . ولكن الجهل كان قد استحكم بين الشعب على وجه عام لما احاق به من الكوارث .

حقاً ان صلاح الدين الايوبي احد قادة ال زنكي استطاع اجلاء الصليبيين واستقل بمصر مبايعاً العباسيين ، وجرى مجرى آل زنكي في الحفاظ على استقلال الخلفاء ببغداد . وحقاً ان خلفاء العباسيين في ذلك العهد ما تمتعوا بالاستقلال حتى حاولوا احياء التراث العربي كما تشهد لهم المدرسة المستنصرية التي

نشأها المستنصر في بغداد سنة ٦٣١ هـ = ١٢٣٣ م ولا تزال قائمة ، ولكن الخلاف الذي وقع بين خلفاء صلاح الدين في الدولة الايوبية بمصر (٥٦٤ – ٦٤٨هـ) كان من عواقبه تنشيط الصليبيين لاعادة الكرة على غزو المسلمين ، وتشجيع المغول ، بعد موت جنكيز ، وقضائهم على خوارزم : وشجعهم على التقدم شطر الشرق الأوسط . ولما دخلوا بغداد (٦٥٦=١٢٥٧م) قضوا على كل امل في صدد استعادة الحياه للتمدن العربي في الشرق ، وذلك رغم ان دولتي المماليك في مصر حاولتا الظهور بمظهر العاملين لاحيائه .

وقد عزا جورجي زيدان رعاية سلاطين الاعاجم وملوكهم للثقافة الى ضرب من ضروب السياسة حيث قال : « قد رأيت فيما تقدم منزلة العلماء المسلمين عند الخلفاء والامراء لارتباط السياسة بالدين عندهم ؛ ولان العلماء هم حملة الدين والداعون اليه . فكان العلماء ، في اوائل الاسلام ، يشاركون الخلفاء في النفوذ على العامة ، ويساعدونهم فيه . فلما ضعف شأن الخلفاء وافضت الحكومة الى السلاطين من الفرس والاتراك والديلم والاكراد وغيرهم اصبح هؤلاء في حاجة الى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم بما يقوم مقام نفوذ الخلفاء ، الديني . واقرب السبل المؤدية الى ذلك الاحسان الى الفقراء ، واكرام العلماء والفقهاء ، فاصبح السلطان او الأمير اذا تولى بلدا ، وكان حكيماً عاقلاً فاول ما يسعى فيه تقريب العلماء والفقهاء ، واسترضاء العامة بانشاء الجوامع ، والربط ، والمارستانات ، ونحوها ، وتعيين الرواتب والارزاق للعلماء ، والفقراء وغيرهم . فيكسبون بذلك ثقة العامة ، ورضي الخاصة ، غير ما يرجونه من الثواب . كذلك فعل احمد بن طولون بمصر ، وعضد الدولة (ابن بويه) في بغداد ، ونور الدين (زنكي) في الشام ، وصلاح الدين (الايوبي) بمصر » .

وقال : « وكان من اسباب انشاء المدارس ايضاً تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان والامير . فقد كانت القاهرة شيعية منذ بنيت . وكانت الدروس التي تلقى في الجامع الازهر على مذهب الشيعة . فلما تولاها صلاح الدين

الايوبي ابطل هذا المذهب ، واحيا المذهب المالكي والشافعي ، وانشأ المدارس لتعليم هذين المذهبين . فبنى المدرسة الناصرية ٥٦٦ ﻫ للمذهب الشافعي ، وهي اول مدرسة حدثت بمصر ، واقتدى به من جاء بعده من الاتراك والاكراد . »

استقلال الفرس في الناحية الثقافية عن العرب .

استعرضنا من قبل ما كان للفرس من الأيادي البيضاء على الحضارة العربية بعد ان دالت دولة العرب في الشرق . ونرى من المفيد، قبل الانتقال الى موضوع آخر، الاشارة الى ان الفرس لم يستمروا على التأليف باللغة العربية الا الى اجل محدود . فان هذه اللغة كانت لغتهم الثقافية والسياسية حينما تمتعوا بالاستقلال عن بغداد دار الخلافة العباسية ، فكان من نتيجة ذلك ان الحضارة العربية ظلت في عهدهم تتكامل وتنضج كما لو ان شيئاً من الانفصال لم يحدث بين العرب والفرس . غير ان فئة من الشعب الفارسي بدأت في عهد دولة السامانيين (٨٧٤ – ٩٩٩ م) تتحسس بالمشاعر القومية ، وتتلمس فكرة احياء الحضارة الفارسية . ثم لما استولت السلطنة الغزنوية ، فيما استولت ، على بلاد الفرس (٩٦٢ – ١١٨٦ م) ، وهي دولة تركية عاصمتها غزنة بافغانستان ، شعر الفرس بانهم أمسوا محكومين من عنصر آخر فكان لهذا الشعور ردة فعل تجلت باقبالهم على بعث ادبهم القومي التماساً للاستقلال في الناحية الاجتماعية ، وذلك بعد ان فاتهم الاستقلال في الناحية السياسية . وعلى اثر ذلك اشتهر بينهم كثير من الأدباء والعلماء دوّنوا آثارهم بلغتهم دون العربية . وكان اشهرهم الشاعر الفردوسي صاحب الشاهنامة التي ترجمت لأكثر اللغات العالمية . غير ان شعرهم ظل حتى الآن يقاس ويوزن بمقاييس واوزان اللغة العربية ، واستمرت كلمات اللغة العربية تشكل جزءاً كبيراً من لغتهم . شاهدت ذلك ابان زيارتي لايران في خريف ١٩٦١ ، بل رأيت انهم كثيراً ما يستعملون عبارات كاملة باللغة العربية .

وكان عهد الغزنويين بمثابة نقطة الانطلاق للفرس لأحياء لغتهم وأدبهم . وما ان جاء عهد السلجوقيين الترك ايضاً ، الذين حكموا فارس مدة طويلة (١٠٣٧ – ١٣٠٠ م) ، حتى تألق العصر الذهبي للأدب الفارسي ، وللثقافة الفارسية ، وظهر كثير من الادبا ، والعلماء كعمر الخيام ، وجلال الدين رومي ، ونظامي كنجوي (اذربيجان) . ثم حافظ وسعدي[١] في شيراز . وبذلك انفصلت عرى الوحدة بين العرب والفرس سياسياً وثقافياً .

واكثر من ذلك فان رواد البعث الفارسي لم يكتفوا بالاعتماد على لغتهم دون العربية في سبيل خلق هذا البعث ، وانما تعرض بعضهم للتشهير بالعرب ، وعلى رأسهم الفردوسي ، وكانوا يتوسلون بذلك الى ترويض معاصريهم للرضاء بهذا الانفصال بين الشعبين على غرار دعاة كل انفصال ؛ او كأنهم كانوا ، وقد ذكروا حضارتهم الساسانية ، وذكروا العرب الذين قضوا عليها خلال نحو اربعماية عام ، يتحفزون للانتقام لها عندما تحفزوا لاحيائها . وللفردوسي بيتان من الشعر في هجاء العرب نظمهما بلسان احد الأكاسرة هاك ترجمتها :

« بلغ الأمر بالعرب من شرب حليب النوق وأكل الضب انهم نهدوا لطلب تاج كسرى . تف تفٍ عليك ايها الفلك الدوار . تفٍ » .

وهذان البيتان طالما ترددا على الألسنة من بعد بين الفرس الى هذا الزمان . (العروبة والشعوبيات الحديثة ، للمؤلف ص ٢٠٣) .

والجدير بالذكر ان العلماء والفلاسفة في عهد الغزنويين والسلجوقيين بفارس ، وفي عهد المغول بعدهم ، لم يتأثروا بما تأثر به الأدباء من النعرة القومية ، بل ظلوا يعتمدون اللغة العربية في تآليفهم كما فعل البيروني وابن سينا والرازي ، وبعدهم صدر الدين الشيرازي فيلسوف الفرس في منتصف القرن الحادي عشر للميلاد . فقد ألف هذا الفيلسوف اربعين كتاباً باللغة العربية بينما لم يحرر بالفارسية الا اطروحة واحدة .

---

(١) سعدي الشيرازي له شعر ايضاً باللغة العربية ، نشرت منه اخيرا مجلة « الاخاء » التي تصدر بالعربية في طهران ، قصيدة غزلية .

النهضة النسائية الثقافية في عصر العباسيين الثاني
- عصر الأعاجم -

شهد المسلمون في ذلك العصر يقظة ثقافية كانت بمثابة الاصداء للنهضة العربية السالفة . وكان لبعض النساء مساهمة في هذه اليقظة ، فشاركن في العلوم الدينية ، واللسانية ، والأدبية ، وفي التأليف . وتصدرن التدريس حتى ان فريقاً منهن منحن الاجازات العلمية لعلماء أماثل من امثال ابن خلكان وابن البلوي ، واحمد الصبان ، ومحي الدين الفاروقي .

ونتكلم هنا عن هذا النشاط النسائي في ناحيتيه العلمية والأدبية كل منهما على حدة مع الاشارة الى أن علماء الأعاجم وان تجاوز عددهم ، على ما قيل ، عدد علماء العرب في خدمة المدنية العربية ، الا ان عدد العالمات العربيات ربما كان يزيد عن عدد العالمات الأعجميات في هذه الناحية .

● **في الناحية العلمية .**

● كانت اللغة العربية لا تزال وقتئذ لغة الناس والثقافة في البلاد الاسلامية التي دخلت في حوزة الامويين والعباسيين ، ثم استقلت . وكان علماء وادباء الفرس والترك والكرد وغيرهم اذا ألّفوا الكتب ، او درّسوا ، او تناظروا فانما يعتمدون على لغة القرآن ، حتى كأن العالم الاسلامي ، الذي تجزأ الى دول عنصرية عديدة ، كان لا يزال وحدة في الدين واللغة ، وكان عربي الوجه واللسان . والى ذلك يلاحظ ان علماء الاسلام ، في غضون التمدن العربي ، كانوا كثيري الاختلاط بعضهم ببعض اسوة بالتجار . وكانوا يشدون الرحال من قطر الى قطر في طلب العلم ونشره حتى كأن البلاد الاسلامية وان تجزأت لا تزال تحافظ على وحدتها العلمية . وعلى هذا الاساس فانا اذا ذكرنا علماء المسلمين

وادباءهم في ذلك الزمان نجدهم سواء في العروبة وان تعددت عناصرهم . فقد كان شيخ اصبهان وعالمها ابو المنذر النعمان بن عبد السلام التميمي المتوفي سنة ١٨٣ ﻫ عربياً من ثعلبة ، وكان قاضي شيراز ومحدثها سعد بن الصلت المتوفي سنة ١٩٦ ﻫ عربياً ايضاً من الكوفة بينما كان شيخ الديار المصرية وعالمها ابو الحارث الليث ابن سعد الفهمي فارسياً من اصبهان ، وقد توفي سنة ١٧٥ ﻫ .

وإنا وان كنا لا نستطيع الاحاطة هنا بجميع عالمات العهد العباسي الثاني وما عاصره من ملوك الأعاجم ، فلا مندوحة لنا من ذكر بعض شهيراتهن من عربيات واعجميات .

● امة الواحد ابنة القاضي ابي عبدالله الحسين بن اسماعيل المحاملي المتوفاة سنة ٣٧٧ ﻫ ، وكانت قارئة فقيهة شاعرة ، وتفقي على مذهب الشافعي .

● امة السلام بنت القاضي احمد بن كامل بن شجرة البغدادية ، وكانت ديّنة فاضلة، وروت عن محمد بن اسماعيل الباصلاني وغيره، وتوفيت سنة ٣٩٠ ﻫ.

● كريمة بنت محمد بن حاتم : مروزية الاصل جاورت بمكة سنة ٤٣٦ ﻫ وكانت عالمة مجددة اشتهرت بالنباهة ، وسعة الاطلاع ، وادركت في الحديث ما لم يدركه سواها من النساء . وكان العلماء يرحلون اليها ، والطلاب يقبلون على درسها . وتوفيت سنة ٤٦٦ ﻫ وعمرها نحو ماية سنة ولم تتزوج . وقد روت الحديث عن الكشميهني والسرخسي .

● خديجة بنت محمد بن علي الشاهجانية العالمة الواعظة في بغداد ، ماتت سنة ٤٦٠ ﻫ .

● عائشة بنت الحسن الوركانية الأصبهانية من علماء عصرها ، وروت عن عن عبدالله بن مندة ، وتوفيت سنة ٤٦٠ ﻫ .

● فاطمة بنت الحسن بن علي الأقرع البغدادية المعروفة بأم الفضل . كانت كاتبة مشهورة الخط ، وعالمة روت عن ابي عمر بن مهدي الفاسي ، وتوفيت سنة ٤٨٠ هـ .

● فاطمة بنت الشيخ ابي علي الحسن بن علي الدقاق ، زوجة القشيري إمام الحرمين المتوفاة سنة ٤٨٠ هـ . وكانت كبيرة القدر عالية الاسناد ، روت عن الاسفراييني والعلوي والحاكم .

● تقية بنت ابي الفرج الارهنازي (٥٠٥ - ٥٧٩ هـ) ولدت بدمشق ، ونشأت في الاسكندرية . اخذت العلم عن الحافظ السلفي ، ففاقت الرجال فيه. أثنى عليها استاذها في بعض تعاليقه . ومن لطائفها الادبية انها مدحت الملك المظفر صلاح الدين بقصيدة خمرية ، فقال مازحاً: « أتعرف الشيخة هذه الاحوال من صباها ؟ » فبلغها قوله فبادرت الى نظم قصيدة اخرى وصفت فيها الحرب وصفاً رائعاً ، وبعثت بها اليه ، وقالت : « علمي بهذا كعلمي بذاك ! » . (ابن خلكان ج ١ ص ١٧٠) .

وذكر البلوي في كتابه ألف با : « ان عنده جزءاً من شعرها عليه خط بدها أجازته فيه بثغر الاسكندرية سنة ٥٦٢ » . ومن شعرها ، وقد رأت وليدة تعصب رجل استاذها الحافظ السلفي بقطعة من خمارها ، وقد اصاب رجله طارىء :

لو وجدت السبيل جدتُ بنفسي	عوضاً عن خمار تلك الوليدة
كيف لي ان اقبّل اليوم رجلاً	سلكت دهرها الطريق الحميدة ؟

● رقية بنت العفيف بن عبد السلام : كانت في المدينة محدثة عن شيوخ مصر والشام . وفتحت فيها درساً للحديث ، فأصبحت من مشاهير المحدثين في الحجاز . ووصفوها بأنها فريدة زمانها بين النساء . وقيل ان قبرها في محلة

الصالحية بدمشق .

● شهيدة بنت ابي نصر احمد بن ابي الفرج . دينورية الاصل ، بغدادية الدار . اخذت العلم عن كثير من العلماء ، وأجازوها اجازة لم تسبق لغيرها ، واتقنت الخط . وقد اخذ عنهـــا كثيرون : وألفت جملة رسائل في الحديث ، والفقه ، والتوحيد ، وغيرها ، فاشتهر ذكرها وذاع . وتوفيت سنة ٥٧٤ ه .

● فاطمة بنت علاء الدين محمد . سمرقندية الاصل . شاميـــة الدار . من اهل القرن السادس للهجرة . اخذت العلم عن جملة من العلماء ، واشتهرت بالفقه والحديث . وفتحت درساً فأخذ عنها كثيرون . الّفت المؤلفـــات الوافرة في الفقه والحديث . وكان الملك نور الدين زنكي يقدرها ويساعدها ، ويرجع اليها في المسائل الفقهية . واشتهرت ايضاً بالتقوى ، وتوفيت في حلب .

● فاطمة بنت الامام احمد الرفـــاعي نشأت في العراق ، وجرت مجرى ابيها في الزهد والورع ، واشتهرت بالفقه والحديث . وكان لها مجلس تدرس فيه . وممن اخذ عنها احمد الصبان في كتاب الوظائف . ونقل عنها الشيخ محي الدين ابراهيم الفاروقي . وتوفيت ام عبيـدة بالعراق سنة ٦٠٩ ه .

● زينب بنت الشعرى (٥٢٤ – ٦١٥ ه) من نيسابور . ادركت جماعة من اعيان العلماء ، واخذت عنهم رواية واجـازة . ومنهم الزمخشري صاحب الكشاف . ثم صارت استاذة يلتمسون الاجازة منها . وقال ابن خلكان (ج ١ ص ٣٥٢) « ولنا منها اجازة سنة ٦١٠ ه » .

● فاطمة بنت الخشاب ، من اهل القرن السابع للهجرة . كانت محدثة واعية ، وشاعرة معروفة . اجازها في الحديث جملة من العلماء الاماثل ، وروى عنها كثير منهم . راسلها القاضي شهاب الدين بن فضل الله بقصيدة غزليـة مطلعها :

هل ينفع العشاق قرب الدار   والوصل ممتنعاً مع الزوار

فأجابته بقصيدة استهلتها بقولها :

ان كان غرّكم جمال ازار   فالقبح في تلك المحاسن وار

لا تحسبوا اني اماثل شعركم   أنّى تقاس جداول ببحار ؟

وكانت هذه المراسلة بريئة ، والمقصود بها المناظرة الشعرية على ما كان مألوفاً في ذلك الزمان .

وتراجم هؤلاء النساء تشير الى ان شهرتهن كانت تنحصر في اطار العلوم الدينية ، وان تعدتها ففي نطاق الادب . اما العلوم الاخرى فقد بقيت من خصائص الرجال . وفي مقال نشره الاستاذ مصطفى جواد في مجلة « الاخاء » العربية (١/١/١٩٦٢) التي تصدر بطهران نوه بتسع وثلاثين سيدة عشن في القرن السادس للهجرة ، وكن من عالمات ذلك العصر في العلوم الدينية .

● في الناحية الأدبية .

● كان الشعر قد انحط مستواه في العصر العباسي الثاني ، وتحولت مراميه لانصراف الناس الى العلوم الدينية ، والعقلية ، ولأن الهزات السياسية لم تدع لهم فرصة الاستقرار ، والرخاء ؛ كما ان الضغط على الافكار ، في غضون الحروب ، حوّل وجهة الشعر عن مقاصده . والشعر لا يبرز سامياً الا في عهد الاستقرار والحرية والزهو .

وقد تعرض ابن خلدون لهذا الموضوع ، وذكر رواج الشعر وارتفاع قدره في عهد بني امية ، وصدر بني العباس ، وما اصابه من نكسة فيما بعد ، قال : « ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من اجل العجمة وتقصيرها

باللسان وانما تعلموه صناعة ، ثم مدحوا بأشعارهم امراء العجم ، الذين ليس اللسان لسانهم ، طالبين معروفهم فقط ، لا سوى ذلك من الاغراض ، كما فعله حبيب ، والبحتري ، والمتنبي ، وابن هاني ، ومن بعدهم ، وهلم جرّا . فصار غرض الشعر ، في الغالب ، انما هو الكذب ، والاستجداء ، لذهاب المنافع التي كانت فيه الاولين ، كما ذكرناه آنفاً . وأنف منه لذلك اهل الهمم والمراتب من المتأخرين ، وتغير الحال ، واصبح تعاطيه هجنة في الرئاسة ، ومذمة لأهل المناصب الكبيرة » .

ولا ريب في ان نساء ذلك الزمن كن في عداد الزاهدين بالشعر للاسباب التي أوردها ابن خلدون ، فلم ينبغن نبوغ شاعرات العصور السابقة ؛ فضلاً عن ان عدد الشاعرات بينهن كان قليلاً . على ان هذا لا يعني أن العلوم الادبية قد اهملت بتاتاً وقتئذ ؛ وان التاريخ لا يذكر احداً من شاعرات تلك الحقبة ، بل ان كلام ابن اليلوي في كتابه ألف باء يدل على وجود بعضهن : فقد قال في مقدمة ترجمة تقية بنت ابي الفرج ، وفي مناسبة التنويه بشعرها : « ولا ينكر الشعر في هذا الزمان » وهو يريد الشعر النسائي . والى ذلك فان ابن خلكان روى ان صاحب الأغاني جمع ديوانا أسماه « الاماء الشواعر » ومعلوم ان صاحب الأغاني هو من اهل القرن الرابع ، ومن البديهي ان يكون ديوانه شاملا شاعرات عصره وما سبقه . على ان من اشهر شواعر ذلك الزمان كانت فاطمة ابنة الخشاب ، وهي شاعرة عصرها ، وتقية بنت ابي الفرج ، وزينب بنت الشعرى ، اللواتي ذكرناهن في الكلام عن الناحية العلمية . وتضاف اليهن ام الشريف محمد ابن احمد الذي خرج على الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ -- ٢٨٩ هـ) . وقد نصحت له نظماً ونثراً ، ونهته عن الركون لجماعته ، ووصفتهم بقولها من قصيدة :

مثل النعاج خمولاً في بيوتهم   حتى اذا أمنوا ألفيتهم اسدا

ولكن الشعر النسائي كان وقتئذ ، على وجه عام ، نظماً أوفر منه شعراً . واذا كان شعر بعض الرجال كالمتنبي وامثاله سلك سبيل الحكمة والامثال ، فهو بين النساء لم يكن يتسم لا بحكمة ، ولا بموعظة .

الفصل الثامن

المرأة في التمدن العربي بالشرق

الحذر من المرأة والتضييق عليها والتطور في منزلتها

في الكلام عن منزلة المرأة في صدر الاسلام أشرنا الى ما اصاب هذه المنزلة الاجتماعية من الانحطاط تدريجياً مذ اصبحت الخلافة ملكا عضوداً ، واضحى ذلك العهد ميدان صراع بين التقاليد والتعاليم والعادات : صراع بين ما كان منها في الجاهلية ، وبين ما جاء به الاسلام . وصراع آخر بين ما عند العرب منها ، وبين ما اتى به الاعاجم . وكان من نتيجة ذلك ان المسلمين كما حاولوا ، بتأثير قوة الاستمرار ، الرجوع الى سيرتهم الاولى من حيث الحذر من المرأة ، واحتقار مواهبها وجنسها ، والعودة الى الحد من حريتها ، فقد استسلموا بتأثير قوة الاغراء عند المقدرة في التشبه بالفرس والروم من حيث اللهو بها على انها زينة الحياة . على ان هذه الملابسات وان اثمرت في ناحية النظر الى المرأة من وجهة عامة ، فانحطت بنظرهم مكانتها الجنسية ، الا انها فشلت من الوجهة

الحقوقية ، والانسانية التي قررها الاسلام . فظل المسلمون يعتبرونها في الاحكام صنو الرجل وشقيقته ، ويعاملونها احياناً بالمعروف معترفين بحقوقها الاجتماعية، والاقتصادية .

بيد ان مكانة المرأة ظلت تتدهور تباعاً في مراحل مدنيتهم . ذلك بان هذه المدنية وان كانت عربية الوجه واللسان ، فانها كانت وليدة التعاون بين العرب وبين الامم الاخرى التي خضعت لهم من فرس وترك وروم وديلم وسريان ومصريين وهنود وغيرهم . وكانت المرأة عند هذه الامم القديمة ، ولا سيما في حضاراتها المتأخرة ، متعة من متاع الدنيا ، كأنها ، خلقت فيما خلق ، لاشباع ملذات الرجل ولخدمته .

● في العصر الاموي . التضييق على المرأة ، وعلى المشببين بها .

● كان هذا العصر بمثابة جسر بين بداوة هذبها الاسلام ، وبين حضارة امتزجت فيها تعاليم الدين بتقاليد الامم الاخرى المعاصرة ، ولا سيما الفرس والروم . فهو كان عصر الفتوحات العربية الكبرى التي امتدت من غربي اوروبا وشمالي افريقيا الى اواسط آسيا . والفتوحات هذه غمرت بلاد العرب بالاموال والحسان . ومتى توفرت الاموال الى هذا الحد ، والحسان ، واجتمعا على صعيد واحد ، كان ثالثهما الطغيان ، خصوصاً اذا كان الاجتماع حدث فجأة دون مراحل ؛ فهناك الانقلاب الاخلاقي العجيب الذي نشاهد شيئاً منه في العصر الحاضر بعد فوران تنور النفط في جزيرة العرب .

ولما وقعت الواقعة في العصر الأموي ، وفشا الفساد بين الناس ، اشتد الحذر من المرأة ، وشرعوا يضيقون عليها . وكانوا كلما روّج التمدن حياة اللهو والفجور يزدادون رغبة في سجنها ، ولا بدع ، فهم كانوا لا يزالون يحنون الى

سنة آبائهم في الغيرة على النساء ، والحرص على صيانة الاعراض .

والجدير بالذكر هنا ان اعاظم ملوك العرب ، واكابر المصلحين منهم كانوا ابتداء من عهد الخلفاء الراشدين ، أحرص الناس على التحذير من مخالطة النساء ، وعلى التضييق عليهن وعلى المشببين بهن : فقد ذكرنا قول عمر بن الخطاب : « جنبوهن الكتابة ولا تسكنوهن الغرف ، واستعينوا عليهن بلا ، فان نعم تضر في المسألة » ولقد سمع عمر امرأة في المدينة تتغنى بجمال نصر وتقول :

هل من سبيل الى خمر فأشربها   ام من سبيل الى نصر بن حجاج ؟

فنفاه الى البصرة ، ولكنه لم يسيء اليه ، بل اقطعه فيها داراً ومالاً . فكان راضياً ، وابلى بلاء حسناً في موقعة من مواقع الاسلام .

وعلى غرار عمر جرى عبد الملك بن مروان ، والوليد ابنه (٨٦ – ٩٦ هـ) في التضييق على النساء ، والغيرة عليهن ، وحظرا التشبب بهن اسوة باهل الجاهلية . وقد قيل ان الوليد دفن الشاعر وضاح اليمن ، وهو حي ، لتشبيبه بامرأة الخليفة ، ثم باخته . واكثر من ذلك ، فان عبد الملك أنّب عبدالله بن جعفر لرغبته في غناء الجواري ، وقال له : « قبّح الله الغناء ما اوضعه للمروءة ، واحرجه للعرض ، واهدمه للشرف ، وأذهبه للبهاء ؟ » .

وكان رجال الدولة في ذلك الزمان على سنة خلفائهم ، ولمناسبة تاريخية يطول شرحها . قال الحجاج الثقفي للوليد ، وهو الذي كان غير متساهل في امر النساء : « امسك عني تنزّف النساء ؛ فان المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، لا تطلعهن على امرك ، ولا تطمعهن في سرك ، ولا تدخلهن في مشورتك ، ولا تستعملهن باكثر من زينتهن ، ولا تكن للنساء برؤم ، ولا لمجالستهن بلزوم ، فان مجالستهن صغار ولؤم . » وهو قول يفصح عن منزلة المرأة عند كبار القوم في ذلك العصر .

وكذلك كان سليمان بن عبد الملك (٩٦ – ٩٩ هـ) بعد الوليد : قيل أنه سمع مغنياً حسن الصوت فأرسل اليه فعاقبه ، وقال في تبرير عمله : « ان الفرس ليصهل فتستورق له الرمكة ، وان الفحل ليخطر فتضبع له الناقة ، وان التيس لينب فتستحرم له العنز ، وان الرجل ليغني فتشبق اليه المرأة ؛ ويكفي في ذلك قول النبي : « رويداً يا انجشه ، (وهو مغن) لا تكسر القوارير . » . وكذلك كان عامله على مكة خالد القسري اذ بلغه قول احد الشعراء :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف . واما عمر بن العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) فكان ذلك الزاهد الذي استفتح ولايته ببيع اموال سلفه سليمان بن عبد الملك ورباعه وكسوته ، واشفعها بالدخول على زوجه فاطمة بنت عبد الملك وكان لها ثوب منسوج بالذهب ، منظوم بالدر والياقوت ، انفق عليه ابوها مائة الف دينار ، وقال لها : « ان اخترتني فاني آخذ الثوب فأجعله في بيت المال ، وان اخترت الثوب فلست لك بصاحب ! » فقالت : « اعوذ بالله يا امير المؤمنين من فراقك ، لا حاجة لي بالثوب . » فقال عمر : « وانا افعل بك خصلة : اجعل الثوب في آخر بيت المال ، وانفق ما دونه ، فان وصلتُ اليه انفقته في مصالح المسلمين ، وانما هو من اموال المسلمين انفقت فيه . وان بقي الثوب ، ولم احتج اليه فلعل من يأتي بعدي يرده اليك . فقالت افعل يا امير المؤمنين ما بدا لك »

وكان هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ) سمع عن اشعب المضحك في المدينة ، فأمر كاتبه ان يكتب باستقدامه . فلما ختم الكتاب اطرق هشام طويلا ، ثم قال : « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليُحمل اليه مضحك ؟ » واوقف الكتاب متمثلا بقول الشاعر :

اذا انت طاوعت الهوى قادك الهوى الى بعض ما فيه عليك مقال

وعلى هذا المنوال مضى الامويون ، الا نفراً منهم ، في الحفاظ على التعفف ، وما يستلزمه من العزوف عن الامور التي تثير العواطف بين الرجـال والنساء . وعلى هذا المنوال جـدوا في احكام الحجاب ، والحذر من انطلاق المرأة ، فـلا يدخلونها في مشورة ، ولا يعتبرونهـا الا وسيلة للنسل ، ومتعـة للتفسيح عن الأنفس . وكان يحملهم على التضييق عليها انتشار النساء في البلاد نتيجة لكثرة الاموال والسبايا بكثرة الفتوحات ، وما حدث عن هذه الفتوحات من الاختلاط بالأعاجم . على ان الاخلاق العربية ظلت وقتئذ تتأرجح بين مدّ وجزر ، حتى جرفها تيار الأعاجم في عهد العباسيين .

● في العصر العباسي : الحذر من المرأة وامتهان شأنها .

● قامت الخلافة العباسية على سواعد الفرس ، واعتزت بسيوف الترك ، فكان ذلك مما افضى الى اصطباغها بالصبغة الاسلامية اوفر من ذي قبل على ان الاسلام جعل كل بلاده عربيـة الوجـه واللسان ، سواء ما كان منها عربي الأصل ام اعجميا .

وكان اختلاط العرب بالأعاجم على اختلاف عناصرهم ، بالاضافة الى الثروة الزاخرة ، والرخاء الوافر ، افضى الى انقلاب الاخلاق العربيـة تدريجياً ، والى قيام مجتمع خليط له مقاييس جديدة ، واعتبارات اخرى ، ولا سيما فيما كان يتعلق بالمرأة .

واذا استثنينا اول خلفـائهم السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) الذي لم يتزوج الا امرأة واحدة ، والمنصور الذي اوصى ابنه المهدي قبل وفاته « بان لا يشرك النساء في امره » ، وقليلا غيرهما ، امكن القول انهم ، ومثلهم رجـال الدولة ، امعنوا في حياة القصور ولهوها ، واستسلموا الى معاشرة النساء والفجور .

وقد كان لهذا الاسترسال في اللهو من جانب الخاصة ، وهم قدوة العامة ، رد فعل في الاوساط المحافظة التي تتطلع عادة الى محاولة كبح جماح الجمهور في مثل هذه الظروف ، فشددوا النكير على اللاهين ، وصوروا المرأة على صورة الصراط الذي يؤدي الى الجحيم . وهؤلاء المصلحون يعبّرون عادةً عن الرأي العام ، فاذا استمعنا الى نصائحهم ندرك حقيقة منزلة المرأة في عهدهم . قال احد حكمائهم : « كل اسير يفكّ الا اسير النساء فانه غير مفكوك ، وكل مالك يملك الا مالك النساء فانه مملوك . وما استرعين شيئاً قط الا ضاع ، ولا استؤمنّ على شيء الا ذاع . ولا اطعن شراً فقصرن عنه ، ولا حوين خيراً فأبقين منه . » فقيل له : « كيف تذمهن ، ولولاهن لم تكن انت ولا امثالك من الحكماء ؟ » فقال : « مثل المرأة مثل النخلة الكثيرة السلاء لا يلامسها جسد الا اشتكى ؛ وحملها مع ذلك الرطب الطيب الجني ! » .

وقد علق الامام الغزالي (ولد في طوس سنة ٤٥٠ وتوفي ٥٠٥ هـ) على قول الامام الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤ هـ) : « ثلاثة ان اكرمتهم اهانوك ، وان اهنتهم اكرموك : المرأة والخادم والنبطي » بقوله : « اراد الشافعي به ان محضت الاكرام ولم تمزج غلظتك بلين ، وفظاظتك برفق . » وفي القول والتعليق عليه تصوير لنظر عصرهما في المرأة . ولا بدع فهما الامامان المتبعان اللذان ما كان يرجح رأيهما رأي .

والغزالي وان حض في كتابه الأحياء على الرفق بالنساء ، وحسن معاشرتهن ، والاعتدال في موافقتهن ومخالفتهن ؛ غير انه كان يرى رأي من لا يثق بهن ، ولا يؤمن بعقولهن واخلاقهن . وكان كل ذلك يملي عليه ما املى من واجبات المرأة في الهيئة الاجتماعية . قال في الأحياء عن الآداب المطلوبة منها « فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل ان تكون قاعدة في قعر بيتها ، لازمة لمغزلها لا يكثر صعودها واطلاعها ، قليلة الكلام لجيرانها ؛ لا تدخل عليهم الا في حال توجب الدخول . تحفظ بعلها في غيبته وحضرته ، وتطلب مسرته في جميع

امورها . ولا تخونه في نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها الا باذنه . فان خرجت باذنه فمختفية في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق ، محذرة ان يسمع غريب صوتها ، او يعرفها بشخصها . لا تتعرف الى صديق بعلها في حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن انه يعرفها ، او تعرفه . همّها صلاح شأنها وتدبير بيتها ، مقبلة على صلاتها وصيامها . واذا استأذن صديق بعلها على الباب ، وليس البعل حاضراً ، لم تستفهم ، ولم تعاوده في الكلام ، غيرة على نفسها وبعلها . وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله ، وتقدم حقه على حق نفسها ، وحق سائر اقاربها . متنظفة في نفسها ، مستعدة في الاحوال كلها للاستمتاع بها ان شاء ، مشفقة على اولادها ، حافظة للستر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الاولاد ومراجعة الزوج . »

وهو الى ذلك قد حذر منهن في موضع آخر ، وقال : « فان كيدهن عظيم ، وشرهن فاش ، والغالب عليهن سوء الخلق ، وركاكة العقل . » ورأي الغزالي ذا بال ، فهو إمام جيله والناطق بلسان مجتمعه . وهو لا يزال حتى الآن حجة الاسلام . واذا كنا الآن نعتبر نصائحه قد سلكت سبيل المغالاة في تحديد واجبات المرأة نظراً لتبدل الزمان ، وتبدل المقاييس والاحكام ، فان اهل تلك الايام ، ومن سلفهم وخلفهم ، كانوا يجدون في هذه الحدود امراً طبيعياً تنسجم مع كل الاد ن .

على ان منزلة النساء عندهم ، وان كان المفروض فيها ان ترتفع بارتفاع مستوى بعضهن العلمي ، وما اظهره هذا البعض من المواهب في عهد العباسيين ، الا انها ظلت ، في الواقع ، تنحدر مع انحدار مستوى المدنية العربية ، حتى صاروا بعد ذلك لا يكرهون ولادة البنات فحسب ، بل يعتبر فريق منهم : « دفن البنات من المكرمات ! »

ونود ان نصل القاريء الكريم بابي بكر الخوارزمي الكاتب الشاعر في القرن

الرابع للهجرة قيل ان نقدم له اثراً من اثاره في هذا البـــاب . روي انه قصد الصاحب بن عباد ، وهو بأرّجان . فلما وصل الى بابه استأذن في الدخول فرجع الآذن يردد ما قاله الصاحب : « قد الزمت نفسي ان لا يدخل علي من الادباء الا من يحفظ عشرين الف بيت من شعر العرب » فقال ابو بكر للآذن « ارجع اليه واسأله : « هل يريد هذا القدر من شعر الرجـــال ، ام من شعر النساء ؟ » فلما سمع الصاحب جوابه قال « هذا يكون ابا بكر الخوارزمي . »

فالشاعر هذا الذي ذاع صيته الى هذا المقدار ، والذي تمكن الى هذا الحد من حفظ اشعار النساء ، فضلاً عن الرجال ، جدير بأن يكون نظره الى المرأة نظر الاعتبار ، بل هو قمين بأن يعبر عن روح عصره فنستمع ، بعد ذلك ، الى رأيه في الرسالة التي وجهها الى الرئيس بهراه في التعزية بابنته . قال: « ولولا ما ذكرته من سترها ، ووقفت عليه من غرائب امرها ، لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمات . ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمـة ، فقد استكمل النعمة ، واذا زفت كريمة الى القبر ، فقد بلغ امنيتـه من الصهر . » واضاف الخوارزمي الى ذلك اقوال بعض الشعراء ، فذكر قول الشاعر :

ولم ار نعمة شملت كريما كنعمة عورة سُترت بقبر

وذكر قول الآخر :

تهوى حياتي واهوى موتها شغفاً والمـــوت اكرم نزّال على الحرم

وذكر ايضاً قول شاعر آخر :

وددت بنيّتي ، ووددت اني دفنت بنيـــتي في قعر لحد

ثم اختتم رسالته بقول الشاعر :

سميتهـــا إذ ولدت تموت والقــبر صهر ضامن وبيت

واذا كان الخوارزمي ، وهو من لا يخفى امرهم على ابناء العصر الحاضر ، هذا رأيه في المرأة فما نحسب ابا العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) المعاصر له خيراً منه اعتباراً لها . فهو وان كان صيته طبق الافاق ، وعقله تحرر من الخرافات ، لم يستطع سبيلاً للتحرر من ربقة افكار زمانه في النساء . كان ابو العلاء ، وهو الذي لم ير النساء الا طفلاً قبل ان يفقـــد بصره ، يرى وجوب تجنب المرأة الكتابة والقراءة ، والاكتفاء بمغزلها ، وتدبير امر منزلها فيقول :

علمـــوهنّ الغزل والنسج والرقم وخلوا كتـــابة وقراءة
فصلاة الفتاة في سورة الاخلاص تغني عن يونس وبراءة

على ان بعض شعره يوصي بالفصل باكراً بين الجنسين ، وبالحجـاب ، حذراً على الرجل ان يقع في حبائل الشيطان ، وما تلك الحبائل الا المرأة . قال :

اذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا يدخل على الحرم الوليد
وان خالفتني وأضعت نصحي فانت،وان رزقت حجى،بليد
الا ان النساء حبال غيّ بهن يُضيع الشرف التليد

على ان ابا العلاء وان حمل في لزومياته على الاولاد جميعـــاً الا انه قد خص البنات بالذم ، ولم يستثن الزوجات . ومنها قوله :

خمور الريق لسن بكل حـــال على طلاّبهن محرمات
ولكن الاوانس باعثات ركابك في مهالك مقتمات
صحبنك فـــاستفدت بهن ولدا اصابك من اذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغـــير ناء بذلك عن نوائب مقسمات
فمن ثكل يهاب ، ومن عقوق وارزاء يجئن مصمـــمات

وان تُعط الانات فاي بؤس تبيّن في وجوه مقسّمات
يرون بعولة ، ويردن حليا ويُلقين الخطوب ملوّمات
ولسن بدافعات يوم حرب ولو من غارة متقشمات
ودفن والحوادث فاجعات لاحداهن احدى المكرمات
وقد يفقدن ازواجاً كراما فيا للنسوة المتأيّمات
يلدن اعاديا ، ويكن عارا اذا امسين في المتهضّمات

الى ان تسامح وقال :

وواحدة كنتك فلا تجاوز الى اخرى تجيء بمؤلمات

واذا كان ابو العلاء وهو الثائر على الاوضاع ، واحياناً على المعتقدات ، تأثر من روح عصره فما احرانا ان نذكر قول الشاعر جوته : « ما اندر الاصوات في هذ العالم ، وما اكثر الاصداء . »

وجملة القول ان المرأة في العصر العباسي عصر النور كانت ، في الأجماع ، لا تزيد على انها ضرب من ضروب امتعة الحياة الدنيا . راما اخلاقها فكانت وليدة الظروف التي سوّتها ، وجعلتها مدعاة حذرتها من الرجال . واما تصرفاتها على الاكثر ، فكانت سبب الحكم على ضعف عقلها ، حتى توهم الناس ان ذلك بعد الى الفطرة التي فطرت عليها .

ونستطيع ان نستجلي هذا الذى ذكرناه من خلال تعبيرات الانشاء المتداول من مثل قولهم : « فلانة تحت فلان » اي زوجته ، بدلاً من قرينته . ونستطيع ان نستجلي هذا ايضاً من بين التعريفات الفقهية التي يقول فيها قاسم امين :

« رأيت في بعض كتب الفقهاء انهم يعرّفون الزواج بأنه عقد يملك به الرجل بضع المرأة . وما وجدت فيها كلمة تشير الى ان بين الزوج والزوجة شيئاً

آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدية. » وبعد ان اورد قاسم امين الآية من سورة الروم : « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم وبينهم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون . » قال : « والذي يقارن بين التعريف الاول الذي فاض من علم الفقهاء علينا ، والتعريف الثاني الذي نزل من عند الله يرى بنفسه الى اي درجة وصل انحطاط المرأة في رأي فقهائنا ، وسرى منهم الى عامة المسلمين . »

اجل الى عامة المسلمين وليس الى العرب وحدهم لأن مسلمي الاقطار غير العربية ظلوا بعد ان تمتعوا بالاستقلال على هذا الرأي . وحسبنا الاشارة الى سعدي الشيرازي شاعر الفرس الاكبر الذي عاش في القرن السابع للهجرة . فهو رغم شغفه بالمرأة يقول في ديوانه البستان عنها «انها وردة عطرة تستهوينا لشمها ، وتفاحة طيبة يتحلب لها ريقنا. انها ثمرة يانعة وجدت على مائدة الحياة لتؤكل ! وليس لها ان تعترض ، وليس ان تُسأل عن رأيها !»

النساء النافذات في التمدن العربي الشرقي

كانت الاسباب المبررة لاهل ذلك التمدن لامتهان المرأة والحذر منها تعود الى احوالها الاجتماعية المنحطة تلك الاحوال التي خلقها استبداد الرجال بالنساء طوال الآف من السنين ، وجعلت المراة تعتبر نفسها قاصرة ، وانها على حاجة ماسة لقيّم عليها منذ المهد الى اللحد .

بيد ان بعض النساء في التمدن العربي وغيره برهن على ان المراة ليست دون الرجل كفاءة حينما افسحت لهن الظروف لابراز مواهبهن . وقد حفل التمدن العربي الشرقي بسيدات من الحرائر والجواري استأثرن بالسلطة والنفوذ اما عن طريق العقل ، واما عن طريق القلب . وهذا ما سنتحدث عنه في هذا الباب وذلك بالاضافة لما اتينا على ذكرهن من النساء المثقفات .

• الحرائر النافذات

• استهل عصر العباسيين بسيدة من هذه الطبقة اشتهرت بنفوذها على مؤسس دولتهم السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) من قبل ان ينتزع الملك من الامويين ، واعني بها ام سلمة بنت يعقوب المخزومي . فقد حلف لها العباس حين اقترن بها ان لا يتزوج عليها ، ولا يتسرى ، وبرّ بوعده لها، وغلبت عليه غلبة شديدة حتى ما كان يقطع امراً الا بمشورتها ورايها. لهذه السيدة خبر طريف مع خالد بن صفوان نورده للتفكهة وللدلالة على نفوذها . قيل ان خالداً خلا يوماً بزوجها فقال : « يا امير المؤمنين اني فكرت في امرك وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امراة واحدة ، فان مرضت مرضت ، وان غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ ، واستطراف الجواري . « وشرح يصف له النساء بأجود وصف حتى اثر كلامه على الخليفة ، فبقي بعد انصراف خالد يفكر فيما حدث به . فدخلت عليه ام سلمة امراته ، وانكرت شدة تفكيره . وما زالت تسائله حتى اخبرها بمقالة خالد . فقالت : « فما قلت لابن الفاعلة ؟ » قال : « سبحان الله ينصحني وتشتمينه ؟ » وبينما كان خالد ينتظر في داره الصلة من الخليفة ، لما لاحظ من اعجابه بنصيحته ، اذ دخل عليه عشرة من الخدم ، فاستبشر بقدومهم ، ولكنه لم يلبث ان راى العصي وقد هوين عليه . ووقع في خلده انه اوتي ما اوتي من قبل ام سلمة ، فلزم داره الى ان جاءه اتباع الخليفة ذات يوم ، وقالوا له : « اجب امير المؤمنين » . فلما وصل اليه وجلس نظر واذا خلف ظهره باب عليه ستور قد ارخيت ، وحركة خلفها . قال الخليفة : « ويحك انك وصفت لي في آخر دخلة من امر النساء والجواري ما لم يخرق سمعي قط احسن منه ، فاعده علي . » قال « نعم يا امير المؤمنين ان العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وان احدهم ما تزوج من النساء اكثر من مرة واحدة الا كان في جهد . » فقال السفاح : « ويحك ، ان هذا لم يكن في الحديث ! »

فقال خالد : « بلى والله يا امير المؤمنين ، واخبرتك ان الثلاث من النساء كأنهن قدر يغلي عليهن . » قال السفاح : « برئت من قرابتي من رسول الله ان كنت سمعت هذا من حديثك الاول ! » قال خالد : « واخبرتك ان الاربع من النساء شر صريح لصاحبهن ، يشيّبنه ، ويهرمنه ويسقمنه » قال الخليفة : « ويلك ، والله ما سمعت هذا الكلام منك ، ولا من غيرك قبل هذا الوقت . » قال خالد : « بلى والله . » ولما بدت علائم الغضب على السفاح عند قوله . « ويلك اتكذبني ؟ » اجاب خالد مستعطفاً ؟ « او تريد ان تقتلني ؟ » ثم استأنف الحديث وقال : « واخبرتك ان ابكار الجواري رجال ، ولكن لا خصيّ لهن . »

قال خالد الذي روى هذا الحوار : « فسمعت الضحك من وراء الستار ، وكانت ام سلمة هي التي تضحك ، فتشجعت ، وقلت : « واخبرتك ايضاً ان ان بني مخزوم (قوم ام سلمة) ريحانة قريش ،وانت عندك ريحانة من الرياحين ، وانت تطمح بعينيك الى حرائر النساء ، وغيرهن من الاماء ! » فاذا بصوت من وراء الستر يقول : « صدقت والله ياعماه بهذا ، صدقت » ثم يقول خالد«وما ان عدت الى منزلي ، وصرت افكر فيما جرى حتى صارت رسل ام سلمة الي ، ومعهم عشرة الاف درهم ، وتخت ، وبرذون ، وغلام . »

وخلف المنصور اخاه السفاح ، وجرى مجراه في وعده زوجته ان لا يتزوج ولا يتسرى الا بأمر منها [1] . وما اقسى هذا الشرط في ذلك الزمان التي كان الاكثار فيه من النساء يعد من مظاهر الجلال والابهة ؟ فلعبت قرينته دورها الملحوظ في الدولة بقدر سلطانها على قلب زوجها ومواهبها في تسيير الامور ، وفي ايام موسى الهادي القليلة ، وكان ضعيفاً خاملاً تناولت امه كلفدان الحكم واستأثرت دونه في تصريف الأمور .

(١) لما اذكى الامويون العيون على العباسيين فر ابو جعفر المنصور الى تونس وتزوج من اروى بنت منصور من سلالة ملوك حمير باليمن.وقد اشترط لها ابوها في عقد نكاحها الا يتزوج ابو جعفر بغيرها ولا يتخذ السراري ، فان تسرى عليها كان طلاقها بيدها . وقد وفّى المنصور لزوجه ، ما كان عاهدها عليه (شهيرات التونسيات لحسن حسني عبد الوهاب) .

ثم جاء هرون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ) وكان عهده عهد القصور والجواري ، ولكن كل ذلك لم يكسف نجم زوجته زبيدة ، ولم يخب تارها في قلبه، بل انها عندما جارت العصر في الاستكثار من الجواري صرفتهن عن مألوف المعاصرين الى خير الوجوه. فقد روى ابن خلكان: «انه كان لها مائة جارية حافظات للقرآن ، تتلو كل واحدة منهن عشرا حتى يُسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن . » واسرفت في انشاء المصالح العمومية من ملاجيء الغرباء ، وتكايا الفقراء ، والحمامات المجانية ، والمساجد والاروقة . وحسبها صنيعها الكبير في جر المياه عشرة اميال ، الى الحرم بمكة . وحسبها جوابها لوكيلها المشرف على هذا المشروع حينما قال لها : « يلزمك نفقة كبيرة » فردت عليه بقولها : « اعمله ، ولو كانت ضربة فاس بدينار » ونحن البيروتيين مدينون لها بمأثرة من مآثرها . فلما مرت ببلدنا في حجتها ، وجدت ماءها قليلاً أجرت اليها الماء من الجبل ، ولا تزال القناطر في وادي المكلس تحمل اسمها حتى الان .

اما احسانها لاهل الادب فحسبك منه ما روى محمد بن الفضل . قال : « كان ابنها المأمون يوجه اليها كل سنة مائة الف دينار جددا ، والف الف درهم . وكانت تعطي منها ابا العتاهية الشاعر مائة دينار ، والف درهم . فلما اغفلته سنة رفع رقعة الي ، وقال لي ضعها بين يديها وكان فيها :

خبروني ان في ضرب السنة   جددا بيضا ، وصفرا حسنة
سككاً قد احدثت لم ارها   مثلما كنت ارى كل سنة

فقالت : « انـّا والله اغفلناه » ثم وجهت اليه بوظيفة على يدي. وقد توفيت في بغداد سنة ٢١٦ هـ مأسوفاً على مبراتها .

هذا واذا جاء ذكر الحرائر المتنفذات في التمدن العربي الشرقي فما اجدر بست الملك اخت الحاكم بامر الله الفاطمي (٣٨٦ – ٤١١ هـ) ان تأتي في

المقدمة . فقد لعبت دوراً في التاريخ الاسلامي لم تقم به سيدة اخرى . ذلك ان اخاها الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ – ٤١١ هـ) كان متقلب الرأي ، مقرباً للباطنيين ، وقيل انه ادعى الألوهية . وهو فوق ذلك كان يقدم البربر ، فالترك على المصريين . كل ذلك حمل هؤلاء على كرهه وسبّه ، وكانوا يكتبون اليه الرقاع ، وفيها السباب والشتائم والدعاء عليه .

وكانت اخته ست الملك ، من احسن نساء زمانها جمالاً وعقلاً ، واشدهنّ حزماً وعزماً . فنالت في اول الامر ثقة الخليفة ، حتى انه صار لا يقطع في امر الا برأيها ، وحظيت بمحبة الناس حتى صاروا يؤيدونها على اخيها . فأوجس الحاكم بأمر الله خيفة من اخته ، وشرع يترقب الفرص لقتلها . ولما افضت الوقيعة بينه وبين المصريين الى قيام هؤلاء بالثورة ، التي اخمدها بالنار والحديد ، اتهم اخته ست الملك بأن لها ضلعاً فيها ، ولكنها سبقته الى الانتقام ، فتآمرت عليه مع دارس احد قواده . ولما ايقن الناس بقتله ، اجتمعوا عليها ، وولوها وصية على ابن اخيها الظاهر لصغر سنه . وانفذت الكتب الى البلاد . وفي الغد حضر ابن دارس ومعه اركان جيشه ، بأمر من ست الملك ، فأوعزت الى خادم لها فضربه بالسيف فقتله وهو ينادي : يا لثارات الحاكم . وقد قوبل عملها بالامتنان من الشعب .

وراحت ست الملك تصرف امر الدولة قرابة اربع سنوات ، وهي تعدل في الرعية ، وتنصف المظلومين ، حتى احبها الجميع ، وتمنوا ان يدوم حكمها ، ولكن الخلود مستحيل ، فما ان ماتت حتى مال الخليفة ابن اخيها الى اللهو ، واصطنع الترك ، فكان عهده بداية انحطاط الدولة الفاطمية .

واذا وضعنا في الميزان قتلها لأخيها ، ثم غدرها بالقائد المتآمر معها ، لا ندري اذا كانت كفتها ترجح ام لا . ولكن الذي لا ريب فيه ، ان ليس للسياسة دين . وحسبنا الاشارة الى سليمان بن عبد الملك ، وما فعل بالحجاج

الثقفي ، وموسى بن نصير ، وقتيبة بن مسلم ، والى السفاح وقتله لأبي مسلم الخراساني ، وناهيك بالرشيد ونكبة البرامكة . كلهم سبقوا ست الملك . وان التاريخ العالمي حافل بمثل عملها .

واذا ذكرت هذه الطبقة من نساء الخلفاء ، فيحسن التنويه بسيدة فارسية واخرى تركية كان لهما في عصريهما اوفر شهرة ، واعني بهما ام جعفر البرمكي ، وخاتون زوجة ملكشاه السلجوقي . فالأولى كانت ذات نفوذ في الاوساط العالمية مستمدة من سلطة ابنها ، وكانت في قصرها كملكة يتبارى اربعماية وصيفة في خدمتها . والثانية خاتون زوجة السلطان ملكشاه السلجوقي ، التي اشتهرت بالحزم والعزم والتدبير ، وبالنفوذ الكبير .

● المتحررات من الرق المتنفذات .

● واشتهر فيمن اشتهر من النساء في التمدن العربي بالشرق ، طائفة اخرى كن ، في اول الامر ، من الجواري والسراري ، ثم اعتقن ودخلن في مرتبة الحرائر . وبين هذه الطائفة كثيرات من ذوات الأحساب والأنساب ، اللواتي كان لهن نصيب من الثقافة وعلم السلوك . فكان نفوذهن على الخلفاء واركان الدولة ، يعود الى اقتدارهن الشخصي ، الموروث ، ويستمد من قوة الامومة التي رفع الاسلام قدرها ، ووضعها فوق منزلة الأبوّة . ومن اشهر هذه الطبقة خيزران الجرشية . كانت جارية في قصر المهدي (١٥٨ — ١٦٩ ﻫ) فرأى فيها نجابة وألمعية ، فأحبها ، وأعتقها ، وتزوجها . وما لبثت الا قليلا حتى صارت صاحبة الأمر والنهي ، لا يجد المهدي عن طاعتها مصرفاً . وقد اثنى عليها احمد اجاييف بقوله : « قد اتفق جميع المؤرخين على ان جميع الاعمال المجيدة ، والافعال الحميدة البي صنعها المهدي ، بما فيها معاهد العلم التي اكسبته الشهرة ، منسوبة الى تأثير زوجته خيزران عليه ، وتحريضها اياه على القيام بها ».

وكانت تستقبل في دار الخلافه العمال والحكام ، والعلماء والشعراء . وتعلق بها الناس تعلقاً شديداً . »

وشاءت هذه السيدة لما تولى ابنها الهادي (١٦٩ – ١٧٠ هـ) ان تسلك به مسلك ابيه ، فساءه ذلك ، حتى اذا سألته يوماً حاجة ضمنتها لأحدهم ردّها ؛ ولما قامت مغاضبة صاح بها : « مكانك ، والله انا بريء من قرابتي من رسول الله لئن بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي ، او خاصتي ، لأضربنّ عنقه ، ولأقبضن ماله .. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك ؟ او مصحف يذكرك ؟ او بيت يصونك ؟ اياك اياك لا تفتحي بابك لمسلم او ذمي . » ونهى رجاله عن زيارتها . فحقدتها عليه حتى اذا علمت انه يريد خلع اخيه الرشيد من ولاية العهد ، والبيعة لابنه جعفر ، امرت بعض جواريها بقتله ، والجلوس على وجهه ، فقتلوه .

فلما تولى الرشيد حفظ لها جميلها ، فاستبدت بالاحكام حتى صار وزيره يحيى البرمكي يسير بأمرها ، واستغلت نفوذها في حشد الاموال لنفسها ، فبلغت غلتها في العام مائة وستين مليون درهم ، وهو يعادل نصف خراج المملكة العباسية لذاك العهد . وقد تساءل زيدان في هذه المناسبة : « اين من ذلك مال كبار متمولي العالم؟ فقد ذكروا انايراد روكفلر الثري الاميركي الشهير ١٠،٥٠٠،٠٠٠ جنيه في السنة ، وهو مبلغ دون غلة خيزران . »

ولما ماتت توسع الرشيد في اموالها ، واقطع الناس ضياعها . وفيها قال ابو المعافى :

« يا خيزران هناك ثم هناك ان العباد يسوسهم ابناك . »

ونحو غلة خيزران بلغت غلة ام محمد بن الواثق ، فكانت عشرة ملايين دينار في العام . ونحواً من نفوذها بلغ نفوذ ام المستعين بالله (٢٤٨ – ٢٥٢ هـ) .

كانت صقلبية الاصل ، فأطلق ولدها يدها في امور الدولة ، ويد اثنين من القواد الترك : اتامش وشاهك . فكانت الاموال التي ترد الى بيت المال يصير معظمها اليهم . وكانت تبدد تلك الاموال ، حتى كان بين رياشها بساط انفقت على صنعه مائة وثلاثين مليون دينار على ما روي .

كانت فيه نقوش على اشكال الحيوانات والطيور ، اجسامها من الذهب ، وعيونها من الجواهر . وعلى شاكلتها كانت قبيحة[1] ام المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) في اختلاس الاموال ، وجمع التحف ، والتدخل في شؤون الدولة .

ثم استفحل امر النساء في ايام المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) الذي تولى صغيراً فاستأثرت امه التركية قطر الندى بالسلطة ، وشاركها في ذلك الحجاب والخدم فكانت هذه السيدة ومعها الخالة ، وام موسى الهاشمية القهرمانة[2] ، يتناولن الرشوة اسوة بموسى الخادم ، ونصر الحاجب ، وبعض الكتّاب ؛ ويصرفن امور الدولة على اهوائهن . وكان لأم موسى هذه دهاء ونفوذ كبيران ، حتى تعهدت يوماً بالخلافة لأحد العباسيين من اصهارها ، واخذت تبذل الاموال للقواد وغيرهم ، فوشى بها بعضهم الى المقتدر ، فقبض عليها ، واخذ منها اموالاً عظيمة .

وقد قال السيوطي : « وفي عام ٣٠٦ هـ ، انشأت ام المقتدر مستشفى ، وخصصت لنفقته السنوية سبعة آلاف دينار . وفي هذه الاثناء صار الامر والنهي لحرم الخليفة ولنسائه لركاكته ، وآل الامر الى ان امرت ام المقتدر القهرمانة ان

---

(١) سماها زوجها المتوكل قبيحة لحسنها وجمالها ، كما يسمى الاسود كافورا (ابن الاثير ٥ : ٣٤٤)

(٢) قال الحافظ الذهبي : (العبر في خبر من غبر ج ٢ : ١٣١) . ولما كان في هذا العام (٣٠٦ هـ) امرت ام المقتدر مثل القهرمانة ان تجلس للمظالم ، وتنظر في القصاص كل جمعة بحضرة القضاة ، وكانت تبرز التواقيع وعليها خطها .

تجلس للمظالم ، وتنظر في رقاع الناس كل جمعة ، فكانت تجلس وتحضر للقضاء والاعيان ، وتبرز التواقيع وعليها خطها . »

ولما ماتت قطر الندى ام المقتدر (٢٨٧ هـ) اخرجوا من تربتها ٦٠٠و٠٠٠ ألف دينار كانت مخبأة هناك ، ولا يعلم بها احد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله .

وفي عهد المستكفي ، كانت القهرمانة علم تأمر وتنهي على غرار القهرمانة ام موسى في ايام المقتدر ، مما افضى الى تسلط معز الدولة ابن بويه على بغداد (٣٣٤ هـ) وخلع الخليفة وسمل عينيه والقاء القبض على علم ، وأدّى الى مجاعة عظيمة [١] .

● الجواري النافذات عند الامويين والعباسيين .

● كانت قصور الخلفاء ورجال دولتهم كأنها ممالك مستقلة ، لها ادارات داخلية وخارجية ، يتولى اكثرها الطواشية والغلمان ، ويقوم على حراستها الأجناد . كانت رعايا تلك القصور ، بالاضافة للزوجات ، مئات من الجواري الحسان ، والفنانات البارعات ، والوصيفات المدربات ، فضلاً عن المجملات ، والمجهزات ، والماشطات ، والمعلمات ، والخادمات . وحسبنا ان نعلم ان قصر ام جعفر البرمكي كان حافلاً بأربعماية وصيفة ، وان قصر الحاكم بأمر الله ، كان فيه على ما روى المقريزي (ج ١ ص ٣٦) ، عشرة آلاف جارية . لنتصور ما ما كانت عليه تلك القصور .

ولم يكن الاستكثار من الجواري يتطلب نفقة كبيرة في صدر الدولة

---

(١) فان في شعبان اكلوا ببغداد الميتات والآدميين ، ومات الناس على الطرق ، وبيع القفار بالرغفان الخ .. (الحافظ الذهبي العبر ج ٢ : ٢٣٦) .

الاموية لكثرة سبايا الفتوحات . ومع ذلك فان النابغات منهن الموهوبات ، ادركن ثمناً عالياً ، كما اشرنا اليه في الكلام عن شهيرات الجواري في عهد الأمويين ، واما في العهدين العباسي والفاطمي ، فقد ارتفع اثمان الجواري ارتفاعاً عظيماً ، حتى زعم ابن عبد ربه (العقد الفريد ج ٣ ص ٤٣) ان محمد الامين بن الرشيد بذل نحواً من مليون دينار في سبيل ابتياع جارية اسمها بذل .

وهذه القصور العامرة بالغانيات ، كانت ميدان صراع بين العقول والقلوب . اما السلاح فكان تارة الجمال ، والفن ، والادب ، وطوراً الدسائس ، والمؤامرات والحيل ، والوشايات ، والرشوات . واما الغلبة فكانت على الغالب من نصيب المتحكمات في القلوب ، المتصرفات في الجيوب ، لأن تلك الجواري كن مجهزات بأسلحة من الجمال ، والدهاء ، والفن ، والادب ، لا يستطيع الوقوف في وجهها اي سلاح آخر يعتمد على الصيانة والعفاف والاتزان . وكان من عواقب ذلك وقوع كثير من الخلفاء صرعى في تلك المعارك ، واسرى في احضان الحسناوات الساحرات ، يتصرفن بهم حسب اهوائهن . وبذلك انقلب الوضع ، فأمسى اصحاب القصور هم العبيد ، والعبدات هنّ السيدات .

● سيادة الجواري في العصر الاموي (٦٦٠ – ٧٥٠ م)

● كان مؤسسو الدول الاسلامية الاموية والعباسية والفاطمية ، من اولي العزم ينصرفون الى مهام الدولة ، ويزهدون في الجنس اللطيف ؛ ولكن ما كانت تستتب الامور لخلفائهم ، او تكاد ، حتى يترامون في احضان الغانيات ، وينسون الدولة والامة . وقد عرف يزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥ هـ) وابنه الوليد ، من خلفاء الامويين ، بأنهما كانا طليعة الذين استعبدتهم النساء .

شغف يزيد (١٠١ – ١٠٥ هـ) بجاريته سلامة ، وكانت ذات صوت جميل ، ثم ملكت قلبه جارية اخرى اسمها حبابة ، فانصرف اليها حتى لم تعد الخلافة

تنتفع به . وما زال حتى هلك لموتها . وجرى مجراه ابنه الوليد ؛ بل سبقه في ميدان التلهي بالقيان ، واللهو ، والشراب . وكان قد عشق سعدى بنت سعيد ابن عمرو فتزوجها ، ثم تعشق اختها سلمى فطلق سعدى وتزوجها . ومن شعره فيها ، وشعره بليغ ، ولا سيما في وصف الخمر :

شاع شعري في سليمى وظهر   ورواه كل بدو وحضر
وتهادته القوافي بينهـــا   وتغنين به حتى انتشر
لو رأينا في سليمى اثرا   لسجدنا ألف ألف للأثر
انمـــا بنت سـعيد قمر   هل حرجنا ان سجدنا للقمر ؟

ثم عاد فندم على طلاق سعدى ، وكانت قد تزوجت ، فازداد بها كلفاً ، وراسلها بقوله :

أسعدى ما اليك لنا سبيل   ولا حتى القيامة من تلاق
بلى ، ولعل دهراً ان توافي   بموت من خليلك او فراق

وهذا الشعر الرقيق يدل على مقدار ما كانت عليه الهيئة الاجتماعية وقتئذ من نعومة الاخلاق التي ازدادت قوة على قوة بتأثير الشام على الامويين . ولكن هــذه النعومة لا تغفر للوليد انانيته التي بلغت حد تمني موت خليل حبيبته ، او طلاقها منه !

● سلطان الجواري في العصر العباسي (٧٥٠ – ١٢٥٨ م)

● كان سلطان الجواري في هذا العهد عظيما. فقد اتيح لهن فيه ، ما لم يتح لسواهن من قبل من النفوذ على الخلفاء ورجال دولتهم . ولكن بني العباس كانوا على درجـات في الخضوع لهن ، والانصراف اليهن بـين المغـالي والمعتـدل . فالمعتدلون كانوا كهرون الرشيد ، والمأمون ، والمتوكل ، الذين كان شعارهم :

وللّه مني جانب لا اضيعه   وللهو مني والصبابة جانب

والمتطرفون كانوا كالأمين والواثق والمستعين والمعتضد والمقتدر والقاهر . على انهم كانوا جميعاً يغالون في شرائهن ، ويسرفون في العطاء لهن ، عما يشير الى انهم كانوا في حب النساء سواء . فقد قيل ان هرون الرشيد اعطى دنانير جارية يحيى بن خالد البرمكي ، وكان مشغوفاً بها ، عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار . وقيل انه اشتاق يوماً ذات الخال ، وكان غضب عليها ، ووهبها حموية . فلما علم هذا برغبة الخليفة في سماع غنائها استأجر لها ، من بعض الجوهريين ، زينة وعقوداً ثمنها اثنا عشر ألف دينار . فلما رآها الرشيد قال : « ويلك يا حموية ! من اين لك هذا ؟ » فصدقه الخبر ، فبعث الرشيد الى اصحاب الجواهر بثمنها ، ووهبها لها . وحلف في يومه ذاك ان لا تسأله ذات الخال حاجة الا قضاها لها . فسألته ان يولي حموية الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل !

وللرشيد اشعار في بعض جواريه ، فما قوله في احداهن :

تبدي صدودا وتخفي تحته مقة   فالنفس راضية والطرف غضبان
يا من وضعت له خدي فذلله !!   وليس فوقي سوى الرحمن سلطان

وشابه الأمين اباه في التبذير على المحظيات ، فبذل لبذل المغنية العطايا من الجواهر ما لم يملك احد مثله ، ولكن الأمين فاق الرشيد في الاستسلام للقيان ، وفي الانصراف اليهن بكليته .

وكان للمأمون جارية من احسن الجواري ، وأسبقهن الى كل نادرة ، فحظيت عنده ما لم تحظ به امرأة . فحسدها اترابها وقلن : « لا حسب لها . » فنقشت على خاتمها : « حسبي حسني » فازداد بها المأمون اعجاباً . فتحايل الجواري حتى سمموها ، فجزع المأمون لموتها جزعاً شديداً ، ورثاها بقوله :

اختلست ريحانتي من يدي   ابكي عليها آخر الابد

كانت هي الانس اذا استوحشت نفسي من الاقرب والابعد
وروضة كان بهـا مرتعي ومنهلاً كان بها موردي
كانت يدي كان بها قوتي فاختلس الدهر يدي من يدي

ويعبّر المأمون عما في نفسه من العبودية لجـارية اخرى فيقول ، وهو من السهل الممتنع :

لها في لحظها لحظات حتف تميت بها وتحيي من تريد
فان غضبت رأيت الناس قتلى وان ضحكت فأرواح تعيد
وتسبي العـالمين بمقلتيهـا كأن العالمين لهـا عبيد

وكأن المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٣ هـ) اراد ان يستعير تشابيه المأمون في هذا الشعر ، وذلك حينما تغزل بجارية له وقال :

امازحها فتغضب ثم ترضى فكل مقالها حسن جميل
فان غضبت فأحسن ذي دلال وان رضيت فليس لها بديل

ولكنه وان أجاد فلم يحظ بجميع المعاني التي اتى عليها سلفه .

وللمعتز في وصف ليلة مع جارية :

فأصبحت في ليلين للشعر والدجى وشمسين من كأس ووجه حبيب

وكان المعتز من اشهر شعراء العرب ، وأعلمهم بالموسيقى .

وعلى هذا النسق استشرى الولع بالنساء بين الحاشية والشعب ، والتبـاهي بهن . وحسبنا الاشارة الى يحيى بن خـالد البرمكي ، فقد بلغ حبه لجاريتـه دنانير انها لما مرضت تصدق ، في كل يوم من شهر رمضان ، بألف دينـار التماساً لشفائها .

واذا لم يذكر لمتأخري العباسيين شعر من هـذا القبيل ، فلا يرد ذلـك الى تحررهم من النساء ، وانما الى تقصيرهم في العلم والادب . ما عدا المرتضي والراضي اللذين كانا من اصحاب الاقلام .

● الجواري في العصر الفاطمي (٩٠٩ – ١١٧١ م) في القطر المصري.

● قامت الدولة الفاطمية في تونس في اعقاب بني الأغلب ، وقامت على الدين والتقوى ، وعلى الدعاوة لنفسها بالخلافة . وكانت وهي في تونس ، تحمل على اسلافها الاغالبة ، كما تحمل على معاصريها الاخشيديين بمصر ، والعباسيين في العراق ، لورودهم جميعاً موارد اللهو ، ولتمليكهم الجواري زمام امورهم . وما زال ظلها يمتـد باسم الدين حتى وسع مصر ، فانتقلوا اليها ، واتخـذوا القاهرة قاعدة لدولتهم . ثم دانت لهم الشام والحجاز واليمن ، فوافتهم النعم من كل مكان ، وتدفقت على القاهرة الجواري الحسان . بيـد انهم اذ كانوا يروّجون لانفسهم بالارجاف على غيرهم ، واذاعة السوء عنهم ، ويندّدون بهم لانهم ملكوا الجواري زمام امورهم ، فلم تجـد المرأة عند اوائلهم ، ما وجدت في بغـداد وتونس وقرطبة وغيرها من الحظوة ، والانطلاق، ثم لم تجد الجواري في رحابهم ما ادركته في البـلاد الاخرى من الاقبال وعلو الشأن . بيـد ان الفاطميين لم يلبثوا الا قليلا في مصر ، حتى شرعوا يقلدون العباسيين وامويي الاندلس في أبهة الملك ، ومظهره ، فابتنوا القصور وملؤوها بالجواري والقيان ، ولا أدل على ذلـك مما ذكرنا ، ان قصور الحاكم بأمر الله كانت حافلة بأربعـة آلاف جارية . والى ذلك فقد ابتنوا المتاحف المختلفة التي جمعت من الجواهر والتحف ما لا يقدّر بثمن ، وقرّب الفاطميون منهم ، البربر والترك ، واعتمدوا عليهم في تصريف الامور . غير انهم مع كل ذلـك ، ربما ظلوا ، اول الامر ، اكثر حجزاً لانفسهم عن سواهم في الاسترسال باللهو ، وورود موارد التهتك . ولما ساعد الزمان مواليهم وقوادهم من الاعاجم على الاستئثار بالسلطة ، ذهب هؤلاء الى تولية جملة من صغار العمر من الفاطميين ، فتسنى لهم التصرف بالملك حسب

اهوائهم . وكانوا يلهون هؤلاء الخلفاء الصغار بالحسناوات من الفنانات ، والجواري . وقد تعاقب على العرش الظاهر ، والمستنصر ، والآمر ، والفائز ، والعاضد ، وكلهم حديث السن ، استهوته الجواري ، ما عدا الفائز منهم ، وانصرفوا الى الملذات ، تاركين لمواليهم وقوادهم الاعاجم مقاليد الحكم ، فصرف هؤلاء الدولة عن خطتها التي اختطها لها السلف الصالح ؛ فكان مصيرها مصير غيرها من الفوضى الى الزوال . وخلفهم عليها الايوبيون ، ثم غيرهم الذين سنتحدث عنهم في الفصل التاسع .



الفصل التاسع

المرأة في التمدن العربي في الغرب

نقصد بالغرب شبه جزيرة اسبانيا والبرتغال التي كانت تعرف « بأيبريا » والتى اطلق عليها المسلمون الاندلس اطلاق تغليب ، والاندلس مقاطعة من مقاطعاتها . ويدخل فيما اردناه بالغرب البلاد الاسلامية الاخرى ، سواء ما كان منها في شمال افريقيا مما بعد مصر الى المحيط الاطلسي ؛ وما كان فيها في البحر المتوسط ، من جزر ، ابتداء من صقلية ، فسردينيا ، الى جزيرتي مينورقا وماجورقا حتى جبل طارق .

واما مدة هذا التمدين فتبتدىء ببداية الدولة الاموية الاندلسية (١٣٨ هـ – ٧٣١ م) وتنتهي بسقوط غرناطة عاصمة بني الاحمر (٨٩٧ هـ – ١٤٩٢ م) آخر الممالك الاسلامية في الاندلس .

واما ما بقي من هذا التمدين بعد ذلك في شمالي افريقيا ، وبعض الجزر ، فانما كان امتداداً له . وشرع يزول تدريجياً باستمرار الحروب الداخلية

والخارجية ، حتى اذا زالت هناك اكثر الدول الاسلامية بالاستعمار الاوروبي ، لم يبق منه الا الذكريات والآثار .

والجدير بالذكر ان هذا التمدن العربي الغربي هو ، باستثناء عهدي الرسول ، وصحبه ، وامويي الشام ، أولى من سواه بأن يوصف بالعربي . ذلك بأن اعتماده كان على العرب الذين ظلوا حتى آخره بناته ، واركان صروحه ، بينما ان التمدن العربي الشرقي لم يدرك ما ادركه من السمو ، في العهد العباسي ، الا بمساهمة الاعاجم ، ولا سيما الفرس ، اصحاب الايادي البيضاء في رفع قواعده . بلى فان العرب وان خالطوا البربر في شمالي افريقيا ، وامتزجوا بهم هناك وفي الاندلس. ثم هم وان خالطوا ايضاً في شبه جزيرة ايبريا سكانها الواندال والقوط ، الا انهم لم يتأثروا بهؤلاء وهؤلاء الا قليلاً ، لانهم جاؤوهم بمدنية ارفع من مدنياتهم ؟ وكانوا اذا احتاجوا الى معاونتهم يتخذونهم معاونين لا معلمين .

فالبربر كانت كثرتهم تغلب عليها البداوة ، فما ان خضعوا للعرب والاسلام ، بعد مقاومة شديدة ، حتى استسلموا لهما ، وتأثروا بهما ، وتعصبوا للدين تعصب الترك له في الشرق . واهل جزيرة ايبريا وان كانوا وقتئذ على شيء من المدنية اللاتينية الرومانية ، الا انهم كانوا على مخلفات مدنية تحتضر ، وسرعان ما انطفأت عند بزوغ شمس حضارة العرب . ومع ذلك فان حضارة العرب المغربية لم تسلم من التأثر بالبيئة والمحيط ، سواء في شبه جزيرة ايبريا ، او في شمالي افريقيا ، ذلك لأن المحيط هو كالتربة بالنسبة للغرسة الغريبة ، وما يزال يؤثر عليها تدريجياً حتى تأخذ اثمارها مظهراً جديداً يختلف عن اثمارها الاولى في وطنها الاصيل . ومن هنا كان لشبه جزيرة ايبريا ، مهد الحضارة الاندلسية ، اكبر الاثر على المدنية العربية ، سواء اكان ذلك في اللغة والادب ، او في التقاليد ، والمقاييس ، والروح العامة . حقاً ، ان اللغة العربية الفصحى التي كانت لغة الدولة والثقافة لم يتطرق اليها تأثير من قبل المحيط ، غير ان اللغة

العربية العامية ، لسان الشعب ، اصبحت لغة جديدة مليئة بالكلمات والتعابير اللاتينية الرومانية ، يكاد لا يفهمها اهل الشرق الا بكثير من الصعوبة .

كان الشعب الاندلسي ، في عهد العرب ، خليطاً من عناصر مختلفة ، وبالاضافة الى المسلمين الذين كانوا عرباً قيسيين ويمنيين ، وبربراً مختلفين ، او مولدين من الاسبان الذين اعتنقوا الاسلام ، كان هناك اهل البلاد ، من نصارى ويهود الذين حافظوا على مذاهبهم ، وتقاليدهم ، ومن ثم على تعابيرهم واصطلاحاتهم. وهذا الاختلاط بين الشعوب القديمة والجديدة ، افضى الى التفاعل بينهم ، ولم يسلم منه الفاتحون الحاكمون . ومن هنا ، فان الادب العربي بالاندلس لم يسلم من التأثر بالمحيط ، ولا سيما الشعر الذى كانت له المرتبة الاولى عند الاندلسيين بحكم الوراثة عن العصر الجاهلي . فكان هناك اتجاهات للشعر : الاتجاه القديم الذي يمثله المعتمد بن عبّاد ملك اشبيلية ، والاميرة ولادة ، حفيدة الخليفة عبد الرحمن الثالث ، التي كانت تلقّب بسافو المسلمة ، والاتجاه الشعبي الذي كانت تمثله اناشيد ابن قُزمان[١] .

واما من حيث التقاليد والروح العامة ، فما اكثر ما تأثر الاندلسيون بالمحيط ، ولا سيما منذ منتصف القرن السادس للهجرة ، وقد تناول هذه الناحية ع . عفيفي في كتابه : (المرأة العربية ١٣٦ ج ٣) وأورد على ذلك الأمثلة .

ان للتاريخ اثراً يذكر في وجود الشبه الكثير ، ولا سيما في الناحية الاخلاقية ، بين كل من امويي قرطبة ، وامويي دمشق ، وبين الاسبان . فالتشابه بين فئتي الامويين يعود الى انهما ، في الضفتين ، بعضهم من بعض ، وهما على السواء كانا قريبي العهد من عصر البداوة . زد على ذلك ان امويي الاندلس

---

(١) José MigueI R. Morales.
Rélations culturelles entre l,Espagne et le monde Arabe . P.7 - 11

حرصوا على ان يقلدوا اخوانهم في الشرق ، وان يأخذوا عنهم ، فكان بحر الدول اللاتينية ، (على تعبير جياس بابيكروسا ، احد اساتذة جامعة برشلونه الآن) ، كان لا يحمل التجارة فحسب ، بل يحمل حجاج مكة وطلبة العلم الى مدارس مصر ، والعراق ، وسوريا ، وايران ، مما افضى الى الامتزاج الثقافي بين اسبانيا والشرق ، ومما افضى الى تسمية ذلك البحر بالبحر العربي .

واما التشابه بين الاسبان واهل الشام ، على ما بينهما من البعد جغرافياً ، فيرجع الى ان الامصار المتحضرة حول البحر المتوسط ، كانت كلها عند ظهور الاسلام ، تتخلق باخلاق المدنيتين اليونانية والرومانية ، وتجتمع كثرتها في نطاق المسيحية. وقد اسمي هذا البحر بالمتوسط في عهد الرومان، لتوسطه بين الامصار التابعة لامبراطوريتهم . هذا الى ان التشابه بين مدينتي الشام واسبانيا كان يرجع ايضاً الى وحدة المصير في السياسة في كثير من الأزمات : فالفينيقيون اللبنانيون السوريون انشأوا المستعمرات في شبه جزيرة ايبريا ، كما ان اليونان، الذين حكموا سوريا ولبنان من بعد ، اقاموا ايضاً المستعمرات لهم في اسبانيا ، ثم خلفهم عليها القرطاجيون الفينيقيون ، ولما أجلوهم الرومان عنها سنة ١٣٣ ق م . كانت سوريا جزءاً من بلادهم، وظل خلفاؤهم البيزنطيون يبسطون حكمهم عليها حتى الفتح الاسلامي . على ان الشعوب البربرية الثلاثة التي خلفت الرومان في اسبانيا واقامت مملكة الفيزقوطية سنة ٤١٩ م ، هذه المملكة التي استمر الحكم لها حتى الفتح العربي سنة ٧١١ م ، كانت قد اصطبغت بصبغة مدنية البحر المتوسط ، واتخذت النصرانية ديناً لها اسوة بشعوب هذا البحر ، فاجتمعت وقتئذ بسوريا بجامعتي الدين والمدنية . ثم لم تلبث اسبانيا الا قليلاً حتى كان مصيرها مصير سوريا في الخضوع لسلطة العرب (٩٢ هـ = ٧١٢ م) الذين بقوا فيها حتى سنة (٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م) عند سقوط غرناطة .

فكل هذه العناصر من التشابه افضت الى الانسجام بين العرب والاسبان .

ولا تزال ، ولولا العداوة الدينيـة ، وهي مصدر الحروب بينهما ، لعاشوا أشد انسجاماً وفي سلام .

اخلاق المرأة في التمدن العربي الاندلسي

ما اشد ما للمحيط من اثر فعال في تكييف اخلاق الناس . ومن هنا كان الاختلاف الشديد في الاخـلاق بين الانكليز والافرنسيين على ما بينهما من قرب الدار . ومن هنا كان التمدن العربي المغربي ، رغم اتفاقه في المصادر مع اخيـه الشرقي ، ورغم نهجه على منواله يصطبغ بصبغة خاصة غربية لا تتفق كل الاتفاق بالوان مدنية بغداد ومصر .

فقد وجد العرب في الاندلس خميلة نشر الله عليها من سمات الحسن ، وآيات الجمال ، ما تقرّ به الأعين ، وتلذّ الأنفس ، وتثير الخيال ، حتى ان احد الشعراء وصفها بالجنان .

يا آل اندلس لله دركم ماء وظل وانهار واشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم ولو تخيّرت هذا كنت اختار

ووجدوا فيها شعباً مرحاً يستثمر يومه ، ولا يبالي بغده ، شأن الاسبان حتى الآن في القارتين ، شعبـاً استسلم الى نعيم الحياة ، واسترسل يتمتع بأوفى نصيب منها : ترف فأسرف ، واسرف فأتلف .

تلك الجنة وذلك الشعب كانا من شأنهما اغراء الفاتحين ، ودفعهم الى الاستمتاع بها ، والانصياع الى مسالك اهلها ، خصوصاً وقد نعموا بكنوزهم ، وخـيرات بلادهم . بيد ان الوضع السياسي كان يدفع اوائل امويي الاندلس ، على وجـه عام ، الى احتجاز انفسهم ، والانصراف الى تثبيت دعائم دولتهم ، شأن اوائل الخلفاء الامويين والعباسيين والفاطميين . فهم غرباء في بلدهم الجديد ، وتحيط بهم

الاعداء من كل جانب . وهم الى ذلك ، اعداء للدولة العربية القائمة في بغداد التي قوّضت ملكهم بدمشق ، وما زالت تتربص بهم الدوائر .

فهذا الوضع كان يحملهم على التحفظ في سلوكهم ، كما يحملهم على صيانة عصبيتهم العربية . ولذلك فان بطونهم وعشائرهم ، احتفظ كل منها في تلك البلاد ، بوحدته وجامعته كأنهم لا يزالون في تهامة او نجد . فكانت قيس تقيم في موطن ، وتميم في آخر ، التجيبيين في ثالث . وكان بين الرجل وعشيرته عقدة جامعة ورباط وثيق .

غير ان هذا الوضع ما كان مقدراً له الاستمرار بعد ان بلغت الدولة الاموية في الاندلس ما بلغت من بسطة الملك ، والثروة ، والعمران ؛ وبعد ان اطمأنت الى المصير . فحياة الرخاء التي عاشتها ، وحياة القصور المليئة بالجواري والفنانات التي ألفتها ، كان من شأنهما ان يطورا الاخلاق العامة ، ويؤثّرا على المرأة اشد تأثير تبعاً لبدل المقاييس والاعتبارات . على ان التبذل والانصراف الى الملذات وما رافق ذلك من فساد الاخلاق العامة ، لم تبد ظاهرة الا في عهد الحكم الثاني (٣٥٠ – ٣٦٥ هـ = ٩٦١ – ٩٧٦ م) ، ولم تستفحل امورها الا في القرن الخامس للهجرة حيث انفرط عقد العرب هناك بزوال الدولة الاموية ، وقيام ملوك الطوائف . فان هؤلاء الملوك الذين تقاسموا البلاد ، وتنافسوا في أبهة الملك ، والعمران ، وتسابقوا الى ميدان تنشيط العلماء والأدباء ، وأطلقوا المزيد من الحرية ، وافسحوا المجال للمواهب الناضره لأن تنتج افضل نتاج من العلم والأدب ، كما افسحوا المجال لتيار المرح ، الأصيل في ذلك المحيط . فشرعت المرأة الأندلسية تأخذ ، فيما اخذ الناس فيه ، من علم وادب ، ومن لهو ونعيم . حتى ادركت نصيباً من الأدب لم يدركه اخواتها في الشرق ، وحتى تمتعت بحرية لم يسبق لنساء العرب ان تمتعن بها . وان اثارها واخبارها التي بين ايدينا تسمح لنا بان نعتقد انها ساوت الرجال في الاعتماد على النفس والرجولة ، شأن المرأة في القرن العشرين . فلقد تأدبت وتعلمت ، فداخلها التشوق الى الكمال ، وحب

الظهور والجرأة ، وهي مشاعر تراود كل من نال من العلم والمعرفة نصيباً ، ووجد في الظروف متسعاً ، فتطلعت الى محاكاة الرجل في عقد المجالس ، والمحاورات ، والمراسلات ، والمغازلات الشعرية على مستوى ارفع من مستوى المرأة في العصور السالفة حيث كانت تلتزم الافراط في الحياء ، واخفاء العواطف ، وتشعر بضعف الثقة في نفسها ، وتخشى عواقب الاتصال بالرجال . وليس كالأخبار والآثار معيناً على الاحاطة بما كانت عليه المرأة الأندلسية من الانطلاق .

● **الاخبار التي تصور احوال المرأة الاندلسية .**

● لا ندري لماذا أعرض المؤرخون الأندلسيون عن تدوين اخبار المرأة في بلادهم وجمع اشعارها ، وآثارها الادبية ، مكتفين بذكر القليل منها دون تبسط في النقل ولا استفاضة في البحث . لذلك كان لزاماً علينا حينما أردنا ان نتخذ من اخبارها نبراساً يضيء لنا السبيل في تبيان ما اصاب اخلاقها من التطور ، ان نتسقط اخبارها من هنا وهناك ، بغية كشف النقاب عن وجهها الحقيقي . والذي بدا لنا ان الاندلسية مزقت الحجب عن وجهها ومواهبها ؛ ولم يقتصر بعضهن عن حضور مجالس الرجال ، بل أقدمن على فتح ابواب بيوتهن لهم ، على غرار ربات الصالونات في التمدن الحديث من امثال مدام دو جيراردن ومدام انسلو ، والمركيزة رابويه ؛ بل ذهب هذا البعض الى فتح القلوب للحب والغرام دون تستر ولا مبالاة .

ولم تكن الاميرة الولادة بنت المستكفي ، وحيدة زمانها ، في القرن الخامس للهجرة ، تجالس الرجال ، وتحاورهم بجرأة ادبية لا تعرف الاحجام ، فيعشو اهل الادب الى ضوء غرتها ، ويتزاحم الأفاضل على حلو عشرتها ؛ وهي الى ذلك اذا احبت اعلنت ، واذا بغضت اضرمت ، بل ان معاصرتها ، وتلميذتها ، وابنة بلدها ، مهجة القرطبية ، كانت مثلها في الصراحة ، وأشد منها في مجانة

الشعر ، حتى ان ع . عفيفي قال : « حاولنا ان نرى لها شعراً بريئاً نثبته فلم نجد . »

وكان في غرناطة سيدة اخرى تسمى نزهون ، عُرفت مثلهما في مخالطة الرجال ومناظرتهم . وقد ألمح الوزير ابو بكر بن سعيد الى كثرة زوارها ، وكتب اليها مرة ، وكانت الغيرة تطبع قوله :

يا من له ألف خلّ — من عاشق وصديق
اراك خليت للنا — س منزلاً في الطريق

وروى غيره عنها : انها كانت تقرأ على ابي بكر المخزومي الاعمى ، فدخل عليها ابو بكر الكندي ، فقال مخاطباً المخزومي طالباً منه ان يجيز :

لو كنت تبصر من تجالسه — . . . .

فلما رأت نزهون ان استاذها اطال الفكر ، ولم يجب ، قالت :

. . . . — لغدوت اخرس من جلالته
البدر يطلع من أزرّته — والغصن يمرح في غلالته

وخلفهن خلف في القرن السادس استرسل في الحرية ، وهتك ستر الحياء ، وكانت قدوته حنصمة الركونية . كانت هذه من اهل غرناطة تجمع بين المال والادب والجمال ، تجالس السراة والاعيان ، وتتلاعب في قلوبهم . وبسببها قتل ابو سعيد عبد المؤمن ملك غرناطة الاميرَ ابا جعفر بن سعيد غيرة منه عليها . ومن شعرها المكشوف الذي كتبته اليه ، او الى فتى غيره :

ازورك ام تزور فان قلبي — الى ما تشتهي ابداً يميل !
فثغري مورد عذب زلال — وفرع ذؤابتي ظل ظليل

وقد املت ان تظمأ وتضحى اذا وافى اليك بي المقيل
فعجّل بالجواب فما جميل اباؤك عن بثينة يا جميل

على ان ترجل المرأة الاندلسية ، كانت له وجوهاً اخرى تذكرنا بمواقف اختها في صدر الاسلام ، ولا سيما في عهد معاوية ، ابان ما كان الوافدات عليه من انصار علي يحاورنه محاورة تدل على الشجاعة الادبية . فقد انبرى فريق من نساء الاندلس لمراجعة الملوك بحاجاتهن من غير وجل ولا تردد لدفع مظلمة ، او لجلب منفعة . منهن مريم بنت يعقوب الانصاري ، وعائشة بنت احمد القرطبية ، والشاعرة الشلبية ، وحسانة النميرية ، واسماء العامرية . فلما مات والد حسانة لجأت الى الحكم الاموي بأبيات مطلعها :

اني اليك ابا العاصي موجعة ابا الحسين سقته الواكف الديم
قد كنت ارتع في نعماه عاكفة فاليوم آوي الى نعماك يا حكم

فأمر باجراء مرتب لها ، ووقع لها بخط يده تحرير املاكها . ثم لما تولى ولده عبد الرحمن ، جاءته تتظلم من عامله على الحيرة : جابر بن لبيد ، الذي اراد منعها من هذا الحق . وبعد الدخول عليه ، والانتساب ، أنشدته اشعاراً ما اكثر ما تلاعبت بها دقائق المعاني ، واستهلتها بقولها :

الى ذي الندى والمجد سارت ركائبي على شحط تصلى بنار الهواجر

فأخذ الخليفة عبد الرحمن خط ابيه فقبّله ، ووضعه على عينيه ، وامر بعزل الوالي ، واثبت ما منح ابوه لها ، وزوّدها بجائزة .

والشلبية الاندلسية كتبت ايضاً الى السلطان يعقوب المنصور (من دولة الموحدين) تتظلم اليه من والي بلادها شلب ؛ وصاحب خراجها . فعزل الوالي ، وامر لها بصلة ، وحسبك من قولها :

قد آن ان تبكي العيون الأبية　　　ولقد ارى ان الحجارة باكية

وارسلت اسماء العامرية رسالة الى عبد المؤمن بن علي (من دولة المرابطين) تسأله رفع الضريبة عن دارها ، واطلاق اموالها من قيودها ، فأجاب طلبها . ولا بدع ان تبدو جرأة المرأة في هذه الناحية ، لأن الجرأة ، هي وغيرها من الصفات ، اذا استحكمت حلقاتها ظهرت في كل ناحية .

على ان المرأة الاندلسية لم تتأثر بالمحيط الاسباني ابّان عزّ المسلمين فحسب ، ولكنها لم تلبث ، في غضون غلبة الاسبان ، ان تشبهت بالافرنج في المظاهر ، فلبست المناطق الاسبانية ، واعتمرت القبعات الافرنجية ، وخرجت حاسرة الرأس ، كاشفة الصدر . ولا تزال بعض الرسوم التي خلفها الاندلسيون تدل على انسياق الاندلسية في مساق الاسبانية خلال التياث الحكم الاسلامي .

● **الاثار التي تنبيء عن احوال المرأة الاندلسية .**

● وليست آثار النساء الاندلسيات ، وبنات افكارهن ، بأقل دلالة من الاخبار على مجاراتهن الرجال في شتى نواحي الحياة واغراضها . وقد شط بعضهن في تناول الاشارات والكنايات والتصريحات فيما نظمن من شعر ، شططاً يتحرج عنه المتطرفون من الرجال حتى ارتاب الناس في عفتهن ، فالاميرة ولاّدة بنت المستكفي بلغ منها ، على ما تواتر ، انها كانت تنقش بالذهب على المطراز الايمن من عصابتها :

« انا والله اصلح للمعالي　　　وامشي مشيتي وأتيه تيها »

وتنقش على المطراز الايسر :

« امكّن عاشقي من صحن خدي　　　واعطي قبلتي من يشتهيها »

واي امرأة شريفة في القرن العشرين ، الموسوم بتقديس الحرية ، تتجرأ على اللامبالاة الى هذا الحد ؟

ولولأدة من الشعر في الوزير ابن زيدون ، ما يدل على ان روح القرن الخامس للهجرة في الاندلس ، ذلك العصر الذي عاشت فيه ولأدة ، لم تكن بعيدة بمقاييسها الاخلاقية ، واعتباراتها ، عن القرن العشرين . انظر اليها كيف كانت ايام الصفاء والولاء مع هذا الوزير تناشده الحب والوصال صراحة ، وانظر اليها كرة اخرى كيف كانت ، ايام توتر العلاقات بينهما ، توجه اليه من الهجر الفاحش ما لا يستسيغه الرجال . قالت له في حالة الرضى :

ترقّب اذا جنّ الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكتم للسرّ
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسر

وقالت له في حالة المقاطعة والتهاجي :

ولقّبت المسوس وهو وصف تفارقك الحياة ولا تفارق

وفسرت في البيت الثاني قصدها بالمسوس بست صفات من صفات الخيانة والدياثة ، نكرم اذن القارىء وعينه بالعزوف عن ذكرها ، كما نكرم قلمنا من ترديد مثل هذا لخصمها الآخر الاصبحي .

ولم تكن ولأدة فريدة في عصرها بين الاندلسيات في اطلاق الزمام لنفسها ، وفي الاعراب عن عواطفها دون مبالاة . بل كانت نزهون من اهل غرناطة شبيهة لها في هذا الميدان ، وفي مجالسة الوزراء والامراء ، والاشتراك بالمساجلات الادبية . ومن قولها في وصف وصالها مع حبيب :

لله درّ الليالي ما احسنها وما احسن منها ليلة الاحد

لو كنت حاضرنا فيه وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر الى احد
ابصرت شمس الضحى في ساعدي قمر بل ريم خازمة في ساعديْ اسد

وما اروع التشبيه في البيت الاخير حيث صورت الانوثة الناعمة بين سواعد القوة الجبارة !

ومثلها كانت ام الكرام بنت المعتصم ملك المرية : فقد عشقت ابن السمسار وهو فتى بارع الجمال من مدنية دانية ، ولكنها لم تتستر ، ولم تتورع عن القول فيه :

يا معشر الناس لا تعجبوا مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل بدر الدجى من افقه العلوي للترب
حسبي بمن اهواه لو انه فارقني تابعه قلبي

اما حمدة بنت زياد فلم تنج من التهمة رغم اعتقاد بعضهم انها صوفية . فلما وصفت بلدها وادي ياش ، وصفاً رائعا ، قال بعض المؤرخين : انها انما ابدعت لان حبيبتها كانت ترافقها ، وهي التي اثارت شاعريتها وابداعها ؛ ومن قولها في هذه القصيدة ، وهو قول يشير ضمناً الى المراودة بغمز العين :

لها لحظ ترده لأمر وذاك اللحظ يمنعني رقادي

وكذلك حفصة بنت الرشاش الركونية ، فقد اتهمت بعفافها ، لما صدر عنها من الشعر المكشوف ، ولما قيل فيها من الافصاح غير المألوف . ومن قولها :

ثنائي على تلك الثنايا لانني اقول على علم وانطق عن خبر
وانصفها لا اكذب الله انني رشفت بها ريقاً ارقّ من الخمر

ومن قول ابي جعفر بن سعيد في وصف خلوة لهما معاً ، وصف مكان الخلوة ثم قال :

يُرى الروض مسروراً بما قد بدا له عناق وضم وارتشاف لمقبل

وهذا يعيد الى الذاكرة التشبيب بالنساء في عهد معاوية وغيره ، مع الفارق ان التشبيب كان في العهد الاول بريئاً ، اما في غضون الحضارة الاندلسية إبان حكم ملوك الطوائف وغيرهم ، فكثيراً ما كان وصفاً حقيقياً لمجالس الوصال .

والذي يلفت النظر ، ان كل الخليعات اللاتي ذكرناهن ، كن من سيدات المجتمع مما يحملنا على التساؤل : أكانت الخلاعة محصورة بهن دون سائر الشعب ؟

والواقع ان الفساد وان كان يبدأ بالخاصة الا انه اذا بدأ بها يوشك ان ينتشر بين العامة . وفي الامثال السائرة : « تعرف السمكة برأسها . »

ومما يلفت النظر ايضاً ، انتشار الرغبة عن الزواج بين نساء الطبقة العالية ، وايثارهن العزوبة ، وما فيها من انطلاق ، وحرية واستقلال ، على حياة الزوجية ، وعلى ما يترتب معها من قيود ، وواجبات . اعتبر ذلك في ولّادة : فانها مع طموح اكابر عصرها ، وبينهم اولاد ملوك ، لم تقبل ان تكون لأحدهم زوجة . وكذلك حفصة الركونية . وكذلك أبت عائشة بنت احمد القرطبية الزواج من شاعر ، وقالت مستخففة به :

انا لبوة لكنني لا ارتضي نفسي مناخاً طول دهري من احد
ولو انني اختار ذلك لم اجب كلباً ، وكم غلّقت سمعي عن اسد؟

وقد رغب رجل اشيب في ام العلاء بنت يوسف الحجارية ، فهزئت به وكتبت اليه :

الشيب لا ينجع فيه الصبا بحيلة فاسمع الى نصحي
فلا تكن اجهل من في الورى يبيت في الحب كما يضحي

وما اكثر ما يمكن ان يُفهم مما ينطوي تحت الرغبة عن الزواج من معان ؟

● **ما وراء هذه الاخبار والآثار .**

● هل تصور هذه واقعاً ، او هي خيال شعراء ؟ بين هذين الاتجاهين اختلفت الآراء ، وتباينت الاعتقادات . فلنستمع الى رأي احمد اجاييف اولاً ، فهو يقول : « كان الاندلسيات مطلقات الحرية ، يختلطن مع الرجال ، فكن يحضرن الاحتفالات الرسمية في الاعياد وغيرها ، ويشهدن التمرينات والالعاب العسكرية . وكن يحضرن الصلاة في المساجد ، فترتاح نفوس الشعراء لوجودهن. اذ كنّ كزهر الربيع الزاهر في الرياض الفيحاء . وكان قادة العرب يسيرون الى القتال ، باسم الله ، متحمسين لذكر معشوقاتهم ، وكان كل قائد منهم ينقش سلاحه ، او عمامته برسم خليلته ، وهي كانت تحرضه على الاقدام والاستبسال. فيقتحم المخاطر ، ويعرّض نفسه للمهالك في سبيل الحصول على الشهرة ارضاء لها . والى هذا فلم يكن تأثير المراة على الرجال يقتصر على هذه الناحية فقط ، بل كانت لها اليد الطولى ، والقدح المعلّى في صعيد انتشار المعارف ، وارتفاع شأن الأدب . »

فهذا الكاتب الروسي ، الذي كان على راي الفئة التي تقول في انطلاق الأندلسيات، نوه بما كان للحب عندهم من اعتبار حتى اصبح الحافز لهم للاستبسال في القتال . غير ان ما اشار اليه من نقش صورة المحبوبة على السلاح ، او العمامة، قد يكون اسرافاً في الفهم ، خصوصاً وانه قد اطلق هذا القول على جميع القواد .

على ان بعضهم يرى ان تلك الأشعار الاباحية التي نسبت لفريق من النساء كالولّادة ، وحفصة الركونية ، ونزهون الغرناطية ، وحمدة بنت زياد ، كانت من قبيل التغزل والتخيل ، شأن سائر الشعراء الذين وصفهم القرآن بقوله :

« ألم ترَ انهم في كل واد يهيمون، وانهم يقولون ما لا يفعلون. » سورة الشعراء. ودليلهم على هذا ان التاريخ، الذي وصف ولادة باللامبالاة، هو الذي روى ايضاً في مكان آخر: « وهي موصوفة بالصيانة والعفاف، لم تنزع الى ريبة، او تنزلق الى مأثمة، واقامت حياتها لم تتزوج. » ومما استدلوا على عفتها ما ورد في رسالة لابن عبدوس، وهو مزاحم ابن زيدون على حبها، وقوله:

وغرّك من عهد ولادة　　سراب تراءى وبرق ومض
هي الماء صفت على قابض　　ويمنع زبدته من مخض

وكذلك احسن بعضهم الظن في المتهمة الاخرى بالتبذل: حفصة الركونية، فقالوا: « ان جملة من اجلاء عصرها لم ينلهم منها ولا لفتة سوى ابي جعفر بن سعيد. وكانت معه على عفة زائدة. »

ونحن وان كنا نميل الى حسن الظن، فنجري مجرى هؤلاء، لأن بعض الظن اثم، الا اننا لا نستطيع ان نبرىء الحضارة الاندلسية، منذ عهد ملوك الطوائف، من تهمة الانطلاق في الحرية على مقاييس جديدة. ذلك لأن هذا الانطلاق امر طبيعي حتى توفرت اسبابه من الاستقرار، والثروة والرخاء، والنضوج العقلي، إبان ضعف الوازع الديني. ولاسيما في بيئة مثل البيئة الاسبانية.

فقد راجت دواعي الهوى هناك منذ عهد الحاكم بن عبد الرحمن (٣٥٠ - ٣٦٥ هـ = ٩٦١ - ٩٧٦ م) حيث كانت دولتهم قد بلغت الأوج، سياسياً واقتصادياً وثقافة. ولكن الهوى الذي لم يقتصر على الحب والغرام، بل تعداه الى الاشاعة باشعارهم، والى تناول هذه الاشعار وصف خلواتهم، وما كان فيها من وصال وانسجام، هذا الهوى المكشوف لم ينطلق الا ابتداء من حكم ملوك الطوائف بعد الامويين، وذلك في القرن الخامس للهجرة.

وهنا مجال للاستدراك ، فالمؤرخون يذكرون ان التهتك والتبذل والخلاعة فشت في الأندلس منذ ذلك التاريخ ، واستمرت الى القرن الثامن وما بعده . وفي هذا نظر لأن سلاطين البربر الافريقيين : المرابطين، والموحدين ، والمرينيين، انما جاءوا تباعاً الى الاندلس منذ اواخر القرن الخامس للهجرة ، وكانوا لايزالون على البداوة متعصبين للدين ، ومحافظين على الاخـلاق ، ونخص بالذكر منهم المرابطين . والمفروض بهم ، وهم كذلك ، ان يدفعوا ما هو في اعتبارهم من الفساد ، كما دفعوا الاعداء عن تلك الأمصار حيناً من الزمن . الا ان يقال ان الفساد قد استفحل حتى ان جهودهم لم تعد تقوى على دفع تياره . هذا وقد ازداد التيار طغياناً في عهد بني الأحمر اصحاب غرناطة (٦٢٩ – ٨٩٧ هـ) وهم البقية الباقية في الاندلس من اصحاب الممالك الاسلامية ، فجرفهم حتى راحوا يتشبهون في اعدائهم المحيطين بهم في التقاليد ، والعادات ، وحتى في الملابس . وفي عهدهم تفرنج الاندلسيون ، او كادوا ، بعد ان نشر آباؤهم مبادىء العروبة وتعاليمها في اوروبا .

ثقافة المرأة الاندلسية .

قيل « ان السعيد من اتعظ بغيره » وهي كلمة حكيمة اتعظ بها عبد الرحمن ابن معاوية الذي نجا من القتل ، ابان نكبة اسرته الاموية في دمشق ، وفرّ من البلاد ، وأسس الدولة الاموية في قرطبة ، وعرف باسم عبد الرحمن الداخل (١٣٨ – ١٧١ هـ = ٧٣١ – ٧٦٤ م) . فهو ومثله خلفاؤه كانوا يتحاشون اخطاء اسلافهم في الشام ، وينشطون الى الاعمال النافعة التي تدعم قواعد المملكة .

كان عبد الرحمن يتوخى ان يجد في وقته المبذول لتأسيس الدولة ، ظروفاً للانشاء والتعمير ، فأنشأ الطرق ، وحفر الجداول للري ، ونشر العلم ، وعمّر المساجد ، ودعم الاسطول . وخلفه ابنه هشام ، فانصرف الى تعزيز العلم ،

وتعهد اللغة العربية بالعنـاية حتى قامت ، في شتى جوانب المملكة ، مقـام اللسان اللاتيني . اما عهد ابنه الحكم (١٨٠ -- ٢٠٧ هـ) فكان عهد اشتغال بدفع شارلمان وغيره ، واطفاء الثورات الداخلية ، فتعثرت العناية بنشر العلم ؛ ولكنها لم تلبث ان استعادت نشاطها في عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٧- ٢٣٨ هـ) الذي عاصر المأمون ، وتحداه في تأييـد الفلسفة . ولكن الحروب والثورات التي شبت في ايام محمد الاول ، (٢٣٨ – ٢٧٢ هـ) والمنذر الاول ، (٢٧٢ – ٢٧٥ هـ) وعبـدالله الاول ، (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ) صرفت هؤلاء عن الناحيـة العلمية ، حتى اذا صار الملك لعبد الرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ = ٩١٢ – ٩٦١ م) ، واستتبت له الامور تحول الى العمران ، ولا سيما الى تنشيط العلم ، فبنى مدرسة الطب في قرطبة ، التي احتفى الاسبان ، قبل عدة سنين ، بذكرى مرور ألف سنة على تأسيسها ، وانشأ كثيراً من المدارس ، بالاضافة الى اهتمامه بتأمـين القوة العسكرية . فكان عهده بمثابة فاتحـة العصر الذهبي للأمويـين . وخلفه ابنه الحكم الثاني (٣٥٠ – ٣٦٥ هـ) ، وكان عالماً فقيهـاً ، فلم يدّخر وسعاً في نشر المعارف ؛ بل ان انشغاله بها بلغ حد اهمال الجـانب السياسي ، والتهاون في الناحية الاخلاقية ، فكان ذلك بدء الانحطاط في الناحيتين .

كان عهد الحكم الثاني العصر الذهبي للعلم في الاندلس ، ولا سيما في العاصمة قرطبة : فقـد قرّب هذا الخليفة العلمـاء والادباء ، واستدعى فريقاً منهم من الشرق ، وأجزل لهم العطاء ، ونشر المدارس المجانية ، وفتح المكتبات العامة ، وانشأ الجامعة الكبرى . وكانت مكتبة قرطبة ، على ما رووا ، تضم اربعـة ملايين مجلد ، واصبحت جامعتها تبزّ بشهرتها الأزهر بمصر ، والمدرسة النظامية ببغداد . وقيـل ان قرطبة عرفت في عهده الاكاديمية العلمية قبل اي مدينـة اخرى . وانها ، على ما روى خ م موراليس ، المدير العام للعلاقات الثقافيـة بوزارة الخارجية الاسبانية ، « اصبحت مركز المعرفة في الغرب ، والمدينـة الاكثر ثقافة فيه دون استثناء« روما » .

بيد ان انتشار المعارف تعدى العاصمة الى سائر انحاء المملكة . ويقول دوزي : « ان في كل الاندلس لم يكن يوجد رجل اميّ ، بينما لم يكن يعرف القراءة والكتابة في اوروبا معرفة اولية ، الا الطبقة العالية من القسس . »

ولكن الدولة الأموية افضت عقب هذا الازدهار العلمي الى ابنه هشام ، وهو صبي ، فانتكست احوالها ، خصوصاً بعد موت الوزير المصلح الحاجب محمد المنصور . فكان ما كان من خروج الطامعين بها حتى كانت النهاية الاليمة سنة ٤٢٢ هـ . وقد اشار ابن الخطيب الى هذا الوضع وقال :

حتى اذا سلك الخلافة انتثر — وذهب العين جميعاً والأثر
قام بكل بقعة مليك — وصاح فوق كل غصن ديك

على ان ملوك الطوائف هؤلاء ، الذين اشار اليهم ابن الخطيب ، لم يقصّروا في رعاية العلم والأدب . بل تنافسوا بينهم في ذلك ، وفي عقد مجالس المناظرات وفي نشر المدارس ، حتى قلّ ان تجد في عهدهم امياً ، وحتى ان المخانيث كانوا يأخذون من الأدب بحظ وافر ، ولهم فيه مؤلفات . وناهيك بالنساء اللواتي كن قد أدركن مستوى الرجال ، او كدن ، في العلوم الأدبية .

● **النهضة النسائية في الاندلس .**

● حفلت الاندلس بنهضة نسائية عارمة منذ عهد ملوك الطوائف، تختلف نوعاً ما عن مثيلاتها في عهود العباسيين والفاطميين وغيرهم : ذلك بان المرأة في العهد العباسي ، والفاطمي ، كانت اوفر شبهاً بالمرأة الغربية في زمننا . كلتاهما اخذت حظاً كبيراً من العلم ، وجرت شوطاً واسعاً في الآداب بقدر ما اتيحت لكل منها من فرص تحريك المواهب ، وشحذ الذهن . واما المرأة الاندلسية فان مساهمتها في الثقافة كانت تبرز ، على الاكثر ، في مجالات الآداب من شعر

وانشاء ، ومناظرات ومساجلات . ولعل ذلك يعود الى اجواء الاندلس المرحة التي توحي الشعر ، وتثير الخيال اسوة بلبنان .

ذلك « بان الله قد وضع عبقرية المرأة في قلبها » كما قال لامارتين . فلما وجدت هذه العبقرية ، في اجواء الاندلس المرحة ، وفي حياة الاندلسيين الزاهية منفذاً للتعبير عن عواطفها أقبلت على الشعر والادب اوفر من سواهما ، لانهما ترجمان الشعور ، خصوصاً « وان المرأة لا تعنى بشيء مثل عنايتها بما له علاقة بشخصها وقلبها » على ما قالت مدام غيزو .

وهناك سبب آخر شديد الاثر يتعلق بالوراثة . فالحضارة الاندلسية كانت ذات صبغة عربية ، تكاد تكون صافية خلافاً لحضارة بغداد . والعرب شعراء بالفطرة . فلما انتفضت المرأة الاندلسية انتفاضتها الثقافية ، جنحت نحو الادب ، وعنيت بالشعر عناية اختها الاموية في الشام من قبل ، اكثر من كل شيء آخر .

ومن هنا كان في الاندلس ، على ما روى بعض المؤرخين ، ستون ألفاً من الشاعرات . وكان اكثرهن في غرناطة ، وهؤلاء كنّ ابرع الاندلسيات في صوغه ومعرفة معانيه . وكنّ يدعون بالعربيات ، على ما جاء في كتاب نفح الطيب ، بدلاً من غرناطيات ؛ لأنهن نهجن نهج العرب في النظم : والتزام الفصاحة في المعنى .

بيد ان حضارة الاندلس لم تخل من نسوة كانت لهن مشاركه في العلوم ، حتى ان نساء الخلفاء والملوك كنّ في غنى عن الاطباء بالطبيبات ، وعن المعلمين بالمعلمات . ومن الطبيبات الشهيرات اخت الحفيد بن زهر ، وابنتها . نوّه باقتدارهما صاحب طبقات الاطباء ، ولا سيما في الامراض النسائية . وكان المنصور بن ابي عامر (٤١٢ - ٤٨٣ هـ) لا يدعو احداً غيرهما لمعالجة اهله . واما الاستاذات فكثيرات . ومنهن مريم بنت ابي يعقوب الانصاري . قال ابن دحية عنها في المطرب : « اديبة شاعرة مشهورة ، كانت تعلم النساء الادب » ، وقال

غيره عنها : « كانت تغدو على بنات سادات اشبيلية فتعلمهن القريض . وقد تخرج في مدرستها طائفة من شهيرات النساء . » وأورد ع . عفيفي بين الاستاذات اسم الشاعرة العروضية من بلنسية ، وذكر : « ان العالم يوسف بن نجاح اخذ عنها علم العروض . »

واما العالمات في الشؤون الدينية والحافظات للقرآن ، فلا يحصى عددهن . وقيل انه كان في الأندلس ستون ألف حافظة للقرآن ، ترفع كل واحدة قنديلا فوق باب بيتها ، في الليل ، اشارة الى ان هناك حافظة ، وذلك من باب التميز لها على غيرها .

هذا وكان للاماء في الأندلس نصيب من تلك النهضة ، الا انه نصيب متواضع بالنسبة لما كان لأترابهن في الشرق العربي . ذلك بأن النهضة النسوية الاندلسية قامت على سواعد الحرائر ، خلافاً لما حدث في ايام العباسيين وغيرهم.

وبعد هذه الالمامة عن النهضة النسائية الأندلسية ، يطيب لنا ان نفصّل ، فيما يلي ، ما اجملناه استيفاء لهذه الدراسة المفيدة .

● **شاعرات الاندلس .**

● الانصراف للبنيان والفتح في صدر الدولة الأموية الاندلسية ، خلال ايام عبد الرحمن الاول وابنه هشام وحفيده الحكم (٩٢ – ١٧١ هـ) استلزم حياة الجد والتعالي عن اللهو والكماليات . بيد ان الشعر كان محبباً اليهم بالفطرة شأن اجدادهم العرب . ولعل طبيعة الاندلس ، وما فيها من جمال وزهو سرعان ما اثارت استعدادهم الوراثي ، فأقبلوا على النظم والانشاد . واول من اشتهر ، في ذلك العهد ، حسانة النميرية بنت ابي الحسن من البيره . كان ابوها شاعراً في القرن الثاني للهجرة ، فأخذت عنه . وبلغت القرن الثالث . ولها مدح في

الخليفة الحكم بن هشام ، ثم في عهد ابنه عبد الرحمن الثاني (٢٠٦–٢٣١ هـ). وقد امر الأول باجراء مرتب لها وانصفها الثاني من والي مدينتها الذي حاول ان يمنع عنها ذلك المرتب . وقد مدحته شاكرة بقولها :

ابن الهشامين خير النـــاس مأثرة   وخير منتجع يومـــاً لرواد
ان هزّ يوم الوغى اثناء صَعْدَته   ردى انابيبها من صرف فرصاد
قل للأمـــام ايا خير الورى نسبا   مقـــابلاً بين آباء واجداد
جوّدت طبعي ولم ترض الظلامة لي   فهـــاك فضل ثناء رائح غادي
فان أقمتُ ففى نعماك عاكفة   وان رحلت فقد زوّدتني زادي

وشعرها وان لم يجعلها في الطبقة الاولى من الشاعرات الا انه جعلها من بواكير النهضة النسوية في الاندلس .

وفي عهد عبد الرحمن النـــاصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) استتب الأمر للامويين ، وساد الصفاء ، والامان . وما ان انصرف الخليفة الى بعث النهضة العلمية الادبية حتى اقبل الاندلسيون على الشعر ايما اقبال . وازداد الشعر ازدهـــاراً من بعد خلال عهد كل من ابنـــه الحكم نصير العـــلم ، وحفيده هشام ، والتمعت اسماء شاعرات كثيرات في سائر انحاء الاندلس ، ولا سيما في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

ففي قرطبة استرعت الانظار عائشة بنت احمد احدى بنات سراة العاصمة . وصفها ابن حيان بأنها « اجمل واعقل واعلم نساء عصرهـــا » . دخلت يوماً على المظفر بن المنصور بن ابي عامر ، وبين يديه ولد ، فارتجلت قصيدة مطلعها :

اراك الله فيه مـــا تريد   ولا برحت معـــاليه تزيد

ختمتها بقولها مادحة :

فأنتم آل عامر[1] خير آل   زكا الأبناء منكم والجدود
وليدكم لدى رأي كشيخ   وشيخكم لدى حرب وليد

وفي وادي الحجارة برزت شاعرة اخرى ، وكاتبة فاضلة تدعى حفصة بنت حمدون ومن شعرها :

رأى ابن جميل ان يرى الدهر مجملا   فكل الورى قد عمهم غيث نعمته
له خلق كالخمر بعد امتزاجها   وحسن فما احلاه من حين خلقته
بوجه كمثل الشمس يدعو ببشره   عيونا ويشريها بافراط هيبته

وفي وادي آش برزت وقتئذ حمدة بنت زياد ، وكانت خنساء المغرب في الشعر والفصاحة ، واشهر شاعرات عصرها . وفي شعرها انوثة كاملة ، وسهولة تامة وخيال فسيح . ولها شعر بوادي آش مشهور ختمته بالغزل قائلة :

لها لحظ تردّده لأمر   وذاك الأمر يمنعني رقادي
اذا سدلت ذوائبها عليها   رأيت البدر في افق السواد
كأن الصبح مات له شقيق   فمن حزنٍ تسربل بالسواد

وما اطرف الاشارة في قولها : « تردّده لأمر ». ومن شعرها ايضاً وهو ابلغ ما ادركته صناعة النظم :

ولما ابى الواشون الا فراقنا   وليس لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على اسماعنا كل غارة   وقلّ حماتي عند ذاك وانصاري
غزوتهم من مقلتيك وادمعي   ومن نَفسي بالسيف والسيل والنار

---

(١) ال عامر نسبة الى محمد بن ابي عامر وزير هشام بن الحكم . استبد دونه بالسلطة ، ولقب نفسه بالملك وبالمنصور. وخلفه تباعاً ولداه المظفر والناصر الذي ثار عليه زعماء الامويين اذ ساءهم اغتصاب هوءلاء الحكم، وقتلوه سنة ٣٩٩ ه .

وقد رأيت في المجلد الرابع لمجلة المنار ان حمدة كانت متصوفة ، ولولا ان للعشق الالهى اضراباً يقوم على مـا يشبه ذلك من الغزل في الشعر لشككنا في صحة هذا الخبر .

وكانت اختها زينب شاعرة ايضاً ، ولكنهـا لم تدرك مرتبتها ولا شهرتها .
وفي مدينة غسان، من اقليم المرية، برزت، في القرن الرابع للهجرة ، شاعرة مجيدة ، وراوية للشعر معروفة اسمها الغسانية . ومن شعرها :

عهدتهم والعيش في ظل وصلهم   أنيق وغصن الوصل اخضر فينان
ليالي َسعد لا ُيخاف على الهوى   عتاب،ولا ُيخشى على الوصل هجران

وفي المريّة لمع اسم زينب، وهي من بنات البيوتات فيهـا . وكانت اديبة شاعرة يدل نظمها على رقة الشعور ، ومنه قولها :

يا ايها الراكب الغـادي مطيته   عرّج انبئك عن بعض الذي اجد
ما عالج الناس من وجد تضمنه   الا ووجدي بهم فوق الذي وجدوا
حسبي رضاه واني في مسرته   ووده آخر الايام اجتهـد

واما المائة الخامسة للهجرة فهي وان كانت ، بالنسبـة للأسرة الأموية الأندلسية ، عهد اضطراب لما قام بين العرب والبربر من صراع انتهى بزوال دولتهم (٤٢٢ هـ.) الاّ انها كانت ، بالنسبة للتمدن العربي ، عهد ازدهـار ونضوج ، وتطور كبير في الاداب والاخلاق . ففيهـا تهذبت فنون الشعر ورقت مبانيه ومعانيه ، وعرف تاريخ الادب ، لأول مرة ، ما استحدثـه القوم من مقطوعات وموشحات ينظمونها اسماطاً اسماطا .

وكانت اديبة ذلك العصر الأميرة ولادة بنت الخليفة محمد بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفي (٤١٤ — ٤١٦ هـ) . غلب ابوها على امره ، وقتل ، ولم

يخلفه على العرش الا اثنان فقط من الأسرة الأموية ولمدة بضع سنين فقـط .
كانت ولادة اول من سنّ للنسـاء سنة الانكشاف ، اذ اتخـذت قصرها منتـدى أدبياً يتخلف اليـه الوزراء والعلمـاء ، وكلهم ادباء . وكانت تساجلهم ، وتناظرهم . وما زال تاريخهـا يوحي الكثير من مواقفهـا الطلقة مع الوزير الاديـب ابن زيـدون ، وهي تقول له ابان مـا كان يعشقها وتعشقـه :

ودّع الصبرَ محبٌ ودعـك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السنّ على ان لم يكن زاد في تلك الخطا اذ شيعك
يا اخا البدر سنـاءً وسنى حفظ الله زمانا اطلعـك
ان يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك ؟

وهو يقول لها من قصيدة مشهورة :

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً اليكم ولا جفّت مآقينا
يكاد حين تنـاجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تآسينا

غير ان هذا الغرام ، بين ولادة وبين ابن زيدون ، لم يلبث ان انقلب الى بغض وهجاء . وتحولت عنه الى الوزير ابن عبدوس ، واصبحـا في الحب قلباً واحداً . ولهما اشعار رقيقة تبادلاها ، واخرى اتسمت بدفـاع حبيبها الثاني عنها ، وتنويهه بعفافها ، وطهارتها . كل ذلك طريف ولكن المقام لا يتسع لذكره هنا .

وقيل ان ولادة لم تكن تحب ابن عبدوس ، ودليلهم على ذلك تهكمها به احياناً ، فقـد مرّت به يوماً وهو يجلس امام بركة في داره امتزج ماؤهـا بالاقذار فقالت له :

انت الخصيب وهذه مصر فتدفّقا فكلاكم بحر

وهذا البيت هو مطلع قصيدة لأبي نواس مدح بها الخصيب عامل الرشيد على مصر ، فكانت الجائزة ان ملأ الخصيب فم ابي نواس جواهر .

وقد نقلت ولادة هذا البيت من المدح الى الذم . ولكن هذا لا يكفي للدلالة على انها كانت تبغض ابن عبدوس . فقد يكون هذا من باب المداعبة . وقد عمرت ولادة وتوفيت عن عمر يناهز الأربع وثمانين سنة .

وكان عصر ولادة حافلاً بشاعرات أخريات في أنحاء البلاد ، اشهرهن :

- ام العلاء بنت يوسف ، الملقبة بالحجّارية ، نسبة الى بلدها وادي الحجارة الذي لا يزال حتى الآن يحمل هذا الاسم . وكانت اديبة ، ولها موشحات . ومن شعرها :

كل ما يصدر عنكم حسن وبعلياكم يُحلّى الزمن
تعطف العين على منظركم وبذكراكم تلذُّ الاذن
من يعش دونكم في عمره فهو من نيل الاماني يُغبن

- أم الكرام بنت المعتصم بن حماد ، ملك المرية . كانت الى شعرها تنظم الموشحات . وقد نظمت بعضها في فتى اشتهر بالجمال اسمه ابن السمسار . وكانت تعشقه . ومن شعرها فيه :

يا معشر الناس لا تعجبوا مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل بدر الدجى من افقه العلويّ للترب
حسبي بمن اهواه لو انه فارقني تابعه قلبي

● امة العزيز بنت دحية : قال ابن دحيـــة عنها في المطرب : « وأخت جدي الشريفة الفاضلة امة العزيز الحسنية » . وكانت شاعرة . ومن بيت شريف .

● مهجة بنت عبد الرزاق ، نسب لها بعضهم الأبيات التي يستشهدون بها في علم البديع ، ومطلعها :

ولما أبى الواشون الا افتراقنا   وما لهم عندي وعندك من ثار

وهذه الابيات هي ، على الأرجح ، لحمدة بنت زياد ، كما اسلفنـــا . ومن شعر مهجة البديع :

لحاظكم تجرحنـــا في الحشا   ولحظنـــا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بـذا   فما الذي أوجب هذا الصدود

وفي القرن السادس للهجرة ، في عهد دولة الموحـدين البربر ، ازداد الشعر رواجاً ، وأقبل عليه النساء اقبال الرجال . وكان يحفزهم اليه ، اتساع نطاقه ، ودخوله في سياق جذاب جديد ، وذلك بالاضافة الى حياة الزهو والانطلاق التي غمرت الاندلس .

وفي هـــذا القرن كانت حفصة الركونية من اشراف غرناطة عاصمة بني الاحمر تشبه ولأدة بقرطبة في القرن الســـابق — تشبهها بالاعتماد على النفس ، والرجـولة ، وبفتح ابواب قصرها لامراء زمانها ، وادبائه ، وعلمائه . وكانت شاعرة مكثرة متفننة ، واديبة حسنه المعاشرة . ومن شعرها الرقيق .

سلامٌ يفتح زهر الكمام   وينطق بالخير وُرْقَ الغصون

على نازح قد ثوى في الحشا   وان كان تُحرم منه الجفون
فلا تحسبوا العبد ينســاكم   فذلك والله ما لا يكون .

وقد نسبوا اليها هذا الشعر اللطيف :

اغار عليك من عيني ومني   ومنك ومن زمانك والمكان
ولو اني خبأتك في عيـوني   الى يوم القيامة ما كفاني

وكانت تعاصر حفصة سيدة اخرى اشتهرت مثلهــا بالأدب والشعر والنثر اشتهارها في مناظرة الشعراء والامراء . واعني بها الشلبية التي غلبت عليها نسبة بلدها شلب . كتبت تتظـلم من والي مدينتها الى السلطان يعقوب المنصور [١] شعراً ، وهو من الشعر القصصي ، استهلته بقولها :

قد آن ان تبكي العيون الآبية   ولقد ارى ان الحجارة باكية

وختمته بهذين البيتين :

شلب كلا شلب ، وكانت جنةً   فاعادها الطاغون نارا حامية
عاثوا وما خافوا عقوبة ربهم   والله لا تخفى عليه خــافية

ثم عاصر هؤلاء وخلفهم فئة من الشعراء والشاعرات استخفت بالشعر حتى قنعت منه بالنظم ، وجعلته يقوم مقام النثر في المراســلات . وكان يهوّن عليهم امره ما سبق لغيرهم من التسامح في الخروج عن قواعده . ومن

(١) من ملوك الموحدين البربر (٥٨٠ – ٥٩٥ هـ) وفي القرن الثــاني عشر للميلاد اجتاز العدوة الى الاندلس وحكمها ، وكان معاصراً للسلطان صلاح الدين الايوبي.

هذا القبيل شعر بثينة بنت المعتمد بن عباد [1] . فقد وقعت في الأسر بعد نكبة أبيها ، فبيعت مع الاماء من رجل وهبها لابنه ، فرغب في زواجها . فعرضت له نسبها ، وان من واجبها استشارة ابيها ، وهو اسير ايضاً في مكان آخر . فكتبت اليه تعرض امرها ، وتسترضيه بقصيدة استهلتها بوصف اسرها ومصيرها ، وانهتها بقولها :

فخرجت هاربة فحازني امرؤ قد صانني الا من الانكاد
وارداني لنكاح نجل طاهر حسن الخلائق من بني الامجاد
فمضى اليك يسوم رأيك بالرضا ان كان ممن يرتجى لوداد
فعسى رميكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والاسعاد

ورميكية هي والدتها تحدثت عن ادبها زينب فواز في كتابها الدر المنثور (ص ٤٢) وعرضت بعض اشعارها .

واما شعر بثينة وامثاله ، وان كان يجري على نظام الشعر وقوافيه ، الا انه ، في الواقع ، خال من روح الشعر وروعته . وقد استساغه المتأخرون من أهل الحضارة الاندلسية فكان نقطة سوداء في صحيفتها البيضاء . وكان « العيب الذي يوقّي شاعرات الاندلس المجيدات من العين » ، كما قال ابن الرومي . »

- **اديبات الاندلس**

- كان شاعرات الاندلس ، اللواتي نوهن بهن ، في طليعة حاملات لواء

---

(١) من ملوك الطوائف وهو آخر ملوك بني عباد باشبيلية الذين حكموا من ٤١٤ الى ٤٨٤ هـ.

الادب ، يجمع اكثرهن بين فصيح المنثور ، ورقيق المنظوم ، ويلم بفنون اخرى من المعرفة . وكانت الى جانب هؤلاء طبقة اخرى من النساء تحفظ اشعار العرب واخبارها ، وتساهم في النهضة الادبية وازدهارها . ومن هنا كان الكلام عن اديبات الاندلس يجمع بين فريق من شاعراتها ، وبين فريق آخر من متأدبات عرفن بالادب دون ان يكن شاعرات .

ولما اتيح للأمويين اقامة دولتهم في الاندلس ، واهتموا بتشييد بنيانها ، تشبهوا بخلفاء المشرق في العناية بالثقافة ، وبتعزيز اهلها . وكانت المساجد وقتئذ بمثابة المدارس تعقد فيها حلقات الدروس . وكان الاقبال على هذه الحلقات يشمل بعض النساء في قرطبة العاصمة ، وفي سواها ، فيقصدن اليها متنقبات محتشمات . وقد ادى ذلك الى ظهور عدد لا كفاء له من المتأدبات ، العارفات بأصول الدين معرفتهن بفنون الادب . وكان عددهن يزداد تبعاً لازدياد اهتمام الخلفاء المتعاقبين بالعلوم والآداب .

ثم اندثرت الخلافة الاموية هناك في صدر المائة الخامسة للهجرة ، وقام على انقاضها ملوك كثيرون عرفوا بملوك الطوائف . وكان هؤلاء ممن اصابوا نصيباً وافياً من الرقي في العهد البائد فتمثلوا بخلفاء قرطبة وبغداد في العناية بالثقافة والمعرفة ، وتنافسوا فانحسر هذا التنافس عن افضل نتاج في ازدهار المدنية ؛ كما ان صدورهم اتسعت فساهمت المرأة بأوفى نصيب في تلك الحضارة .

كانت ولادة بنت المستكفي رائدة نساء العصر بالاداب وفريدة زمانها . وقد اغرم بأدبها الوزيران ابن زيدون وابن عبدس . واعجب بها الكثيرون من معاصريها . ونشأت على ادبها كثيرات من فتيات زمانها وما بعد ؛ ومنهن طائفة انكشفت على سننها المتحررة ، ومنهن طائفة اخرى حافظت على الآداب الدينية.

● فمهجة القرطبية لازمت ولادة ، وتأدبت عليها ، واجادت في مدحها. ثم وقع بينهما الخصام فانقلبت عليها، واسرفت في هجوها.

● ومريم بنت يعقوب الانصاري من شلب انتقلت الى اشبيلية ، وكانت تغدو على بيوت اهلها ، فتعلم نساءها الادب والشعر . وقد احتلت منزلة مرموقة عند اجلاء البلد . ومن قولها في مدح احد الملوك .

من كان والده العضب المهند لم يلد من النسل غير البيض والاسل

● ونزهون كانت اديبة كبيرة ولم يكن في بلدها غرناطة من يضارعها في اجادة ضرب الامثال ونظم الشعر . وكان بيتها مقصد الفضلاء والادباء ، ولها معهم محاورات ومساجلات. ومن نوادرها ان الشاعر ابن قزمان جاء ليناظرها، وكان يلبس غفارة صفراء على زي الفقهاء عندهم ، فقالت له : « انك اليوم كبقرة بني اسرائيل صفراء فاقع لونها . ولكنك لا تسر الناظرين . » اشارة الى الآية فاضحكت الحضور منه .

● واعتماد زوجة المعتمد بن عباد ملك اشبيلية فان أدبها الجم وذكاها اوصلاها بالمعتمد: فقد كان راكباً في النهر ومعه وزيره ابن عمار ، وقد زردت الريح النهر ، فقال لوزيره أجز :

صنع الريح من الماء زرد . . . . . .

فاطال الوزير الفكرة ، واذا بأمرأة من الموجودات على حافة النهر تنبري وتقول :

. . . . . . أيّ درع لقتال لو جمد ؟

فاعجب المعتمد ببلاغتها ، كما اعجب بجمالها ، فتزوجها .

وجاء بعد ذلك القرن السادس طافحاً بالفتن والحروب ، واصبحت فيه السيادة، مدة قرن ونيف، لدول البربر الذين خفوا الى الاندلس من افريقيا لرد غارات الاعداء . وكان من المفروض ان يغشى الادب نكسة في هذا العهد بسبب الفتن والحروب ، ولكن الحضارة الاندلسية كانت سائرة الى النضوج بقوة الاستمرار . وكما ازدهرت تلك الحقبة بالعلماء كابن حزم وابن حيان فقد ازدانت بظهور بعض مشاهير اصحاب الموشحات كالحفيد بن زهر ، وابي بكر ابن زهر ، والاعمى التطيلي ، وابن باجة . وكان من اديبات ذلك العهد اسماء العامرية التي كانت شهيرة بالشعر الرقيق بمقدار شهرتها في النثر الفصيح . ورسالتها الى السلطان عبد المؤمن بن علي (٥٢٦ — ٥٥٧ ﻫ) من ملوك الموحدين تشير الى مقدار نصيبها من البلاغة . وقد اكتمل نضوج تلك الحضارة في القرنين السابع والثامن وما بعدهما في ظلال ملوك بني الأحمر في غرناطة . والتمعت اسماء مشاهير آخرين في الموشحات كابن الخطيب وابن زمرك واحمد بن علي اللخمي .

• عالمات الاندلس

• كانت حضارة الاندلس تتسم ، على وجه عام ، بالزهو ، والبذخ ، والترف ، ولا سيما في ايام دول ملوك الطوائف الاحدى عشرة ، تلك الدول التي خلفت الامويين على البلاد وتقاسمتها وذلك منذ اوائل القرن الخامس للهجرة الى منتصف القرن السادس . وكان اشهر هذه الدول بني عباد ، في اشبيلية ، وبني الافطس ، في بطليوش ، وبني زيري ، في غرناطة ، وبني حمود ، في ملقة . وكانت الحضارة الاندلسية في عهد ملوك بني الاحمر بغرناطة الذين خلفوا بني زيري(في القرن السابع الى اواخر القرن العاشر للهجرة) قد بلغت ذروتها رغم ان هؤلاء شهدوا بانفسهم انحسار ظل الاسلام تدريجياً عن اسبانيا ، وكانوا يعلمون ان العدو يحيط بمملكتهم وينتهز الفرص للقضاء عليها . ذلك لان غرناطة

امست الملجأ الأخير لمسلمي الاندلس ، وعلمائهم وادبائهم ، في اعقاب ضياع امصارهم ، واحدة بعد الاخرى ، فشهدت بهم نهضة عارمة في العمران والثقافة رافقتها حياة زهو ولهو تتفق مع نهضتهـا العمرانية وتنسجم مع ما اصاب الاخلاق من مزيد التطور .

وبين عهدي ملوك الطوائف وبني الأحمر قامت في الاندلس تباعاً دول البربر : المرابطون (٤٧٩ — ٥٣٩هـ)، والموحدون (٥٣٩ — ٦٣٥ هـ) والمرينيون (٦٧٤ — ٨٦٩ هـ) فكان عهدهم عهد الحروب الصليبية في الاندلس التي ساهمت فيها بعض الدول الاوروبية نجدة للاسبان بغية اجلاء المسلمين . ولكن الحضارة الاندلسية كانت قد بلغت منذ بداية القرن الثاني عشر للميلاد حداً في المناعة جعلها لا تتأثر بالفتن والحروب ، وبلغت من النضوج مبلغاً جعلها لا تتأثر ايضاً بتعصب بعض ملوك البربر وكراهيتهم للتجدد . فاستمرت الحضارة تتقدم شطر النضوج التام ، ونحو الاحاطة بشتى العلوم والفنون . ففي القرن الثاني عشر للميلاد برز ابن رشد ، وابن الطفيل ، وابن ميمون اليهودي . وفي القرن الثالث عشر ظهر ابن عربي الاشبيلي . وفي القرن الرابع عشر اشتهر ابن الخطيب وابن خلدون وابن السعيد المغربي . وبين هذا القرن وذاك التمعت اسماء الادريسي ومسلمة المجريطي ، وابن زهر ، وعازار كيال الطليطلي وكلهم من الافذاذ الذين ارتفعت على سواعدهم المدنية الاسلامية المغربية .

وكان للمرأة مساهمة في تلك الحضارة تتفق مع اهداف رجال تلك العصور ذلك لان المرأة حريصة بفطرتها على اكتساب الرجل بالتكيف حسب ميوله . كانت تلك الحقبة تميل الى حياة الزهو والترف ، وما يتلاءم معهـا من الشعر ، وعناصر المسامرة ، فـاتقنت المرأة نظم الشعر ، وبرعت في رواية الاخبار والاشعار ، وحذقت في فنون المعاشرة . ولكن رغم ذلك فان تاريخ الحضارة الاندلسية لا يخلو من سيدات

غلبت عليهنّ ، منذ عهد الدولة الاموية ، الصبغة العلمية فـاشتهرن في شتى العلوم ، ولا سيما العلوم الدينية ، وحفظ القرآن وتفسيره . ومن اشهر عالمات العصر الأموي عابدة التي سنأتي على ذكرها مرة اخرى ، وعائشه بنت احمد القرطبية التي ورد ذكرها في باب الشاعرات . وبعد الامويين فعلى رغم ان الاندلسيين اصبحوا ألصق بالدنيا منهم بالآخرة . ورغم انصراف نسائهم الى الاداب والفنون فلا يخلو تاريخهم من سيدات غلبت عليهن هذه الصبغة العلمية. ففضلاً عن العروضية ، التي سيأتي ذكرها في الكلام عن الاماء ، فان ام السعد ابنة عصام الحميري ، المعروفة بسعدونة ، كانت ممن يشار اليها بالبنان بين علماء الزمان : كانت من أهل قرطبة ، ومن بيت علم ، فتثقفت على ابيها وجدها وغيرهما ثقافة تحيط بكل جانب من العلوم . وكانت فضلاً عن اجادتها الشعر تناظر العلماء ، وتساجل الادباء . ومثلها ام الهناء بنت ابي محمد عبد الحق قاضي المرية . كانت حاضرة النادرة ، سريعة التمثل ، حادة الفهم ، كبيرة العقل ، روت العلم عن ابيها ، ووضعت فيه الكتب .

اما حمـدة بنت زياد من وادي آش ، فهي ، علاوة على انها كانت اشهر شاعرات زمانها ، فقد كان لها نصيب كبير في العلوم . روت عن العلماء ، وورووا عنها . ومنهم ابو القـاسم بن البراق . وكانت اشهر عالمات عصرها .

والى هذا فقد اشتهر فريق من النساء في العلوم الصناعية ، ولا سيما الطب. وقد نوهنا باثنتين من الطبيبات ، وهما اخت الحفيد بن زهر ، وابنتها . وقد جاء ذكرهما في كتاب طبقات الاطباء (ج ٢ ص ٧٠) حيث قال : « انهما كانتا عالمتين بصناعة الطب ، ولهما خبرة جيدة في مداواة النساء ، وكانتـا تدخلان على نساء المنصور واهله ، ولا يقبل سواهما . » وهو يريد المنصور بن ابي عامر . ولكن نصيب المرأة الاندلسيـة من العلوم كان دون نصيب

اختها في المشرق ، لانصرافها الى الاداب والفنون . وهي في هذه ايضاً لم تدرك شأو المرأة في الشرق .

● ادب الاماء في العهد الاندلسي .

● واكب الفتح العربي سيـــل عظيم من الأسرى ، وكان الفاتحون يتصرفون بهم كيف شاءوا على غرار غيرهم من الامم . ولما انصرف العباسيون عن الفتح الى البناء خف هذا السيل فقامت فئة من التجـــار لارتياد الأمصار الأجنبية لاستجلاب الجواري . وكان النخاسون يعنون عناية فائقة بتربيتهن تربية وتعليماً يتفق مع روح العصر . اما وقد اصبح العرب يقدرون قيمة الجواري بمقدار نصيب كل واحدة منهن من الأدب والفن ورواية الأشعار والأخبار أو من الغناء والرقص وحسن المعاشرة ، وذلك علاوة على تقديرهم ما تزدان به الجارية من الحسن والجمال ، فان تجار الرقيق تعدوا حدود السفر الى الاصقاع لابتياع الاماء الى صعيد اقامة اوساط ادبية فنية من اجل اعدادهن اعداداً يصقل مواهبهن ، ويؤهلهن لاكتساب اعجاب اصحاب القصور ، وغيرهم من الشارين ، ولامتلاك قلوبهم ، فاذا بهؤلاء الجواري يصبحن في الشرق العربي ، حاملات رايات الأداب ، والفنون ، ومنافسات نساء الحرائر في صعيد احتلال اسمى المراتب . واذا بهن يستولين احياناً عـــلى زمـــام النفوذ ، ولاسيما اذا صرن امهات لارباب أصحـــاب القصور ، والعروش .

بيد ان مؤسسي الدول العربية سواء أكانوا في الشرق ام في الغرب ، ما كانوا يكترثون بالجواري ، ولا يستسيغون التلهي بهن ، وقد جاء في نفح الطيب (٧٠٩ ج ٢) ان عبد الرحمن مؤسس الدولة الاموية في الاندلس كان « اذا أهداه احد جارية ردّها اليه » . وكذلك كان قبله معاوية بن ابي

سفيان ، وسليمان بن عبد الملك ، مؤسسا الدولة بدمشق ،وكذلك كان بعدهما السفاح والمنصور مؤسسا الدولة العباسية في بغداد وأبو محمد عبد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية بتونس وغيرهم . بيد ان هذا التعفف لم يدم مدة طويلة : فما ان استتبت الامور لأمويي الاندلس ، وشيدوا القصور حتى لمسوا حاجتها الى سكان لها من الممتازات بالحسن والجمال ، والمثقفات المتعلمات، وذلك لان القصور هي كالاقفاص ، لا يبدو المرح فيها ، مهما حسنت ، الا اذا غرّد فيها العصفور .

فاذا بهم يجرون مجرى غيرهم في املاء هذه القصور بالأماء ، والوصيفات، والخصيان ، والخدم . ولكن جواري الاندلس ، على قول عبد الله عفيفي (المرأة العربية ص ٢٨ ج ٣) « لم يفسدن العنصر العربي هناك لانهن لم يكن بالكثرة التي تمكنهن من غلبة الرجال على أمرهم ، وافساد ما بينهم وبين نسائهم . ولم يكنّ من خلابات الفارسيات ولباقتهن ، واحتوائهن على الباب الرجال في قليل ولا كثير . ذلك الى انهن لم يكن يعتمدن – كما كان الفارسيات – يعتمدن على فريق من الرجال يشددن ازرهن ، وينهجون طريقهن ، ويستمدون نفوذهن في بيوت الخلفاء والوزراء . »

وقد استقلت جواري الاندلس بالموسيقى ، ونبغن فيها ، ذلك بأن الاندلسيين كانوا يرون ان الموسيقى احط من ان يتعلمها الحرائر . ولذلك فان تاريخ الاندلس لا يعرف سيدة غير ولادة بنت المستكفي اتقنت الموسيقى، واشتهرت بها . وهي التي كانت في نظرهم من المتطرفات .

على انه مهما قيل في نبوغ جواري الاندلس في الموسيقى والغناء فانهن لم يدركن مستوى اماء الشرق الادنى فيهما . فأينهن من الميلاء ، وبذل ، ودنانير اللواتي كن من واضعات الاصول في هذين الفنين ، ومن المؤلفات فيهما ؟ ومع ذلك فقد كان جواري الاندلس ، واكثرهن من مولدات المدينة ، مثقفات

تحرّر بعضهن وانبثثن بين الاسر يعلمن نسوتها الادب،ويروينهن الشعر، ويلقنهن الغناء ، ملتزمات الحشمة والوقار .

ويعتبر عصر عبد الرحمن الناصر الأموي (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) عصر انتقال من حياة الحشمة الى حياة الانطلاق . وهو كان وسطاً بينهما . فقد روى عنه: « ان دهره لم يصف له الا اربع عشرة ليلة . » وهو الذي اقام في الملك خمسين عاماً كاملة . بينما يقول المؤرخ كوند عنه انه : « وسط ما يحيط به من بدائع قصر الزهراء وعجائبه ، كان يسرّه ان يتمتع بسماع منظومات جاريته وامينة سره مزنة ، واغانيها العذبة الرقيقة . »

واما ابنه الحكم الثاني (٣٥٠ – ٣٦٥ هـ) ، الذي كان عهده عصر الأمويين الذهبي ، فقد كان الى جانب رعايته للعلم والعلماء لا ينسى نصيبه من الدنيا . وعلاوة على لُبنى الحسناء العالمة الشاعرة التي كان يقدرها حق التقدير حتى جعلها منشئه رسائله ، فانه كان شغوفاً بمجالسة جارية اخرى اسمها راضية وكانت تعرف بالكوكب الزاهي . وكان ابوه الناصر أهداها له ، وهي آية في الجمال ، والادب ، وراوية للتاريخ ، والنوادر . وقد تنقلت بعد موته في الشرق الأدنى ، وكانت ، حيث نزلت ، تقابل بالأكرام .

وكان قصر هذا الخليفة حافلاً بكثير غيرهما من الأمـاء اللواتي جمعن بين الجمال والدلال ، وبين الادب والفن ، وعلى رأسهن خديجة ، ومريم ، وفاطمة ، التي وصفوها بأن شعرها كان كفاء نثرها .

وكان ابنه الامير عبد الرحمن معنياً بالجواري . فلما سمع حجاج الاندلسيين يتندرون بما في المدينة من حسناوات المولدات استقدم منهن طائفة اشتهرت بالأدب ، والشعر ، والغناء ، وابتنى لهن داراً كانت تعرف بدار المدنيّات . والتمع بينهن اسماء فضل ، وعلم ، وقلم ، وهي اسماء تشير الى الاتجاه وقتئذ نحو

وكان بين الوافدات من المدينة الى قرطبة جارية تسمى العجفاء والاخرى تسمى عابدة . فالعجفاء بلغت من الشهرة في الغناء ما لم تدرك سواها من القيان الاندلسيات حتى انها كانت تفعل بالعقول ما لا يفعل الخمر ، فيأتي سامعوها من الخفة ما هو من شأن المخمورين . ولما شاخت انصرفت لتعليم جواري الامراء صنعة الغناء . ثم اشتراها الامير عبد الرحمن بن الحكم المشار اليه فبقيت عنده حتى ماتت . واما عابدة فقد تعدت مجال الادب والغناء الى ميدان الفقه والحديث ، فروت عن مالك بن انس وغيره من ائمة المدينة . وكان قد قدم بها الى الاندلس محمد بن يزيد من الاسرة المروانية ، واعجب بعلمها وفهمها ، وتزوجها بشر بن حبيب الاندلسي .

وفي القرن الرابع الهجري ، في اواخر عهد الخلافة الاموية بالاندلس ، اشتهرت جارية اخرى اسمها العبادية اهداها مجاهد العامري الى المعتضد بن عباد ، وهو والد المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، فافتتن بادبها وفصاحتها ونادرتها حتى الهته عن بعض اموره . رآها ليلة نائمة فقال :

« تنام ومدنفها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر »

فانتبهت واجابته :

« لئن دام هذا وهذا له سيهلك وجداً ولا يشعر »

ثم ذاع صيت جارية أخرى اسمها انس القلوب . كانت في قصر المنصور بن ابي عامر المسمى بالزاهرة ذلك القصر الذي ابتناه سنة ٣٦٨ هـ على نهر قرطبة ، وجعله شبه قلعة تحميه من اعدائه . وقد تحدث الوزير المغيرة بن حزام عن ليلة

سمر قضاها في هذا القصر مع صاحبه ، وأعرب عن افتتانه بمواهب الجارية .

وراج سوق الجواري من بعد في عهد ملوك الطوائف رواجاً عظيماً ، واخذ هؤلاء يتنافسون في اقتناء الموهوبات منهن بمقدار تنافسهم في تعزيز العمران ، ولا يتسع المقام لايراد اخبارهن فنقتصر على التنويه ببعض ذوات الشهرة منهن :

● العروضية مولاة الكاتب ابي المطرف عبد الرحمن بن غلبون . اخذت عنه النحو واللغة ، ولكنها فاقته ، وبرعت في العروض . وحفظت الكامل للمبرد ، والنوادر للقالي ، وشرحتهما . وقرأ عليها ابو داود سليمان الكتابين المذكورين ، واخذ عنها العروض ، وكانت تسكن بلنسية ، وتوفيت بدانية بعد سيدها في نحو الخمسين والاربعماية .

● غاية المنى جارية المعتصم بن صمادح اشتراها بمائة الف درهم . وكانت اديبة بارعة في الموسيقى حسنة الصوت فنالت حظوة عنده . وارجح انها من مولدات الشرق الادنى اذ كان اكثر غنائها من اصوات عريْب ، واسحق الموصلي ، ومعبد .

● قمر من مولدات بغداد جُلبت الى مولاها ابراهيم بن حجاج اللخمي صاحب اشبيلية ، فحظيت عنده لجمالها ولوفرة ادبها وفصاحتها ، وبراعتها في صنعة الالحان . ومن شعرها في مدحه :

ما في المضارب من كريم يرتجى   الا حليف الجود ابراهيم
اني حللت لديه منزل نعمة   كل المنازل ما عداه زميم

على ان هذا الشعر وان دل على رضائها وارتياحها لحياة اشبيلية الجميلة الا انها ما كانت في الواقع تنسى بغداد . ومن شعرها في الحنين الى وطنها الاول :

آها على بغدادها   وعراقها وظبائها والسحر من احداقها

وبجالها عند الفرات بأوجه تبدو أهلتها على اطواقها
متبخترات في النعيم كأنما خُلق الهوى العذري من اخلاقها
نفسي الفداء لها فأي محاسن في الدهر تشرق من سنا اشراقها

ان هؤلاء الجواري وان تمتعن بالحظوى عند الاندلسيين ، ولكنهن لم يدركن ما ادرك زميلاتهن في الشام والعراق ، من مرتبة ادبية سامية ، والى ذلك فانهن بقين متخلفات ، في النواحي الثقافية بالنسبة للحرائر الاندلسيات .

منزلة المرأة في التمدن العربي الاندلسي

على قدر ما تتمتع الشعوب بالحرية يرتفع شأن افرادها في المجتمع ، نساء ورجالاً ، وتنطلق مواهبهم . لذلك فان الاندلسيات، وقد ادركن ما لم يدركه اترابهن في الشرق العربي من الحرية ، اتيح لهن من جراء ذلك بلوغ مرتبة في الهيئة الاجتماعية لم تعرفها نساء البلاد الاخرى . وكان قد ساعد على ذلك بقاء الاندلسيين في نجوة من تأثيرات الحضارات الاجنبية التي كانت قد اعتراها الفساد ابان رواجها بين اهل المشرق فافسدتهم ، تلك الحضارات التي كانت لا تعتبر المرأة الا متاعاً للذة فعمدت الى حجبها ، والتضييق عليها بدافع الانانية .

حقاً ان الاندلسيين لم يسلموا من التفاعل بينهم وبين القوط ، والويزيقوط ، اصحاب البلاد الاولين ، بيد انهم ، وقد جاءوهم بمدنية جديدة ، اعطوهم اوفر مما اخذوا منهم . وكان في عداد ما اقتبسوا منهم مقاييس تفسح المجال لانطلاق المرأة انطلاقاً لا يعرفه الشرق .

تطرق لهذا الموضوع احمد اجاييف ، وقال : « واما يقال عن الاندلس ، التي لم يكن للفرس والسوريين تأثير عليها ، فان المرأة لبثت فيها تلعب دوراً مهماً حتى انقراض حكم العرب في تلك البلاد الزاهرة . وكانت مساوية للرجل في جميع الحقوق ، لا تفترق عنه في شيء . وقد اشتهرت النساء اولاً في مدينة

قرطبة على زمن الخليفتين عبد الرحمن الثالث ، والحكم الثـاني ، ثم زادت شهرتهن في مدينة غرناطة على عهد بني نصر » (آل الاحمر) . واضاف الى ذلك قوله : « ان الخليفة عبد الرحمن (الثالث) اقام لزوجته الحبيبة تمثالاً عظيماً على ابواب قصر الحمراء ! (ولعله اراد الزهراء) فكان تمثالاً ناطقاً بالاتقان ، والسمو في صناعة البنـاء . وكانت مدينة قرطبة ، وسائر مدن الاندلس مدينة لهذه المملكة بقصر الزهراء الذي هو آية في الفخامة والابداع . وكان لهـا اليد الطـولى في انشائه .. امـا الخليفة الحكم الثـاني الذي احرز نصيبـاً وافراً من العـلم والادب فانه اتخذ لنفسه كاتبة لاسراره من ازواج احد وزرائه . »

فالشق الأول من كلام أجاييف يشير الى المنزلة الرفيعة التي بلغتها الاندلسية في مجتمعها . بيد ان حرصه على المفاخرة بحضـارة اسلامية يعتبرها حضارته شط بقلمه الى المغالاة حين قال : « انها كانت والرجل على مستوى واحد » . والواقع ان المرأة في الاندلس ، وان ارتفع شأنها الا انها لم تبلغ درجـة المساواة المطلقة . بل كانت شعبياً في حكم المستعبدة اسوة بأختها بالشرق . ولا ادلّ على ذلك من موقف ابن رشد منها حيـنما تطرق لمعالجة القضايا الاجتماعية ، وهو موقف يثير الاعجاب اذا قوبل بمواقف زملائه فـلاسفة الشرق . فهو يقول : « ان حالتنا الاجتماعية تتطلب ان لا نطيح بكل مـا يعود علينا بمنافع المرأة . فهي في الظاهر صالحة للحمل والحضانة فقط . وما ذلك الا لأن حالة العبودية التي انشأنا عليها نساءنا اتلفت مواهبها العظيمة ، وقضت على مواهبها العقلية . فحياة النسـاء تنقضي كما تنقضي حياة النبات . فهن عالة على أزواجهن . وقد كان ذلك سبباً في شقاء المدن وهلاكها . »

والشق الثاني من كلام اجاييف ذهب الى ابعد في الرغبة بالمفاخرة بالاندلسيين حينما زعم ان الحكم الثاني نصب تمثالاً لزوجته . وهو قول غير معقول ، لان هؤلاء ، وان تطوروا ، وتحررت افكارهم ، لم يبلغوا درجة اقامة التمـاثيـل

لزوجاتهم ، بينما أنهم احجموا عن نصب التماثيل لابطالهم مراعاة لتقاليد امتهم . ونستبعد ايضاً رواية اجاييف عن اتخاذ هذا الخليفة احدى نساء وزرائه كاتبة له . ولعله نقل هذا وذاك عن الافرنج الذين يجهلون هذه التقاليد ، او لعله حسب ُلبنى ، التي اتينا على ذكرها ، على انها كاتبة رسائله ، حسبها زوجة احد الوزراء .

على ان اثار ذوات السوار هناك هي اوثق مصدر لتقدير نصيب المرأة من المنزلة في الهيئة الاجتماعية التقدير الصحيح . وكما تدل الاغاني الشعبية ، لقوم من الاقوام ، على رخاء الناس او ضيقهم ، وعن مرحلة سلم يقطعونها ، ام حقبة حرب يعيشونها فكذلك تصور هذه الآثار ، احوال اصحابها حسنة ام سيئة . وعلى هذه القاعدة فكما ان التزام المرأة ، في الجاهلية ، غالباً ناحية الرثاء كان يدل على مقدار التضييق عليها ، وعلى كبت مواهبها ، فان انطلاق الشعر النسائي بالاندلس في الوصف التصويري للطبيعة احياناً ، وللحسن والجمال احياناً اخرى ، كما فعلت حمدة بنت زياد ، وفي صعيد الخروج الى مجاراة الرجال في التغزل ، والمواعدة ، بل الى ما يمكن ان يسمى تهتكاً ، كما فعلت الولادة ، او في صعيد مخاطبة الملوك والتأثير على عواطفهم في عرض حال ، والشكاية من عمّال ، كما فعلت حسانة النميرية ، كل ذلك يبلغ بنا درجة تقدير مكانة المرأة الاندلسية في الهيئة الاجتماعية . هذا فضلاً عن ان هذا الانطلاق النسائي يشير الينا عن استعداد الرجل لقبول ما صدر عن نساء المحيط من أقوال وافعال . فنخلص من هذا الى الاعتقاد ان انطلاقة الاندلسية في مجتمعها كانت اوسع مدى منها في اي بلد عربي آخر حتى الآن ، وان الافكار والأخلاق كانت في ذلك المجتمع اوفر استعداداً لقبولها من اي قطر عربي آخر حتى الساعة . فاذا ذكرنا مرة اخرى قول ولادة :

« أمكّن عاشقي من صحن خدي   واعطي قبلتي من يشتهيها »

اذا ذكرنا هذا وامثاله استطعنا ان نحدد مقدار ما كان للمرأة وقتئذ من حرية ، وان نقرر ان هذه البوادر التي افسحت المجال للمرأة لأن تقول مثل هذا القول ، انما تعني استعداد الهيئة الاجتماعية لما صدر عن سيدات المجتمع .

بلى ، واذا ذكرنا ايضاً ان مجتمعنا الآن يحمل على الادب المكشوف ، وعلى النذر القليل من السيدات اللواتي دنون منه ، وهو دون قول ولادة ، علمنا بأن الحريه في عصرنا المستهتر الذي نعايشه لم تدرك ما ادركته في الحضارة الاندلسية خلال اواسط ايامها وأواخرها .

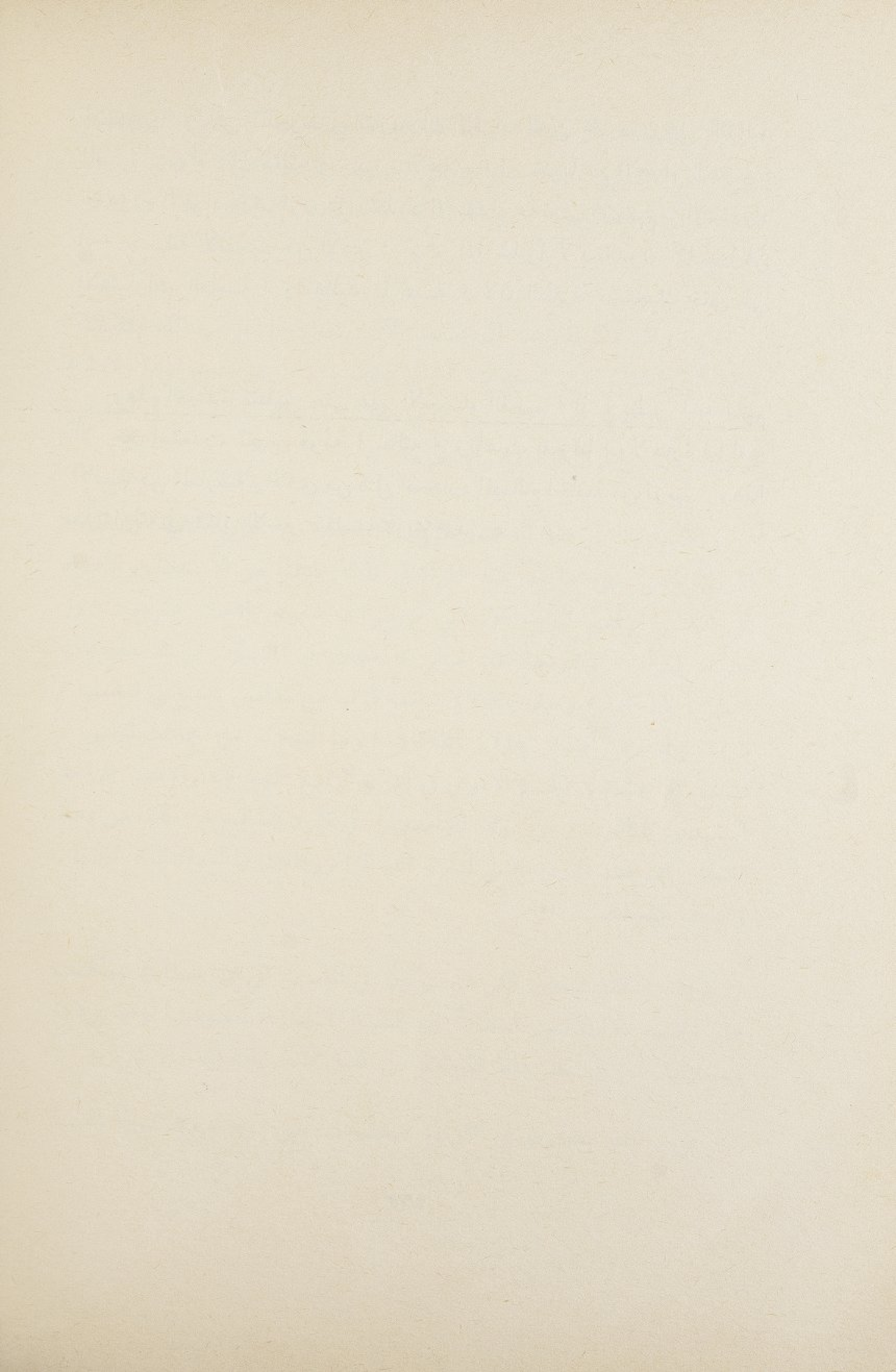
والجدير بالذكر هنا انه عدا هؤلاء الاديبات من اهل الخاصة والعامة ، اللواتي برهنّ على ما أدركته المرأة في تلك المدنية من الاستقلال والاعتماد على النفس ، ففي تاريخ الاندلس ناحيات اخرى اتاحت الفرص لبروز اقتدار المرأة ، ونفوذها على غرار ما حدث في المشرق : فهناك ملكات اشتهرن بالحكمة ، وبعلو مكانة لا تستمد قوتها من مقامهن السياسي فحسب ، بل تستمدها من اقتدار هؤلاء الملكات ، وما افسح له من مجالات الظهور . فصبيح ام هشام بن الحكم الاموي في القرن الرابع للهجرة ، وام عبد الواحد الرشيد بن المأمون ، من دولة الموحدين ، في القرن السابع هـ ، كانتا من دهاة النساء : اشرفت الاولى على ادارة الدولة ، ووطدت الثانية الملك لابنها . وغيرهما كثيرات .

وبعد فكأني ببعض القراء يسرّون في انفسهم اني على خطأ اذ حكمت على المجتمع الاندلسي استناداً الى الشاذ النادر ، خصوصاً وان ولادة ومثيلاتها كن في نظر ذلك المجتمع من قبيل المتطرفات المستهترات .

بلى . فقد يكون في اللواتي استشهدتُ بهن شيء من الشذوذ بالنسبة

لمجتمعهن ، ولكن الملحوظ في التاريخ ان الافراد الذين يخرجون على التقاليد المقررة : سواء كان ذلك في سبيل الاصلاح ، او جرياً مع الاهواء النفسية ، ان هؤلاء الافراد لا يجرأون على الشذوذ الا بمقدار ما توفر لمجتمعهم من الاستعداد له ، صيانة لأنفسهم من الأذى : ثم هم اذا شذوا لا يبتعدون كثيراً عن الاعتبارات العامة ، والتقاليد المرعية ، لان الطفرة مستحيلة حتى في الافكار .

وهذه القاعدة تنطبق حتى على الانبياء انفسهم ، اذ لم يظهر احد منهم الا حين استعدت نفوس قومه لرسالته ، وتأهبت لقبولها : ولا عبرة فيما لقيه الانبياء من المعارضة والاذى من قبل اصحاب المصالح الخاصة من قومهم . وهذا ما تناولته في كتابي الاخير « فلسفة تاريخ محمد . »



الفصل التاسع

المرأة في التمدن العربي في المغرب

يتألف المغرب من اقاليم ثلاثة : مراكش ، والجزائر ، وتونس . وهو في طبائعه وخصائصه يختلف عن الشرق الادنى والاندلس لاختلاف العناصر القومية التي تسكن في كل منها . فحين الفتح العربي كان المغرب مأهولاً بالبربر ، وظل هؤلاء اصحاب الكثرة في ارجائه ، ولكنهم تعربوا تدريجياً ، فاصبحوا ، مع مواطنيهم العرب ، لا يعرفون جامعة لهم الا جامعة الاسلام .

والبربر كانوا يعتمدون على نظام القبائل ، والبطون ، فتغلب عليهم البداوة ، بما فيها من صلابة ، وبسالة ، وقسوة ، في سبيل الحفاظ على

الاخلاق المرعية عندهم ، وعلى تقاليدهم . لذلك فان المغرب وان تأثر قليلاً بالحضارة الاندلسية بالجوار من حيث الثقافة والعمران ، ثم ازداد تأثراً بعد أن اختلط ببلاد الاندلس اثر اجتياز المرابطين ، والموحدين ، والمرينيّين ، العدوة اليها ، الا انه لم يتأثر كثيراً من حيث الاخلاق ، فحافظ على عاداته العشائرية ، وعلى مقاييسها ، وخصوصاً في ناحية الحفاظ على الأعراض ، والغيرة على الحُرَم . ولما شرع اهل المغرب يقتبسون من حضارة الاندلس شيئاً من نعيمها فرفعوا القصور ، واجتلبوا الجواري من الاندلس والشرق ، حرصوا على اخلاقهم العشائرية ، فلم يطلقوا لانفسهم العنان في ارتكاب الموبقات ، ولم يجاروا الاندلسيين في اطلاقهم حرية المرأة . بل حجزوا عليها في دور الحُرَم ، واقاموا على خدمتها وحراستها الخصيان من ارقاء الصقالبة وسواهم . وكانوا يحظرون عليها الخروج من الدار . واذا أعوزها الامر ففي جنح الليل ، على ان تكون محجبة .

واما الناحية الثقافية فقد تأخر نضوجها في مراكش والجزائر لان البربر كانوا علاوة على اكتفائهم بالعلوم الدينية واللسانية ، يعزفون عما عداها حارصين على لغتهم القومية . ومنذ انحلال دولة بني الاغلب في تونس وغيرها ، في اواسط القرن السابع للميلاد ، الى زمن احتلال آل عثمان شمالي افريقيا ، في القرن السادس عشر ، استمر المغرب تحت ربقة حكومات من سلالات البربر توزعته فيما بينها ولم تحسن الادارة ، ولم تعن كثيراً بالشؤون العمرانية والثقافية . بيد ان دولة واحدة هي الدولة الرستمية ، التي قامت في طاهرت بالجزائر (٢٧١ م) ، شاءت ان تتمثل بدولة بني الأغلب العربية التي كانت في تونس ، والتي احتلت اجزاء كثيرة من شمالي افريقية وجزر البحر المتوسط . شاءت تلك الدولة ان تتشبه بها في تعزيز الثقافة ، بيد انها حرصت على ان يتم هذا البعث الثقافي على لغتها البربرية . فظهر في عهدها وبلغتها طائفة من الادباء ، وكان على رأسهم

ابو يزيد الرستمي . اما وان مؤسس الدولة الرستمية عبد الرحمن بن رستم كان فارسياً فقد تجلى السبب في انفرادهـــا دون الدول الاخرى في العناية عناية حقيقية بالعمران والثقـــافة ، ولكن الذي بقيتُ اتساءل عنه لماذا اظهر هذا الفارسي تعصبه للغة البربرية دون العربية ؟ أكان مصدر ذلك النكاية بالعرب ؟ ام تأليفاً لقلوب البربر حوله ؟ ام للأمرين معاً .

على ان البربر لم يستطيعوا في النهاية الصمود طويلاً تجاه التيار العربي والحفاظ على لغتهم كلغة علم وسياسة . بل لم يلبثوا ان سايروا النهضة خلال ايام الموحدين والفاطميين في المغرب، وبني زيري والصنهاجيين ، فظهر علماء كثيرون في المغرب باللسان العربي المبين . ثم تعاقب على شمال افريقيا ، منذ القرن الحادي عشر الى الخامس عشر ، شعراء وكتـاب مرموقون . اشهرهم ابن خلدون ، وابو علي التميمي: معرّي المغرب ، وابو حسن علي المراكشي فيلسوف المغرب . وسـاهم معهم في ذلك بعض السيدات وكانت اشهرهن عائشة الشريفـة . وقـد نوهت دائرة المعارف للبستاني (ص ٧٨٨) بسيدة اخرى ، وهي زينب بنت اسحاق النفزاوية التي تزوجها السلطان يوسف بن تاشفين (٤٥٣ – ٥٠٠ هـ) وهو من دولة المرابطين .

غير ان الذي يقال عن مراكش والجزائر لا ينطبق على تونس . فهي كانت، ولا تزال ، قنطرة بين المشرق والمغرب تتأثر بالمشرق مثلمـــا تتأثر بالمغرب فتبدو وسطاً بينهما .

والى هذا فان تونس توفر لها باكراً ، ما لم يتوفر لسواها من بلاد المغرب ، توفر لها ولاة احتضنوا الثقافة ورعوها ، وعمـلوا لنشرها . وكان اول من رفع لواء الادب العربي فيها عبد الرحمن بن زياد المعـافري ، الشاعر الفحل ،

الذي ولي قضاء القيروان (٩٤ – ١٦١ هـ) . ثم سرعان ما قامت فيها دولة الاغالبة العربية (١٨٤ – ٢٩٦ هـ) التي جرت مجرى العباسيين في تعزيز الثقافة واهلها ، وأوفدت البعثات الى الشرق لطلب العلوم والاداب . وقد اشتهر فيها علي بن زياد العبسي ، وهو اول من ادخل كتاب الموطأ ، ومذهب مالك الى شمالي افريقيا ، كما اشتهر عبد الله بن قطن . وكان يعتبر اماماً في اللغة والآداب . وكان للنساء نصيب من تلك النهضة واشهرهن مهرية الأغلبية الشاعرة المطبوعة . وكان كل من جامع الزيتونة في تونس الذي شيّد سنة ١٤١ هـ . ، وجامع القيروان مناخ العلوم الدينية والادبية .

غير ان تونس أصيبت بنكسة بعد الاغالبة ، وأصيبت اللغة العربية فيها وآدابها بصدمة أشد قضت على ازدهارها . ذلك بان بني زيري البربر الذين خلفوا الاغالبة على القيروان (٣٦٢ – ٥٤٣ هـ.) تعصبوا لقوميتهم وللغتهم فترجموا اليها الكتب العربية التي يحتاجون اليها ، واهملوا لسان العرب . حتى اذا قام بنو حفص في تونس (٦٢٥ – ٩٤١ هـ.) خلال عهد دولة الموحدين ، نهجوا نهجها في الاعتماد على العربية ، وفي تنشيط الحركة العلمية ألادبية .

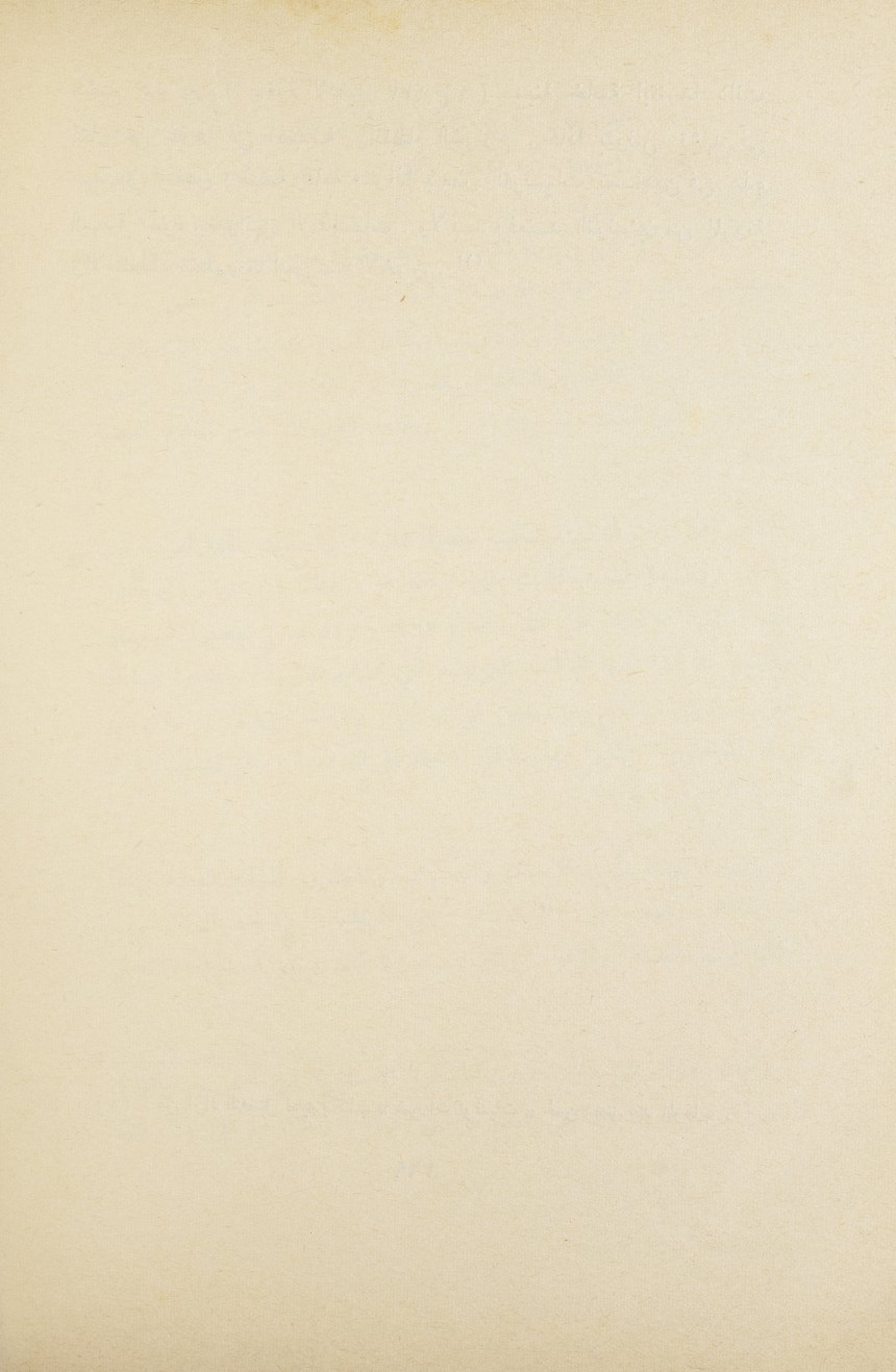
وفي ايامهم استأسد الاسبان وانصارهم ، واضطروا المسلمين للجلاء تباعاً عن بلادهم . فهاجر اكثرهم الى شمالي افريقيا ، ولا سيما الى تونس . وكان بينهم العلماء ، والادباء ، والفنانون . كما كان بينهم الصناع ، والتجار والزراع .

وكان هؤلاء المهاجرون يمثلون الحضارة الاندلسية في اسمى مرتباتها ، فأفادوا تونس فوائد جمة في جميع نواحي الحياة . وكان لهم على ما روى

الشيخ محمد بيرم (صفوة الاعتبار ١٢٧ ج ١) مدينة خاصة ابتنوها كانت تمتاز عن غيرها في الهندسة وانتظام الشوارع . فاذا بتونس تشهد في عهد بني حفص ، نهضة عامة ، واذا ببعض التونسيات يساهمن في هذه النهضة اسوة باخواتهن الاندلسيات . ولا بدع فعند التونسيين من المرونة والاستعداد للتطور ما ليس عند الآخرين . [١]

---

(١) من اراد التفصيل فعليه بكتاب « شهيرات تونسيات » لحسن حسني عبد الوهاب .



الفصل العاشر

المرأة في التمدن العربي بالشرق

عهد ملوك الطوائف الاعاجم -- عهد الانحطاط

أضاع العرب تدريجياً سلطانهم السياسي منذ سقوط بغداد (٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) وانقراض الخلافة العباسية فيها ، حتى اذا سقطت ايضاً غرناطة في أيدي الاسبان (٨٩٧هـ = ١٤٩٢) وقضي على دولة أصحابها بني الأحمر آخر ملوك الأندلس لم يبقَ للعرب اي سلطان ، وأمسوا ، باستثناء جزيرتهم ، رعايا للاعاجم في كل مكان .

على أن شأن الأمة العربية بدأ بالتدهور قبل سقوط بغداد . ويمكن ان يقال انه زال في الشرق بزوال الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧ هـ . اذ كما انتقل الحكم في وادي النيل الى الاكراد والاتراك ، فان السلطة في العراق وما حولها

استأثر بها الترك دون الخلفاء العباسيين . ولكنا رجحنا ان نحدد سقوط بغداد موعداً لسقوط العرب لانهم وان فقدوا ، من قبل ، السلطة الا ان خلافتهم ببغداد كانت لا تزال محفوفــة بالاجلال من قبل الأعاجم حتى ان صلاح الدين الايوبي بايع الخليفة العباسي حين أقام دولته في القاهرة ، كما أن حضارتهم بقيت بفضل رعاية ملوك الأعاجم حضارة العالم المعاصر .

وهذا المصير للعرب أفسح المجال لابن خلدون لأن يقول في مقدمته التي انتهى من وضعها سنة ٨٧٩هـ = ١٣٧٧ م : « ولما ذهب امر الخلافــة منهم وامّحى رسمها انقطع الامر جملة من أيديهم ، وغلب عليهم العجم دونهم ، وأقاموا في البادية القفراء لا يعرفون الملك ولا سياسته . بل قد يجهل الكثير منهم انهم قد كان لهم ملك في القديم . »

ففي المغرب قامت دويلات من البربر توزعت بينها أقطاره ، وتنازعت بينها على ما في حوزتها من أمصار ، وهي الى ذلك كانت عرضة لغزو الاسبان والبرتغال الذين ما أن حرّروا بلادهم حتى أطمعهم ضعف المسلمين فلحقوا بهم الى عقر دارهم .

وفي الشرقين الأدنى والأوسط قام على انقاض السلطنة السلجوقية العظيمة ، وذلك في أعقاب وفاة السلطان ملكشاه (٤٨٥هـ = ١٠٨٧م) ، فروع لهـا وامارات اخرى تولاها قوادها وأتابكتها . وكان اعظم تلك الفروع سلطنة قونية السلجوقية . غير ان هذه السلطنة لم تلبث ان انهارت ايضاً تحت ضربات المغول المتواصلة سنة ٦٩٩هـ ، وتركت المجالات لأمارات اخرى تقاسمت بلادها ، وكان في عدادها أمارة آل عثمان .

وأما في مصر فقد تعاقب عليها الايوبيون (٥٤٩هـ) والمماليك . وهم فرقتان جاءت الواحدة منها تلو الاخرى : المماليك البحرية (٦٤٨هـ = ١٢٥٠) والمماليك الجراكسة (٨٧٤ هـ = ١٣٨٢ م) .

وهذه الدول التي قامت في الشرق الاسلامي كانت بكثرتها الساحقة من الاتراك[1] مما يصح معه القول ان تلك الحقبة من الزمن جديرة بان تسمّى بالعهد التركي . على ان هذا العهد وان كان تركياً ، في الناحية السياسية ، الا انه ظل عربياً اسلامياً من حيث التمدن . ورغم محاولات بعض عواهله وقف تأخر هذا التمدن وتدهوره ، وذلك بتقليدهم الخلفاء في العمارة ، وتنشيط العلم والادب ، فانهم لم يستطيعوا سبيلاً الى تحقيق أمنيتهم هذه ، لأن تيارات الزمان كانت معاكسة لها ، فجرفتها وجعلت المحاولات الفردية لا تثمر إلا ثمرات لا فائدة منها على وجه عام .

ففي المغرب كان تنازع ملوك المسلمين ، واستعانة بعضهم على بعض بالأعداء قد أفضيا الى قذفهم جميعاً من اسبانيا الى شمالي افريقيا ، والى لحاق الاسبان والبرتغاليين بهم الى اوطانهم . وأما في الشرق فقد كانت الكارثة أدهى وأشد . بل كانت كوارث اخذت بعضها برقاب البعض . وكان مصدرها التنازع الداخلي المستمر بين اولئك الملوك الذي أفضى الى استهانة الاعداء بهم . فبعد الحروب الصليبية التي استمرت نحو قرنين (١٠٩٦ – ١٢٩١ م » . وفي اعقاب سقوط الدولة الخوارزمية (٦١٦هـ = ١٢١٩ م) في قبضة جنكيزخان ، وهي الدولة الاسلامية التي كانت تمتد من الهند الى العراق وتقف سداً منيعاً في وجه المغول ، تجرأ هؤلاء المغول على اكتساح العالم الاسلامي . وجرى مجراهم الكرج ، واللان ، والأرمن فخربوا دياره ، واتلفوا مرافقه ، وجربوا ان يمحقوا ايضاً مدنيّته . فقد ذكر جيب المؤرخ الانكليزي «ان الصليبيين لما فتحوا طرابلس الشام سنة ٢٠٥ هـ كان في مكتبتها ثلاثة ملايين مجلد نهبوها وأحرقوها » . ولما دخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ القى كتب العلم والادب ، التي كانت في خزائنها ، وهي شيء لا يحصى ، القاها في دجلة . وقال بعضهم ان هولاكو بنى بتلك الكتب

---

(١) يعدّ بعض مؤرخي الاتراك الايوبيين بمصر والصفويين بايران في عداد الدول التركية .

اسطبلات الخيول وطوالات المعـــالف عوضاً عن الطين . وكذلك كان شأن مكتبات بخارى وسمرقند في بلاد تركستان، وشأن مكتبات مرو وخراسان إبان تلك الحملة . وكانت هذه الخسارة فادحة، وزاد في فداحتها ما فقد ايضاً بسبب الحروب الداخلية والخارجية من كتب في مكتبات اخرى مثل مكتبة سابور في بغداد ،وخزائن القصور ، ودار الحكمة في القاهرة . ولا جرم فان المدنية التي أنشأها المسلمون ورعوها طوال سبعة قرون ضاع اكثرها من جراء فقدان هذه المخطوطات في الشرق بالاضافة الى ما فقدوه منها في الاندلس والمغرب .

وقد رافق تلك الحروب والفتن ما يرافق امثـــالها عادة من فقدان الأمن والطمأنينة ، ووقوع القحط ، والجوع ، فاشتدت الضائقة على الناس . وعلى ما روى ابن العبري في كتاب مختصر الدول وفي صفحاته ٣٤٣ و٤٤٦ و٤٦٨ ، فقد اشتدت المجاعة الى حد «ان أكل الناس بعضهم بعضاً في بعض السنين، وبيع قرص الخبز بولد في بعض الاحيان، واكلوا الكلاب.» ويقول ابن الاثير عن مجاعة سنة ٦٢٢ هـ «دخلت يوماً الى داري فرأيت الجواري يقطعن اللحم ليطبخوه ، فرأيت سنانير استكثرتها فعددتهـا اثني عشر سنوراً . ولما كانت سنة الغلاء رأيت اللحم بالدار وليس عنده من يحفظه من السنانير !» وابن العبري وابن الاثير كلاهما كان معاصراً لتلك الكوارث .

على ان شمل العالم الاسلامي وإن اجتمع ، من بعد ، تحت راية السلطنـــة العثمانية ، ولكن هــــذه السلطنة وإن جربت الظهور في مظهر الرقي العمراني والثقافي الذي ينسجم مع العظمة السياسية والحربية التي اتسمت بهـا ، الا ان محاولاتها هذه كانت موضعية تكاد تنحصر في عاصمتها قسطنطينية التي كانت في عهد البيزنطيين من اعظم بلاد العـالم عمراناً وثقافة . ان تركيا حاولت ان تحافظ على مكانة هذه المدينة فاستمرت مدة طويلة في عداد العواصم العامرة المثقفة ، بيد ان سائر البلاد كانت مهملة الجانب من قبل السلطنة، كما ان ثقافة استانبول نفسها لم تكن عصرية ولا متجددة، لان آل عثمان كانوا يستنكرون

اقتباس كلما هو افرنجي ويستكبرون ، ولم يقبلوا على التمـدن الحديث الا في ايامهم المتأخرة ، فجـاءهم الترياق من العراق في غضون نزعات الأحتضار . (فلسفة تاريخ آ ل عثمان . جزآن . للمؤلف) .

ونحن في الكلام عن المرأة في عهد الانحطاط نقسم هذه الدراسة الى قسمين :

- عهد ملوك الطوائف الاتراك . الذي نتحدث عنه في هذا الفصل .
- عهد السلطنة العثمانية الذي نتناوله في الفصل التالي .

وسنقف في هذه الدراسة عند بداية النهضة النسائية الحديثة في العالم العربي على نية ان نفرد لهذه النهضة كتاباً خاصاً يكون بمثابة الحلقة الاخيرة من سلسلة كتبنا عن المرأة .

ونحن قد اطلقنا على العهد ، الذي نتكلم عنه في هذا الفصل ، عهد ملوك الطوائف ، دون غيرنا ، من قبيل الاستعارة ، وذلك لما بينه وبين عهد ملوك الطوائف في الاندلس من شبه . فهنا وهناك يصدق قول ابن الخطيب :

« وقام في كل بقعـة مليك وصاح فوق كل غصن ديك »

وعلى النهج الذي سلكناه سابقاً في تقسيم الكلام عن المرأة سنتحدث هنا تباعاً عن اخلاقها ، وثقافتها ، ومنزلتها الاجتماعية .

اخلاق المرأة عهد ملوك الطوائف الاتراك

لما تقاسم الترك بينهم امصار الشرق العربي وما يليها كانوا عشائر وقبائل لا تزال تحافظ على شمائل البداوة فيقدسون القوة والبسالة ، وكانت معنوياتهم

مشدودة الى الحضارة العربية الاسلامية ، والى التعصب للدين ابان ما كان هذا التعصب قد خفت حدته بين العرب والفرس . فكان هذا الازدواج بين البداوة وبين الاسلام والتعصب له مصدراً للّون الذي اصطبغت به هيئتهم الاجتماعية .

حقاً ان الوراثة والبيئة هما العنصران القويان اللذان يكيّفان اخلاق الناس ، ولكن هناك عنصراً اخر له مثل ما لهما من النفوذ ، واعني به الاحداث التي يواجهها الانسان في بيئته . ومن هنا فان هؤلاء الاتراك لم يتأثروا بالبداوة وبلاد الاسلام فحسب ، بل لم يلبثوا ان تفاعلوا مع الاحداث التي واجهتهم في غضون سلطانهم على الشرق العربي . فكان للكوارث التي احاقت بهذا الشرق وقتئذ ، بسبب الحروب الخارجية ، والفتن الداخلية ، اثر بالغ في تطور احوالهم ، وتطرّق الفساد الى اخلاقهم .

كان من شأن اخلاق البداوة ، التي كانت اخلاق اكثر السلالات الحاكمة آنئذ ، بروز الاعتماد على النفس وما يتبعه من الشجاعة ، وكان من شأن الاسلام ، الذي دانت له تلك السلالات ، واضطلعت بالدفاع عنه بشدة ، رفع معنويات المرأة استناداً لما وضع الدين لها من توصيات واحكام . ولكن ذلك الزمان المظلم ، الذي لم يكن يصلح فيه الا القوة ، والذي كان لا يزن الحقوق العامة والخاصة الا بموازينها ، استهان بالمرأة الضعيفة ، وجعل اخلاقها تتلون باللون الذي يريده الرجل القوي .

في تلك الايام كان الآمر يستبد بالمأمور ، وهذا يستبد بالرعية . وهؤلاء يجرون مجراهما في معاملة اهاليهم ، فيستعلون عليهم ، وينتزعون الحرية منهم ، ويعاملونهم ، على غرار معاملة اولياء امورهم لهم ، معاملة السيد للعبيد .

وفي مثل هذه الاحوال التي يغشاها القلق ، والخوف ، تفقد الثقة بين الراعي والرعية ، وبين الرجل والمرأة ، ويبرز من الاخلاق اخسها ، ومن الصفات

اوضعها ، ويقوم الحذر بين الفريقين مقام الثقة .

فكان من عواقب ذلك ، ومن استمرار الحال على هذا المنوال ، نشوء جيل ، بعد جيل من الناس ، الفوا المصانعة والمداهنة ، والرياء ، واستسهلوا النفاق والكذب ،بل كل رذيلة في سبيل الحفاظ على السلامة ، او تأمين العيش. والمرأة التي هي ارهف الناس احساساً ، وأشدهم تعرضاً للأستبداد ، كانت ، ولا سيما في الناحية الاخلاقية ، اشدهم تأثراً بمصائب ذلك الزمان .

والى ذلك فان تلك الاحداث السياسية التي قضت على المدنية العربية ، والتي ذهبت بالامن والاطمئنان ، وجلبت القحط والغلاء ، افسحت المجال لبروز علماء حشويين من رجال الدين ، كانوا لاصحاب السلطان مؤيدين ، وللخرافات انصاراً ،بل مبتكرين . اتخذوا من العلم تجارة ، ووسيلة لارضاء اهواء الحكام ، بغية الحفاظ على رضاهم ، وقصد تأمين عطاياهم . وهذا ما اوحى الى ياقوت الحموي المعاصر لذلك العهد بان يصف اهل زمانه بما وصف ، حيث قال :

« كان الناس وقت كراهيتهم للمقام ببغداد غير ناس زماننا . فاما عصرنا فاجلس خيارهم في الخيش ، واعطهم فلساً ، فما يبالون ، بعد تحصيل الحطام اين المقام !! »

ولكن من الانصاف الاشارة الى ان تلك الحقبة لم تكن تخلو من علماء صانوا مكانتهم وقلمهم من الفساد ، وحافظوا على كرامتهم وضمائرهم . وكان الشيخ محي الدين النووي واحداً من هؤلاء الابرار . واليكم نادرة من نوادره عن مجلة (المسلمون) جنيف ايلول ١٩٦١ :

« لما خرج الظاهر بيبرس الى قتال المغول ، حينما احتل الشام ، اخذ فتاوى العلماء بانه يجوز له اخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو ، فكتب له فقهاء الشام بما اراد ! فقال : « هل بقي احد ؟ » فقيل : « نعم بقي الشيخ محي الدين النووي » فطلبه فحضر . فقال له : « اكتب خطك مع الفقهاء »

فامتنع . فقال الظاهر : « ما سبب امتناعك ؟ » فقال : « انا اعرف انك كنت في الرق للامير بندقدار ، وليس لك مال ؛ ثم منّ الله عليك ، وجعلك ملكاً . سمعت ان عندك الف مملوك ، كل مملوك له حياصة من الذهب ، وعندك مئتا جارية لكل جارية حُق من الحلى . فاذا انفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف ، بدلاً من الحوائص ، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلى ، افتيتك بأخذ المال من الرعية . » فغضب الظاهر من كلامه ، وقال : « اخرج من بلدي ، يعني دمشق . فقال : « السمع والطاعة » فخرج الى نوى . فقال الفقهاء : « ان هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ، وممن يقتدى به ، فأعده الى دمشق ، فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ ، وقال : « لا ادخلها والظاهر بها » فمات الظاهر بعد شهر . »

وهذه الحادثة وان كانت تشير الى وجود افراد من طبقة العلماء كانت تأبى التزلف للحكام ، او الاذعان لهم ، فأن التندّر بها يؤيد ما قلناه من ان علماء ذلك الزمان على وجه عام امسوا مطية لاولئك المسيطرين في سبيل توجيه الرعايا الوجهة التي يريدونها ، حتى ان فريقاً منهم وضعوا لذلك احاديث كاذبة رووها عن النبي . ثم لم يتورع بعضهم عن تفسير آيات القرآن وفقاً لاهواء اصحاب السلطان ! ولولا ان جذور الدين كانت لا تفتأ راسخة بين الشعب لاستشرى الفساد الى حد ابعد ، وتناول فيما تناول ، الصيانة والعفاف بمقدار اوفر .

ذلك كان نتاج الاستبداد في ذلك الزمان : تدهور في الاخلاق ، وفساد في المبادىء ، لم يسلم منها الا المتمسكون بالتعاليم الدينية ، والمحافظون على التقاليد القومية .

اما وان المرأة هي مرآة كل عصر ، وصورة طبق الاصل عن اهله تتكيف بحسب اهواء الرجل ، إنْ خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فانها اذ استسلمت

اليه ، وتوكلت عليه وسايرت اخلاقه ، وخافت مصيرها عنده ، وانصرفت بقواها كل الانصراف ، الى الاستيلاء على قلبه حماية لنفسها من شره ، وارضاء لمطامعها الجنسية في الانتصار عليه .

على ان ذلك العهد ، كما كان لا يخلو من كثيرين حافظوا على المبادىء الدينية ولزموا جانب الاعمال القومية ، او اشتهروا في البر والاحسان ، فكان لا يخلو ايضاً من الفضليات باخلاقهن ، او الزاهدات بالدنيا ، او الشهيرات في البذل للشؤون الانسانية . وسنتحدث عن بعض اولئك في الكلام عن ثقافة المرأة في ذلك العهد . ويطيب لنا ان ننوه هنا ببعض المحسنات من فئة اللواتي اتاحت لهن الظروف تحقيق الاماني الانسانية : فالملكة شمس زوج السلطان صلاح الدين شيدت ضريح الامام الشافعي في مصر عام ٦٨١هـ = ١٢٨٢ م ؛ واقتدى بها ، في الاعمال الخيرية ، فريق من نساء المماليك ، الذين خلفوا الايوبيين في مصر . وعلاوة على تذكار باي خاتون ، التي نوهنا بها من قبل ، فان بركة خاتون ، والدة السلطان الاشرف المتوفاة سنة ٧٧٤ هـ انشأت مدرسة مجانية واوقفت لها الاوقاف . على ان التي يشيد التاريخ بمبراتها هي فاطمة بنت المحدث المقري الدمشقي . ويؤثر عنها انها عمرت مدارس ومارستانات (مستشفيات) وتكايا ، واوقفت لها الاوقاف ، فنافست بذلك اكابر المحسنين من رجال عصرها . ولدت سنة ٦٢٠ ، وتوفيت سنة ٧٠٨ هـ .

ثقافة المرأة عهد ملوك الطوائف الترك

جنة زاهرة جادت عليها الطبيعة بافانين خيراتها ، فحفلت بالانهار الكوثرية ، وازدانت بالازاهير الجميلة العطرية . وتعهدتها ايدي العاملين بالهندسة الفنية ، وبالرعاية الابوية ، فجمعت بين خير الطبيعة ، وحسن الصنعة . هكذا كانت الحضارة العربية الاسلامية حتى اواخر القرن السادس للهجرة . غير ان

الزمان تحول عنها من بعد فعصفت بهـا الاعاصير ، وانصب عليها سيل خضم من علٍ فقلب معالمها ، حتى جعلها ركاماً ، فاذا بهـا تمسي خبراً بعد عين . وهكذا كان مصير تلك الحضارة منذ القرن السابع للهجرة في غضون استئثار الاعاجم بالسلطة ، وتنازعهم عليها ، وما رافق ذلك من الحملات الخارجية .

على ان هذا الصراع الداخلي ، وما خلـّف من الحملات الخارجية ، في القرن السادس للهجرة ، لم يستطيعا العبث بالتمدن العربي لانه كان يستمد القوة من عهود سلفت كان العلم فيها من اغزر ما عرف التاريخ ؛ ولأن بعض ملوك هذا الجيل من المسلمين سلكوا سبيل الخلفاء العرب في رعاية العلم ، وتنشيط الادب ، على احسن وجه ، فذهبت الحروب الصليبية التي ابتدأت منذ اوائل المئة الخامسة للهجرة ، واستمرت نحو مايتي عام ، ذهبت ادراج الرياح ، وكأن اعاصيرها لم تهب على تلك الحضارة .

ولكن الكارثة الكبرى التي لم تبق ولم تذر كانت حملات المغول منذ القرن السابع في اعقاب الحروب الصليبية . ففي هذه الحملات قتل العلمـاء والادباء ، ودمرت المعاهد العلمية ، وأتلفت المكتبات ، وعم الخوف والهلـع ، واصيب المسلمون بالنقص في الانفس ، والاموال ، والثمرات ، ومنوا بالمجاعات ، وسائر ما تخلفه الحروب من نكبات . ومن الطبيعي ان لا يجد النـاس بين مزعجات هذه الطوارىء امناً يساعد على علم ، أو يعين على معرفة . فلا يعين عليها غير راحة البال ، ويسر الحياة ، وخفة مؤنة الاهل . ورحم الله الامـام الشافعي القائل : « لو كلفت بصلة ما تعلمت مسألة » .

بلى كانت الاعاصير هوجاءَ ، والخطب جلل ٍلما احـاق بالمسلمين وعمرانهم وحضارتهم من تلف وبلاء ، ولكن تلك الجنة ، التي تعهدوها طوال نيف وستة قرون ، واخنى عليها الدهر في جيل واحـد ، كانت قوية الانبـات الى

حتى ان شجراتها الباسقة ، التي اراد المكتسحون استئصالها ، لم تلبث ان ابرزت خلائف لها رغم عدم ملائمة الظروف ، ولكنها كانت خلائف ما وسعها ان ترتفع الى الذروة التي ارتفعت اليها الاصـول . فقد ظهر في الشرق الاسلامي ، خـلال القرن السادس للهجرة ، علماء منهم السهروزدي شيخ العراق ، وابو الفرج بن الجوزي البغدادي ، المحدث الواعظ ، والطبري البغدادي الفقيه المتشرع ؛ كما ظهر منهم ادباء ، ومنهم الشاعران ابن الخيـاط الدمشقي ، وابن الخازن البغدادي ، وبرزت اسماء علماء وشعراء آخرين في اعقابهم . ولكن اين هؤلاء وهؤلاء من علماء وادباء القرون السالفة ؟

واذا كان هذا حظ الرجال من العلم في ذلك الزمن ، الذي اجتاحته النوائب من كل جانب ، فكيف بالنساء التي كانت الثقـافة بالنسبة اليهن تعتبر من الكماليات ؟ بيد ان تلك الايام لم تكن تخلو من مثقفات كان اكثرهن وليدات اوساط علمية حببت اليهن العلم من قبيل المجاراة فاقبلن عليه . وكانت ثقافتهن لا تتعدى العلوم الدينية واللسانية . ففاطمة بنت الامام المقري الدمشقية التي نوهنا بمبرّاتها ، كانت من العالمات المحدثات . اخذت الحديث عن والدهـا ، وعن اجلاء عصرها ، واجازها علماء من الشام والعراق والحجـاز وفارس ، واخذ عنها جملة من العلماء . وكانت تعاصرها ست الوزراء المحدثة المشهورة في القرن السابع للهجرة . اخذت هذه السيدة عن الزبيدي صحيـح البخاري ، ومسند الشافعي ، وقرأت على ابيها بعض الحديث . ولما استفاض خبر علمها استقدموها الى مصر حيث تتلمذ عليها في الحـديث الامير سيف الدين ارغون ، والقاضي كرم الدين ، فضلاً عن غيرهما .

وهناك طائفة اخرى من النساء كانت لهنّ صلة بطبقة العلماء وذلك اما بالانتظام بسلك الطرق الصوفية ، واما باللجوء الى الزهد ، والتقوى ، والعبادة . واشهر هذه الطائفة نساء الاسرة الرفاعية في ام عبيدة ببغداد . واشهر نساء هذه

الاسرة في القرنين السادس والسابع للهجرة ، السيدات التاليات :

● ست الكرام الرفاعية . ابنة اخت السيد احمد الرفاعي . وكانت زاهدة عابدة توفيت سنة ٥٦٠ هـ. ، ودفنت بمشهد ام عبيدة ببغداد .

● زينب بنت الامام احمد الرفاعي . تبعت طريقة ابيها . واقتفته بالزهد. وكانت عالمة وفطنة ، ومظنّة استجابة الدعوة . توفيت سنة ٦٠٣ هـ. ودفنت في المشهد المذكور .

● فاطمة الرفاعية بنت الامام احمد الرفاعي . كانت مظنة ولاية . توفيت سنة ٦٠٩ هـ.

● عائشة الرفاعية بنت السيد عبد الرحيم الرفاعي . كانت زاهدة عابدة، ومظنة ولاية . توفيت بأم عبيدة سنة ٦٣٥ هـ .

● فاطمة الرفاعية بنت السيد عبد الرحيم الرفاعي . كانت من الزاهدات العابدات ، وتوفيت في المدينه سنة ٦٤٣ هـ .

واشتهر عصرئذ نساء أخريات في الزهد من غير الاسرة الرفاعية ، منهن :

● رابعة بنت الشيخ ابي بكر البخاري . كانت مشهورة بالتقوى والصلاح توفيت سنة ٦١٣ هـ .

● رابعة الشامية زوجة احمد بن ابي الحواري لها شعر في الحب الرباني ، وكانت في الشام تشبه رابعة العدوية قبلها في البصرة .

● زينب بنت ابي البركات البغدادية التي بنت لها تذكار باي خاتون بنت الظاهر بيبرس ، سنة ٦٨٤ هـ ، داراً بالقاهرة وولتها على مشيختها ،

والتدريس فيها . وسمتها رباط البغدادية . وكانت الدار ملجأ للنساء اللواتي لا معيل لهن ، ومدرسة .

وفي الجملة فان الثقافة في عهد ملوك الطوائف الاتراك كانت بالنسبة للمرأة غير موجودة باستثناء قليلات اقتبسن محبة العلوم من ابائهن ، ثم مضين الى اخذها عن غيرهم ، وأخريات انتظمن بسلك الطرق الصوفية ، او حُبب اليهن الزهد والتقوى . فأخذ هؤلاء وهؤلاء العلوم الدينية بمقدار يعينهن على معرفة الوصول إلى الله . امـا طلب العلم والأدب حباً بالعلم والادب نفسيهما ، على غرار نساء العصور السالفة ، فكان امراً معدوماً في تلك الحقبة .

منزلة المرأة في عهد ملوك الطوائف الترك

كانت كثرة الترك ، قبل الاسلام ، بدواً رحلاً يتنقلون بخيامهم من ناحية الى اخرى ، وذلك من حدود الصين الى تخوم روسيا ، ويتعرّضون ، في حلهم وترحالهم ، للطوارىء والعدوان .

وكانت المرأة في اعتبارهم ، مثلما كانت عند سائر الامم القديمة ، مخلوقة لمتعة الرجل وخدمته . ولكنها اذ كانت عضد الرجل القوي ؛ ورفيقه الأمين الذي يقاسمه سراء الحياة وضرائها ، كانت تتمتع بقسط من الحرية التي تطلبها حياة البداوة التعاونية .

وكانت عادة المهر المتأخر مرعية عند الاتراك . ومن هنا كان يحق للأميرات قيادة الجيش ، وولاية الامارة اما بطريق الارث ، او بواسطة المهر المؤجل . واما ساكنات المدن والقرى من اهل الحضر فلم يكنّ يتمتعن بمثل الحرية التي كانت لاخواتهن البدويات ؛ بل كن ، على ما روى المؤرخ

التركي أميري : « في الدار للمتعة والخدمة ، وفي الحقل للزراعة ، ورعاية الانعام . »

على ان اهل الحضر ، كانوا مثل اهل الوبر ، سواء في احترام المرأة وتقديرها متى أصبحت أماً ، كما يستفاد ذلك من قول المؤرخ المذكور : « كان الزعماء يفضلون أمهاتهم على كل أحد . وكانت النســاء ، من الحرائر ، او الجواري ، يقمن بخدمة هؤلاء الأمهات . وكلما حملت احدى النسـاء ووضعت انتقلت من دورها الوضيع الى دور السيدات . ثم إذا تزوج ولدهـــا ازدادت احتراماً على احترام . »

ولما اجتاز الترك إلى ديار الاسلام ، وتغلبوا عليها حافظوا على تقاليدهم . وقد تحدث عنهم ابن بطوطــة . وفي حديث رحلته لاستراخـــان على بحر الخزر ، وزيارته لأوز بيك سلطان التتر ما ينوه باحترامهم للنساء ولاسيما الامهات . قال : « ومن عادة هذا السلطان ان يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهي من قضبان خشب ، مكسوة بصفائح الذهب . وفي وسطها سرير من خشب مكســو بصفائح الفضة المذهبة ، وقوائمه فضة خـــالصة ، ورؤوسها مرصعة بالجواهر . ويقعد السلطان على السرير ، وعلى يمينه الخاتون طيطقـلي ، وتليها الخـاتون كبك . وعلى يساره الخاتون بيلون ، وتليها الخاتـون أردُجي . ويقف عند أسفل السرير عن اليمين ولد السلطان تين بك ، وعن الشمال ولده الثاني جان [1] بك . وتجلس بين يديه ابنتــه كججك [2] . وإذا أتت إحداهن قام لها السلطان ، وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير . واما طيطقـــلي ، وهي الملكة ، واحظاهن عنده ، فانه يستقبلها على باب القبة فيسلم عليها ، ويأخذها بيدها .

---

(١) جان هنا تخفيف اسم جهان ومعناه حبيب .

(٢) يريد كجك اي الصغيرة باللغة التركية .

فاذا صعدت على السرير وجلست ، جلس حينئذ السلطان . وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب . »

ثم يصف ابن بطوطة بعد ذلك بقية مراسم الاحتفال ، وموكب الملكات حين انصرافهن منه . فيقول : « كان يسير مع كل واحدة منهن نحو خمسماية جارية ، راكبات على الخيل » ويتطرق من ذلك الى ذكر زيارته لكل منهن ، وما شاهد لديهن من الابهة ، وما حظي عندهن من الاكرام . وفي كل ما روى تنويه بما كانت تتمتع به المرأة عند هؤلاء الاتراك من السفور ، والحرية ، والمنزلة الحسنة .

وفي « تاريخ الصداقة بين العراق وتركيا » (ص ٤٠ — ٤٨) ، للعقيد شاكر صابر العراقي[١] ، ذكر لكثيرات من التركيات اللواتي لعبن ادواراً مهمة على مسرح السياسة والعمران في الاسلام . وحسبنا ان نشير الى واحدة منهن : طرخان خاتون زوجة السلطان ملكشاه السلجوقي ، وما كان لها من النفوذ في بلاط زوجها ، ثم ما كان لها من الحزم والتدبير بعد وفاته . فقد سترت خبر وفاته ، ونقلت جثته الى بغداد ، وبذلت الاموال إلى أن أمنت البيعة لابنها محمود . ولما نازعه على العرش اخوه بركيارق خفت لمحاربته ، وهزمته . وقد توفيت سنة ٤٨٧ ه .

بيد ان ملوك الطوائف الترك ، الذين خلفوا السلجوقيين على حكم البلاد العربية وغيرها ، لم يلبثوا أن تلقحوا بافكار أهالي تلك البلاد وعاداتهم ، وتأثروا بالأحداث السياسية التي واجهتهم ، وبالكوارث التي توالت عليهم ، فجروا مجرى غيرهم في التضييق على حرية المرأة ، فأخذوا الحجاب ، ومنعوا الاختلاط بين الجنسين ، ونظروا اليها نظرة الأمتهان . وكان يبرر كل هذا ما صارت اليه المرأة في تلك الحقبة من التجرد من الثقافة ، ومن انحطاط المدارك

---

(١) مؤرخ تركماني من كركوك استوطن بغداد بعد الثورة ، وتقاعد من الجيش ، وانصرف للتأليف ، وله كتب عدة نفيسة باللغة العربية .

ابان ما استشرى الفساد .

على ان تلك الايام المظلمة لم تخل ، مع ذلك ، من فئة من نساء السلاطين والملوك اثبتت وجودها ، سواء في السياسة ، ام في البناء ، اسوة بطرخان خاتون السلجوقية . ففي عهد الايوبيين ، في مصر والشام وبين النهرين ، كثيرات من سيدات هذه الاسرة كان لهن القدح المعلى في هذا المضمار . اولاهن خديجة زوجة السلطان صلاح الدين الايوبي بطل الحروب الصليبية . فقد لقبها معاصروها بست الشام لنفوذ كلمتها ، وموفور احسانها .

وكان ممن أفضى اليهن الملك في هذه الدولة ، التي انقسمت الى دول ، الملكة صفيّة خاتون بنت الملك العادل (٥٨١ – ٦٤٠ هـ) . وهي زوجة الملك الظاهر . ملكت حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز ، وتصرفت في الحكم تصرف حكماء السلاطين ، ودام ملكها ست سنوات .

وقد عاصرتها ملكة اخرى من بني ايوب ، هي الصاحبة غازية خاتون بنت الملك الكامل ، وزوجة الملك المظفر محمود صاحب حماة (٠٠٠ – ٦٥٦ هـ) وكانت من احسن الناس سيرة وزهداً وعبادة ، فحفظت الملك لولدها الملك المنصور حتى كبر ، وسلمته اليه قبل وفاتها .

اما داهية نساء تلك الاسرة فكانت شجرة الدر . هي تركية كانت جارية للملك الصالح بمصر فتزوجته . فلما توفي بعلها « ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م » كتمت خبر موته ، كيلا يفت هذا النبأ في عضد امراء الجيش الذي كان يحارب لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة ، وجمعت الامراء ، وقالت لهم : « السلطان يأمركم ان تحلفوا له . ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفه ، وللأمير فخر الدين بن الشيخ بأتابكية العسكر [1] . »

---

(١) اتابكية العسكر لقب قيادة الجيش .

فحلف الامراء والاجناد والكبراء من العسكر . ولبثـت تخرج الكتب والمراسيم ، وعليها علامة الملك الصالح . ولما تمَّ الفوز للمصريين اشهرت امر وفاة الملك الصالح ومبايعة ولده المعظم طوران شاه . غـير ان المماليك لم يلبثوا الا قليلاً حتى قتلوا الملك توارنشاه ، واتفقوا على ان يقيموا شجرة الدر على المملكة ، وُخطب لها على المنابر ، وُضربت السكة باسمها . وكان نقش السكة : « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل . » وكانت صورة علامتها على المنشورات والتواقيع : « والدة خليل . » وهي كانت اول ملكة في العهد الاسلامي .

وكان قد تولى منصب اتابكية الجيش عز الدين ايبـك [1] وكأنها أنفت من اشتراكه معها في النفوذ فحاولت قتله ، غير انها لم تقوَ على المماليك انصاره فقتلوها ، ومثلوا بها . ودفنت في المسجد الذي بنته في حيّ الخليفة بمصر قرب السيدة نفيسة . وبقتل الملك المعظم وامه انتقل الحكم من الدولة الايوبية الى المماليك البحرية .

هذا وكان بعض نساء الاتابكة ، في كل مكان ، ينهجن نهج سيـدات الاسرة الأيوبية في المبرات والتعمير وتنشيط الثقافة ، فضلاً عن السياسة . فطرخان خاتون زوجة اتابك سعد خلفت بعلهـا بعد موته على الملك . فكانت عضداً للعلماء ، ونصيراً للفنون والاداب . وكان لها منتدى تتصدر فيه يؤمه افاضل القوم ، وتسمع الى مناظراتهم ، وتشترك في مسـاجلاتهم . وكذلك علماء خاتون في ايران . فقد سيطرت على شيراز ، وزينتها بالعمارة ،

---

(١) يقول جرجي زيدان (تاريخ مصر الحديث ج ١ : ٦) في سنة ٦٤٨هـ بويع عز الدين ايبك على مصر ، وتزوج بشجرة الدر .

كما جعلتها زاهرة علمياً بمجالسها الادبية ، واعطياتها للموهوبين .

وهكذا كان عهد ملوك الطوائف الاتراك وغيرهم يجمع بين النقيضين : بين نساء العامة اللواتي عشن في ظلام ، ولا شأن لهن يذكر ، وبين سيدات من الخاصة ساعدتهن الظروف على تبوأ ارفع المراتب ، حتى اتيح لبعضهن ان يستوين على العروش .

الفصل الحادي عشر

المرأة في التمدن العربي بالشرق

العهد المعاصر للسلطنة العثمانية – عهد التدهور

يبتدىء هذا العهد بأول القرن الثامن الهجري والثالث عشر الميلادي ابان ما تم الاستقلال لآل عثمان . وهو وان كان بالنسبة للمسلمين خيراً من عهد ملوك الطوائف الاتراك في الناحية السياسية ، لانه جمع شمل العالم الاسلامي ، مرة اخرى ، تحت راية امبراطورية عظيمة رفعت شأنه مدة طويلة ، ولانه اعاد اليهم في صدر السلطنة ، الطمأنينة على نفوسهم واموالهم ، الا انه كان من حيث المدنية والعمران متخلفاً لم يعوض عليهم شيئاً مما فقدوه من ثقافة ومعرفة . فقد كان في طاقة العثمانيين بعد ان اوتوا من القوة شيئاً كثيراً ان يحيوا الحضارة

العربية الاسلامية ، ثم ان يسايروا التمدن الحديث فيمشوا في طليعة موكبه . ولكنهم لم يفعلوا بل صرفوا حياتهم في الحروب ، بين هجوم ودفاع ، حتى اذا انقضى عهد القوة العسكرية المجردة ، واصبح اعتماد الناس على الفنون والعلوم ذال بأسهم ، وسقطت امبراطوريتهم . ولا بدع فلكل زمان دولة ورجال [١] .

وسنجري في الكلام عن المرأة في هذا العهد على الاساس الذي التزمناه من قبل : اخلاقها وثقافتها ومنزلتها ، الى اواخر القرن الثالث عشر للهجرة ، والتاسع عشر للميلاد حيث بزغت النهضة النسائية في العالم الاسلامي .

على ان البلاد العربية وان لم تدخل في نطاق السلطنة العثمانية الا في صدر القرن العاشر للهجرة (١٧ للميلاد) فان كلامنا عن المرأة العربية في هذا الفصل سيشمل ما كان قبل هذا التاريخ اذ يبتدىء من قيام السلطنة . ثم يدخل فيه عهد مماليك مصر .

اخلاق المرأة في العهد المعاصر لآل عثمان

كان السلاطين الاولون يتحلون بالاخلاق الفاضلة ، ويتخذون من الخلفاء الراشدين قدوة لهم . وكان عدلهم مرفرفاً على عمّالهم الحريصين على اتّباع سننهم .

---

١ في كتابنا « فلسفة التاريخ العثماني » بجزئيه بسطنا العوامل التي افضت الى عظمة آل عثمان ، ثم الى تخلفهم وزوال ملكهم .

غير ان حكمهم كان حكماً عسكرياً يتفق مع نشأة السلطنة واخلاق بناتها : فآل عثمان كانوا امراء قبائل قايي خان التي شخصت من تركستان الى الشرق الادنى فراراً من الموجات المغولية، واستقرت في الاناضول. ولما تسنى للسلطان عثمان (٦٦٦ – ٧٢٦ هـ) ان يقيم دولة هناك جرى على سنة القبائل البدوية في اعتبار الرعية اجناداً ، فكان النساء اذا دارت رحى الحرب يشاركن الرجال طمعاً في الكسب ، أو في الأجر . ولكن هذا السلطان وخلفاءه لم يلبثوا الا قليلاً حتى انشأوا تباعاً الفرق العسكرية من المشاة والخيالة . اما في ادارة الامصار فاستمروا مدة طويلة يتبعون المناهج البدائية التي تنسجم مع الحياة العسكرية : اقطعوا رؤساء الاجناد الاقطاعات ، ولا سيما على الحدود ؛ وجعلوا اهلها في الاستثمار كالابقار التي يؤكل لحمها ، ويستأثر بالبانها ، وتعد للحرث وجر الاثقال . ومع ذلك فان تلك الحقبة كانت بالنسبة للشعب خيراً منها في عهد ملوك الطوائف الاعاجم لان اخلاق اولياء الامور فيها كانت لا تزال سليمة ، وكان لهم في انفسهم وازع من دين ، وخوف من السلاطين .

ثم اصاب الاخلاق بعد سليمان القانوني (٩٢٦ – ٩٧٤ هـ) ما اصاب . ففي ايامه بلغت السلطنة ذروة عزها ، ولكنها شرعت تتدهور حينما افضى زمامها من بعد الى حواشي خلفائه من نساء وخصيّ ومخانيت ، واستبد بها الاراذل من اغوات الاجناد والزعماء الاوغاد . فهؤلاء شرعوا يولون على الأمصار والادارات خدمهم وخصيّهم ومحاسيبهم ، والباذلين الرشوة ، فساءت الحالة . ثم ازدادت الاحوال سوءاً على سوء حينما سنت الدولة نظام تلزيم الأيالات بالمزايدة . ولا عجب ، وانما العجيب ان لا يسوء وقتئذ المصير إذ أمسى همّ الملتزمين ادراك ما امكن كسبه من الربح ، ولا سيما في اواخر مدة

الالتزام .

وكان من عواقب ذلك نشوب الثورات الداخلية ، بالاضافة الى الحروب الخارجية . وهى ثورات وحروب كانت تتطلب الاموال والرجال ، فاذا بالحكام لا يتورعون عن مصادرة الثروات ، ولا يرحمون الشبان في سوقهم الى الجندية تباعاً . فاذا بالظلم والاستبداد والاستثمار تعود الى صفوف الحكام ، واذا بالخوف والقلق والحذر تسود بين الاوساط الشعبية .

كان الوزراء يتظلمون من حاشية السلطان ، او من زعماء الأجناد ، فيتخذون من الولاة وملتزمي الامصار ورجال الحكومة مصرفاً لظلامتهم ، فيظلمون كما ظلموا . وكان هؤلاء يتبرّمون ممن فوقهم ، فيعاملون الرعية باسوء مما يُعاملون . وعلى غرارهم كان الرجل المظلوم يستبدّ ايضاً في أهل بيته تمشياً مع روح العصر ، وما أوخم الاستبداد على الاخلاق ؟

وكان الجهل الذي يشمل الجنسين من عوامل الاغراق في ظلم الرجل للمرأة ، وفي تدهور اخلاقها : نظر اليها الرجل ، وقد اثر عليها الجهل ما اثر ، فشاهد تصرفات منها لا تصدر الا عن صغار العقول . اعتقد انها قليلة العقل فاستهان بها ، وتعالى عليها ، وهو الجاهل ايضاً ، تعالي الغصن الفارغ من الاثمار ، وحجبها عن الناس ، وحرم عليها العلم ، وما زال حتى رسخ في ذهنها ان الرجل مقدس تجب له الطاعة على الاطلاق ، وان لا مماراة في انها على نصف عقل ، ونصف دين ، ونصف حق ، وانها كالاولاد تحتاج الى الوصيّ من المهد الى اللحد ؛ وانها انما خلقت من اجل الرجل ، واذا كانت لها مهمة في المجتمع فانما هي ان تكون لعبته ، ومستودع بضعته ، وخادمة بيته ، ومربية اولاده . وكان من نتيجة ذلك الوضع ان المرأة امست تدور حول مدار الحظوى بمرضاته ابتغاءً لخيري الدنيا والآخرة ، والسعي

للأستئثار بقلبه دون غيرها من النساء ، ولو كان سبيلها الى ذلك الحيلة والمكر والكذب وسائر فساد الاخلاق . واصبحت الى ذلـك ، كما وصفها قاسم امين ، « ممثلة ماهرة وشخصية قادرة ، تظهر في المظاهر المضادة ، والألوان المختلفة في كل حال بحسبها . ذلك لا عن عقل وحكمة ، ولكن هي حيلة الثعالبة . »

بل ان بعض النساء ذهبن الى ابعد من ذلـك في سبيل كسب مرضـاة بعولتهن . ذهبن الى مغالبة الفطرة الطبيعية فطمسن عليها . واعني بها الغيرة التي ما اشتعلت في قلب امرأة الا قلبتها الى لبوة كاسرة . فقـد روى الجبرتي المؤرخ المصري ، في ذلك العهد ، عن احدى زوجات أبيه . قـال : « انها كانت من الصالحات المصونات ، وكانت بارة بزوجها . ومن جملة برّها به انها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها ، وتنظمهن بالحـلى والملابس ، وتقدّمهن اليه . وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك . وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر فلا يسوءها فعله ، ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة ! »

والواقع ان الغيرة خلق للمرأة لا ينفصل عنها ؛ ولكن مقاييس ذلك الزمن في تعيين وظيفة المرأة ، هي التي طمست على هذا الخلق الفطري عند بعض النساء ، وجعلته اثراً بعد عين .

وفي ذلك الزمان الذي افقد المرأة مزاياها الطيبة ، وجعلها سجينة البيت ، وهي مع ذلك غير حاكمة فيه ، انتفض بعض السيدات انتفاضة النبات بين الصخور للتماسّ مع نـور الشمس ، واردن ان يتنفسن الصعداء ، ويظهرن في المجتمع اسوة بسابقات لهن في هذا المضمار . ولكن لم يكن لهن سبيل لتحقيق هذه الامنية الا بطريق الدين ؛ فلجأن الى الانخراط في الطرق الصوفيـة ، والّفن لهن فروعاً خاصة كان التقيات ينتسبن اليهـا او يترددن على مجالسها ،

فيسمعن الاذكار ، ويصغين الى الكتب المحشوة بالاساطير ، ويقبلن عليها بمقدار ما فيها من خوارق الطبيعة .

وقد بقي لهذه الطرق الصوفية النسائية بقية حتى حين قريب ، وقد رأينا في عصرنا قليلاً منها في فلسطين وحمص . على ان هذه الطرق لم تخل من الطيبات الصالحات الزاهدات اللواتي انتسبن اليها عن علم ومعرفة ودين . من امثال آل الرفاعي الكبير في بغداد اللواتي اشرنا اليهن في البحث السابق . وقد اشتهرت منهن في عهد السلطنة العثمانية بديعة بنت سراج الدين الرفاعي ببغداد ، وهي من اهل طريقته ، كما اشتهرت زينب بنت فاطمة بنت عباس التي وليت على مشيخة رباط البغدادية ذلك الرباط الذي اوقفته باي خاتون بنت الظاهر بيبرس في القاهرة ، وجعلته ، كما اسلفنا ، ملجأ للواتي لا عائل لهن من النساء ومدرسة . وتوفيت سنة ٧١٤ هـ .

وفي بيروت الآن سيدة جليلة لجأت اليها في اعقاب نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ؛ وهي ستي فاطمة بنت السيد علي اليشرطي شيخ الطريقة اليشرطية الذي قيل في حياته :

« لذْ بالعليّ اليشرطيّ فانه   باب الهدى وكعبة التحقيق »

وهي هنا لا تزال المرجع الاعلى لفروع هذه الطريقة ومريديها . وكذلك اخوها شيخ الطريقة .

والى هذا فقد رافق النزعة التصوفية زمن آل عثمان وقبله نزعة اخرى خيّرة قام بها بعض النسوة المثريات ، ولا سيما نساء مماليك مصر . ومدارها المساهمة في الاعمال الخيرية والعمرانية .

فبينما كان ملوك الاعاجم وسلاطينهم يبسطون اكفهم في العطاء للاعمال

الخيرية لغايات سياسية ، واخصها تحبيب الشعوب بهم ، كان بعض نسائهم يبذلن لوجه الخير فحسب . واكثر من ذلك فان بعض جواريهم كن يتمثلن بزوجاتهم في البذل للبر والاحسان مرضاة لله . وربما كان نساء عواهل مصر اكثرهن عناية بالاعمال الخيرية . فقد كان عهد الملك الناصر بن قلاوون حافلاً بهؤلاء الخيرات . فزوجته طولباي التي تزوجها سنة ٧٣٠ هـ لها مآثر جمة من مدارس ، ومصانع ، ومساجد . وكانت رفيعة المنزلة ، ويدها في الخيرات مبسوطة . وزوجته الثانية طغاي عرفت بحب الخير والاحسان . اصلها جارية اعتقها وتزوجها وادركت منزلة عظيمه ، وتوفيت سنة ٧٤٩ هـ . وجاريته حدقة ، التي كانت قهرمانة البيت السلطاني ، اشتهرت بالبر والاحسان ، وبنت بنايات عدة اوقفتها على الخير وانشأت سنة ٧٧٣ هـ . مسجداً دفنت فيه . ثم اشتهرت بعد ذلك بركة خوند والدة السلطان الاشرف. كانت امة عظم شأنها حينما تسنم ولدها عرش المملكة وفاضت بركاتها . ولما حجت سنة ٧٧٠ هـ تحدث الناس بحجها عدة سنين . ومن اثارها المدرسة المشهورة في باب زويلة بالقاهرة . انشأتها سنة ٧٧١ هـ ، واعدتها للعلوم الدينية على مذهبي الشافعي وابي حنيفة . ثم تحولت الى جامع . وكانت وفاتها سنة ٧٧٤ هـ.

واما بين نساء سلاطين آل عثمان فلم نعثر على واحدة من مثل هؤلاء الا صفية والدة السلطان سليمان الثاني . وربما كان يرجع ذلك الى اقبال كثيرين من هؤلاء السلاطين على الزواج من الاوروبيات اللواتي لم يكنّ يتحسسن بأحاسيس الاتراك انفسهم ، ولا يشعرن بشعورهم الديني .

وفي الجملة فتلك الحقبة من الزمن كانت حقبة مظلمة بالنسبة للمرأة احلك من التي سبقتها ، اذ كانت اخلاقها تستمد عناصرها من الجهل السائد ، فتبدو وكأنها اخلاق القاصرين الذين لا يحملون التبعات ، وانما يتكلون في كل

امورهم على القيّمين عليهم . والقاصرون معرضون للشذوذ عن الصراط المستقيم، اذا لم يكن لهم رادع من دين يقوم مقام الوازع النفسي الذي فقدوه، او يتعاون معه .

ثقافة المرأة في العهد المعاصر لال عثمان

أتمّ ابن خلدون مقدمته سنة ٧٧٩ هـ، اي في اوائل العهد الذي نتحدث عنه، واتى فيها على مواضع العلم في عصره فقال : « واما العلوم العقلية فلم تظهر في الملة الا بعدان تميز حملة العلم ومؤلفوه، واستقر العلم كله صناعة، فاختصت بالعجم، وتركها العرب، وانصرفوا عن انتحالها، ولم يحملها الا المعرّبون من المعجم شأن الصنائع، كما قلنا، فلم يزل ذلك في الامصار ما دامت الحضارة في العجم، وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر . فلما خربت تلك الامصار، وذهبت منها الحضارة، التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع، ذهب العلم من العرب جملة لِما شملهم من البداوه، واختص العلم بالامصار الموفورة الحضارة، ولا اوفر اليوم في الحضارة من مصر . فهي ام العالم، وايوان الاسلام، وينبوع العلم والصنائع . وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر . لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها . فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر . وقد دلّنا على ذلك كلام بعض علمائهم من تآليف وصلت الينا، وهو سعد الدين التفتزاني . واما غيره من العجم فلم نرَ لهم من بعد الامام ابن الخطيب، ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الاصابة .» على ان ابن خلدون فاته ان يذكر من معاصريه علماء آخرين اشتهروا في تركستان ذكرهم ليون كاهن [١]، وهم علي الحمداني، والخوجه بهاء الدين،

---

(١) Histoire du developpement intellectuel de l'Europe .

والشاعر لطف الله النيسابوري ، من أهل القرن الثامن للهجرة ، والرابع عشر للميلاد .

ولو ان ابن خلدون ، المعاصر لتيمورلنك ، تأخر في كتابة مقدمته ربع قرن فقط لما وسعه الا ان يوجه الاطراء الشديد للحضارة التي احياها هذا العاهل العظيم في تركستان .

ذلك لان هذا الامبراطور ، الذي صوره اعداؤه آل عثمان ، ومؤرخوهم ، على صورة جنكيزخان ، وهولاكو ، كان في الواقع ، من اكابر المصلحين . فقد حاول انشاء مدنية اسلامية تركية تخلف الحضارة العربية الاسلامية او تكون امتداداً لها . وكان عالماً عمرانياً اجتماعياً لم يكن يتوخى من اخضاع الامصار ادراك لذة الفتح ، وشهوة الغلب فحسب ، بل كان يطمح الى رفع مستوى وطنه بالعلم والعمران . وما اكثر ما احضر من العلماء والصناع الى هذا الوطن من البلاد التي فتحها ؟ وقد قال كلافيجو سفير اسبانيا اليه : « ان تيمورلنك احضر معه من فتوحاته من الصناع ما ضاقت عنه مآوي سمرقند ، فأنزلهم في البساتين التي حولها . »

ولكن حظ المسلمين كان قد التوى . اذ خلف تيمورلنك خلفٌ من ابنائه تخاصموا بينهم فهدموا ما شيده . ومنذ سنة ١٤٤٩ م امسى تاريخ تركستان ، وخوارزم ، وخراسان ، حافلاً بالفتن . كما ان مصر التي انفردت وقتئذ في حضانة المدنية الاسلامية لم تلبث ان اصيبت بما اصيب به غيرها من الامصار الاسلامية من التدهور من جراء الفتن التي نشبت بين المماليك ، حتى اذا دخلت في حكم العثمانيين (٩٢٣ هـ = ١٥١٦ م) شاركت غيرها من الامصار في سوء المصير .

على ان الازهر وان لم يستطع رد عادية الجهل كله ، وان لم يحفظ للحياة

سائر العلوم والفنون التي خلفتها الحضارة الاسلامية ، الا انه نجح ، احسن نجاح ، في صيانة العلوم اللغوية والدينية ، وفي تزويد القاصدين اليه من كل مصر آخر بثقافته . وما ينبغي ان ينسى العالم الاسلامي يد الازهر البيضاء في ذلك العهد المظلم[1].

ومن المؤسف ان يكون ذلك الزمان مظلماً علمياً ومدنياً بالنسبة للمسلمين بينما كانت لهم فيه دولتان عظيمتان : دولة الفرس التي قامت بمشائخ الصفوية على انقاض السلطنة التيمورية ؛ ودولة آل عثمان . فدولة ايران هذه لم تأل جهدا في رعاية الثقافة والعمران اسوة بتيمورلنك ، وقد شاهدتُ خلال تجوالي في ايران سنة ١٨٣١هـ = ١٩٦١ م من اثارهم ما يدهش العقول ، ولا سيما بعاصمتهم أصفهان ، شاهدت مساجد وقصوراً ومدارس لا تقوم عظمتها على ضخامتها فحسب ، وانما تقوم على ما فيها من هندسة وفن وزينة وروعة . وكذلك السلطنة العثمانية فلم يغفل بناة عظمتها ايضاً عن الناحيتين الثقافية والعمرانية ، بل ان السلاطين اورخان ، (٧٢٦ هـ - ٧٦١ هـ) وجلبي محمد ، (٨١٦ - ٨٢٤ هـ) ومحمد الفاتح ، (٨٥٥ - ٨٨٦ هـ) وسليمان القانوني ، (٩٢٦ - ٩٧٤ هـ) وغيرهم كانوا انصاراً للعلم ، وكانوا عمرانيين . وقد رأيت ايضاً من اثارهم في تركيا ، ولا سيما في استامبول ، الشيء الكثير من العمارات ، والمعاهد العلمية ، وكلها تشهد لهم على انهم كانوا للعمران مؤيدين ، وللثقافة مريدين . ولكن الحروب التي نشبت بين الدولتين ، من وراء الفتن التي كانت تقوم بين السنة والشيعة ، ثم ما تلاها من حروب اخرى وفتن في البلدين صرفت كلاً من الفرس والترك عن اهدافهم المدنية التي باشروها في عهدهم الاول .

والواقع ان التبعة كلها تقع على آل عثمان فقد اتيح لهم الانتصار على ايران ،

---

(١) لاحمد حسن الزيات محاضرة في هذا الموضوع القاها مساء ٢٢ نوفمبر ١٩٦٠ ، وطبعت على حدة من قبل الازهر .

واحتلال بعض بلادها، ومنها العراق ، وبلغت حدود دولتهم على عهد سليمان القانوني نهر الدانوب شمالاً ، ومنابع النيل ، والمحيط الهندي جنوباً ، وسلسلة جبال القفقاس شرقاً،وسلسلة جبال اطلس غرباً بما يزيد مساحته على اربعين الف ميل مربعاً، ولكنها مع ذلك ، ورغم دخول اكثر الامصار الاسلامية في حوزتها لم تعن العناية الكافية باحياء المدنية الاسلامية ، كما انها لم تقبل على التمدن الحديث. زد على ذلك ان السلاطين الذين نوهنا بهم في معرض العناية بالعلم والعمران ، انما كانوا مقلدين لخلفاء العرب ، وليس عندهم ما عند هؤلاء من الشغف بها . وهم الى ذلك وان عمروا عاصمتهم عمراناً كثيراً ، وجعلوها حافلة بالجوامع العظيمة والمدارس الكبيرة ، وفعلوا شيئاً من مثل ذلك في امهات المدن الاخرى الا انهم لم يتجاوزوا حدود العلوم الدينية والادبية ولم يتعدوا، في ذلك العمران العاصمة وبعض الحواضر الكبرى. ثم هم لم يفكروا بنشر العلم في الاوساط الشعبية اسوة بالدول المعاصرة في اوروبا . بل انحصر همهم، في اول الامر، باتساع الملك،واستخضاع الامم . ثم انحصر همهم، في آخر الامر ، بدفع الغوائل عن هذا الملك الذي اخذ ينهار بسرعة مثلما ارتفع .هذا فضلاً عن ان المدارس التي انشأوها انما كان المقصود منها تنشئة وتخريج الموظفين الاداريين والعسكريين الذين كانوا ، على الاغلب من فئة علماء الدين .

لذلك اخذ الجهل يستفحل في البلاد العثمانية منذ عهد مراد الثالث (٩٨٢ — ١٠٠٣ هـ) اي في القرن السادس عشر . بالاضافة الى فساد الاخلاق ، حتى اذا صارت مقاليد السياسة في قبضة الوزراء والقواد ، الذين تدرجـــوا من خدام في القصور الى تصريف الامور ، صدر عن هؤلاء أمور تدل على الجهل لا تصدقها العقول . من ذلك ما رواه لافاليه الافرنسي[١] احد المؤرخين: «ان سفير فرنسا، ابان الحرب العثمانية الثـانية الروسية ، في عهد عبد الحميد الأول (١١٨٧ —

---

١ Lavallé, Histoire de la Turquie p. 211.

١٢٠٣ هـ) ، انبأ السلطنة ان حكومة كاترينا ملكة روسيا عزمت على ان تسوق اسطولها من مرفأ بطرسبرج الى قسطنطينية ، فانعقد المجلس العثماني وتدارس الامر ، وقرر ان هذا الكلام ضرب من التهويل ذلك لأنهم استبعدوا وجود سبيل في البحر لوصول المراكب الروسية الى بلادهم . »

وقد اعربت في كتابي الثاني « فلسفة التاريخ العثماني » عن اني استبعد هذا الخبر لولا اني رأيت ما يؤيده في مجلة دوننما التركية (م ١ ص ٢٥٥) .

واذا كان هذا مبلغ رجال الدولة من العلم فماذا عسى يكون حظ الشعب منه ؟ ثم ماذا يكون نصيب المرأة من المعارف في عصر انحط مستوى اهله الى درجة تحريمهم القراءة والكتابة للبنات ؟ اجل . فلقد انتشرت الامية في كل البلاد ، وانحصر العلم في الشؤون الدينية ، كما انحصر تحصيل هذا القسم في افراد قلائل ، وتطرق الخلل الى التعليم الديني ايضاً ، وغشيته الاوهام حتى كان جل تاليف ذلك الزمان محشوة بالخرافات ، وغرائب الاخبار التي تنسجم مع عقول اهل تلك الاجيال. وقد حدثتني عمتي آمنة ان الذين يعرفون كانوا اليسير من القراءة والكتابة من البيروتيين في عصر والدها الحاج مصطفى كانوا يباهون بهذه المعرفة ، ويضعون الدواة المستطيلة في زنانيرهم بحيث لا تخفى على ناظر . وكان بعضهم يتخذ القراءة والكتابة حرفة فينتقل من تاجر الى اخر ليقرأ لهم ، ويكتب ، ما يحتاجون اليه في المراسله والمحاسبة . وانبأتني ايضاً ان اهل ذلك الزمان ، بلغ من سذاجتهم ، انهم كانوا اذا أموا الجامع العمري الكبير ببيروت لصلاة الصبح حمل اثنان منهم إمام الجامع على سواعدهم وطافوا به حول الحوض قبل الوضوء لحصول البركة بينما هم ما كانوا يبالون بما كان يطوف على ماء الحوض من نفايات انوف المتوضئين !

على ان ذلك العهد الذي استمر نحو ستة قرون، اي قدر ما استمرت العهود الاسلامية التي سبقته لم يخل طبعاً من علماء وعالمات في الشؤون الدينية . ولولا ان هذه العلوم فرض عين في الدين لالحقوها بغيرها من العلوم . ففي مصر ابن خلكان والقاضي الفاضل والحافظ ابن حجر العسقلاني ، وفي الشام أبن تيمية ، والقاضي ابن جماعة، والحافظ فخر الدين بن الحجار . وغيرهم عديدون في هذين القطرين وفي سواهما من علماء لمعت اسماؤهم قبل ان تدخل البلاد العربية في حكم آ ل عثمان ، وفي اوائل ايام دولتهم .

ولكن كل هؤلاء انما تخرجوا من الازهر وامثـــاله من المساجد الاسلامية دون ان يكون للسلطنة دخل في توجيههم وتعليمهم . اما المرأة فكانت امية على وجه الاجمال ، وكانت معلوماتها محصورة في اطار مايتداوله الناس من بعض امور الدين . واكثر تلك المعلومات كانت تدور على السنة النـاقلين الذين لا يؤتمنون على رواية ، او تـأتيهم على السنة شيوخ نصبوا انفسهم للتدريس ، وهم جاهلون .على ان تلك الحقبة الطويلة ، لم تخل من عالمات عربيات ظهرن بين الفينه والفينة ، في مصر والشام .

ولقد شهد القطران عهد ممـــاليك مصر (١٢٥٠ م – ١٥١٦ م) ، اي في صدر السلطنة العثمانية ، نشاطاً نسائياً ، الى جانب نشاط الرجـال ، في حقل العلوم الدينية . فلمع فيها ، خلال القرن الثـــامن الهجري ، اسم زينب بنت فاطمة بنت عباس الفقية الصالحة. وكانت وافرة العلم انتفع بها كثيرات من نساء دمشق والقاهرة . وتولت مشيخة رباط البغدادية بالقاهرة عدة سنين حتى جاء اجلها سنة ٧١٦ هـ .

واشتهرت في القطرين ايضاً في ذلك القرن زينب بنت عبـد الله بن عبد الحليم المحدثة الحاذقة . قال عنها الحـافظ بن حجر : « سمعتْ من ابن الحجار

(من اهل الشام) وغيره، ولي فيها اجازة .»

وكذلك اسماء بنت محمد حصري اخت القـاضي نجم الدين بن حصري . وكانت شيخة عالمة تقية ، مدحها الشاعر بقوله :

كذلك فلتكن اخت ابن حصري تفوق على النسا صبياً وشيبا
طراز القوم انثى مثل هذي فلا التأنيث مثل السيف عيبا

ومثلها زينب بنت محمد بن عثمان الدمشقية من اهل المئة الثامنة للهجرة . وكانت فقيهة محدثة مدرّسة . حدثت بالاجازة العامة عن فخر الدين بن الحجار وغيره . ومن تلامذتها الحافظ ابن حجر .

وكان لزينب هذه مواطنة أخرى دمشقية لها مثلهـا حلقة تدريس ؛ وهي عائشة بنت علي بن محمد العالمة المحدثة . سمعتْ عن زوجهـا الحافظ نجم الدين الحسيني ، وعن الامام علي الخباز . ولها معرفة بالآداب العربية .

اما التي جمعت في القرن الثامن بين العلم والشعر فكانت عـائشة الباعونية . فمن اساتذتها اسماعيل الحوراني ، والأرموي . واخذ عنهـا جملة من العلماء الأعلام . ولها ديوان شعر رقيق في المدائح النبوية ، كما لها مولد بديع . ومن شعرها الرائع في جسر نهر الشريعة لما بناه الظاهر برقوق :

بنى سلطاننا برقوق جسراً بأمر ، والأنام له مطيعـة
مجـازٌ في الحقيقة للبرايا وأمر بالمرور على الشريعة

ولها شعر في الغزل بديع ، ومنه :

كأنما الخال تحت القرط في عنق بدا لنا من محيّا جل من خلقـا

نجم غدا بعمود الصبح مستترا   خلف الثريا قبيل الشمس فاحترقا

وقد ذكرت زينب فواز في كتابها النفيس : « الدر المنثور » ان عائشة توفيت في القرن العاشر الهجري . وهذا سهو لان عائشة كانت معاصرة للسلطان الظاهر برقوق الذي توفي سنة ٨٠١ للهجرة (١٣٩٩ م) .

ثم سجل القرن التاسع للهجرة اسماء أخريات عُرفن في العلم والادب . وأشهرهن :

● بديعة الرفاعية بنت سراج الدين الرفاعي البغدادي . وكانت زاهدة وعالمة بالشريعة على منزلة رفيعة . اخذت عن ابيها وحدثت . وسمع منها الامام محمد الوتري وغيره . ولها شعر في مدح الرسول ، منه :

رسول الهدى ادعوك والقلب خاشع   هلوع فيا للغارة الأحمدية
عليك تحياتي ولو ان همتي   حطيطة حد عن مقام التحية
فانك مصباح الوجود باسره   وشمس اسارير الهدى للبرية

● عائشة بنت عبد الهادي المقدسي تلميذة الحافظ ابن الحجار ، واستاذة الحافظ ابن حجر . وُصفت بأنها سيدة المحدثين . وقد توفيت بدمشق سنة ٨١٦ هـ .

● زينب بنت قاضي القضاة ابي الحسن علي بدمشق سمعت الصحيح على عائشة بنت عبد الهادي وحدثت .

واما القرن العاشر للهجرة وما بعده حيث امست البلاد العربية ترزح تحت حكم آل عثمان فقد انطفأت فيه البقية الباقية من شعلة الحضارة العربية الاسلامية ،

وانكمشت المرأة فلم ينسن" لنا ان نعثر على اسم واحدة من العالمات غير فاطمة بنت قريمزان من اهل المئة العاشرة . نوه بها محمد كرد علي في كتابه خطط الشام ، ووصفها بأنها شيخة المدرستين بحلب . على ان لون العلم في عهد الانحطاط العربي كان غيره في ايام ازدهار الحضارة الاسلامية. كان لوناً تغشاه صبغة دينية مشفوعة بالصوفية ، وممزوجة بالزهد ، ولا سيما عند النساء ، بينما كان العلم عند علماء وعالمات التمدن العربي يجمع من كل فن خبرا، وكان اديباته يرفلن بأثواب زاهية تسر القلب والنظر . اما اديبات هذه الحقبة فاذا نظمن الشعر فللمدائح النبوية فحسب الا ما ندر. على ان الشعر والنثر أمسيا في الأجمال عند النساء والرجال على حالة جد مذرية منذ القرن العاشر للهجرة ، او السادس عشر للميلاد .

ومن المؤسف ان الجهل ظل بعد ذلك يزداد استفحالاً بين شعوب السلطنة العثمانية طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة ؛ ولولا جامع الأزهر بمصر وحلقات الدروس في مساجد الشام ، والعراق ، والحجاز ، وفي المدارس التي هي من مخلفات القرون السابقة ؛ لولاها لحرمت البلاد العربية حتى من العلوم الدينية ، واللسانية . ولأقفرت من العلماء ، والادباء .

وكان من مآتي الجهل في ذلك الزمان حظر التعليم على البنات ، فضلاً عن القراءة والكتابة ، والاكتفاء بتلقين القرآن الكريم ، او بعض ما لا بد منه من السور والآيات . وبقي الحال على هذا المنوال الى وقت غير بعيد . ولكن لما انتشرت البعثات التبشيرية ذوات المذاهب المختلفة، والسياسات المتضاربة خاف المسلمون مغبة تعاليمها وتوجيهاتها ، وكذلك غيرهم من بعض الملل الاخرى ، فاقبلوا على فتح المدارس الخاصة للذكور ثم للاناث ? وكان ذلك مما حمل السلطنة العثمانية على الاهتمام بانشاء المدارس الرسمية في الولايات على انها كانت اعدادية وعسكرية . فالاعدادية كانوا يتوخون بها اعداد موظفي الولاية ؛

والعسكرية لاعداد الضباط في الجيش . لذلك فان هذه التدابير لم تكن وافية لمحاربة الجهل المنتشر بين الشعب ،فنشأ اهل القرن الثالث عشر للهجرة ، وبعض الرابع عشر ، في مرحلة انتقال كانت الى الجهـل اقرب من العلم . وكانوا ، على الغالب ،ممن تخرجوا من الكتاتيب ،او بدأوا بها. وما ادراك ما الكتاتيب ؟ ولقد اتيح لي ان اعاصرها طفلاً ، وان استهل قراءة القرآن عند الشيخة العبدة، ولا اذكر لها اسماً آخر ، وكان كتّابها يجمع بين الصبيان والبنات .

على ان رفقائي في هذه الكتاتيب صادفتهم من بعد العنـاية مثلي ودخلوا المدارس ، اما رفيقاتي ، او معاصراتي ، فمنهن من دخلهـا أيضاً ، ومنهن من اكتفى بما حفظ عند الشيخه العبده ومثيلاتها . وهؤلاء كن العدد الاكثر . واما الذين اقبلوا باكراً على المدارس الاجنبية من غير المسلمين فقد اتيح لهم ان يسبقوا مواطنيهم مراحل في اقتباس ما في التمدن الحديث من فوائد .

ومن هنا كانت المرأة العربية المسلمة ، على وجه عام ، يغلب عليها الحرمان من الثقافة حتى حين قريب. ويغلب عليها اما جهل ما يدور من الاحداث وراء خدرها ، واما الاعتقاد ان ذلك خارج عن اختصاصهـا . واني اكتفي بايراد حادثة وقعت قبل نحو ثلاثين عاماً للدلالة على مقدار ادراك نساء معظم ذلك الجيل.

كانت زوجتي نازك العابد، رحمها الله [١] تزور اسرة معروفة ببلدها دمشق. ونازك تعتبر حتى قبل زواجي منها ، اولى الداعيات الى تحرير المرأة وتعليمها . وقد دار الحديث حول هذا الموضوع . وتطرق الى تناولهـا وصف ما لاقى زوجها من عناء ، واضطهاد ، واتـّهام من قبل الفئة المحافظة من جراء بروزه الى

---

١ ورد تاريخ حياتها في كتاب « نساء شهيرات من الشرق والغرب » لوداد سكاكيني وتماضر توفيق الذي صدر في القاهرة سنة ١٩٥٩ . وورد ذكرها في مجلات وكتب كثيرة .

مناصرة المرأة .

وكان في المجلس شيخة ، هي ام الأولاد ، ومن نساء الجيل الذي نتحدث عنه . كانت تصغي لحديث زوجتي ، ولا تفتأ تبدي ألمها عند ذكر الامثلة على ما عانيت في سبيل تحرير المرأة وتثقيفها. انها كانت تشفق عليّ ، وتريد انقاذي من الورطة التي القيت نفسي فيها ، رحمها الله ، فما وسعها الا ان تقاطع زوجتي ، وبطيبة قلب ، وخلوص نية ، تقول لها :

« مسكين جميـــل بك . اني اشفق عليه ، وانصحه بأن يستقيل من هذه الوظيفة ! ان الله انعم عليه، ولماذا لا يزال يتمسك بها؟ ان الله اغناه عن مرتبها، ولماذا لا يتخلى عنها ؟ يا ابنتي قولي له بلساني ان يستقيل ويرتاح ! »

فهذه السيدة الطيبة تخيلت لجهلهـا ان مناصرة المرأة وظيفة من الوظائف المأجورة! وما كان مرد ذلك لقلة ادراكها بسبب كبر سنها، وانما كان يعود الى انها ، ومثلها اترابها غير المتعلمات ، اذا تعدى البحث في مجلسهن موضوع البيت وما حوله استعصى عليهن فهمه والاحاطة بدقائقه .

وانّا نحمد الله على ان الجيل النسائي المعاصر لم يعد في حاجة الى مناصرة الرجال . فهو قد ادرك بسرعة ما كنا نريده له . نحمد الله على ذلك ، ولو ضاع علينا ، نحن الفئة المناصرة له مرتب الوظيفة !

منزلة المرأة في العهد المعاصر لال عثمان

المرأة التي كانت على وجه الاجمـــال ، عند الامم الغـــابرة وضيعة المنزلة في نظر الرجل بتأثير الوراثة جيلاً بعد جيل ، والتي ظلت كذلك ، ولكن على مستوى أقل في الحضارة العربية الاسلامية رغم اشعاعها وتنور اهلهـا ، ماذا

تراها تكون في عهد الانحطاط ابان ما ساد الجهل ، وفي غضون ما قدمت هي نفسها من البراهين على صحة العقيدة القديمة التي تعطي الحق للرجل بان ينظر اليها نظره الى القاصرين ، وان يعاملها معاملته لسائر ما ملكت يمينه من الرقيقات ؟

والواقع ان المرأة في ذلك العهد المظلم ، كانت على منزلة وسطى بين الحرة والمسترقة . واذا اردت الدقة فهي كانت بالرقيق اشبه استناداً الى ما وصل الينا من اقوال عنها ، وما انتهى الينا من انباء عن معاملتهم لها ، وذلك بالاضافة الى ما شاهدناه بانفسنا في مطلع القرن الحاضر .

ومن الكتب التي صدرت في عهد الانحطاط كتابان :

١ – النصائح الدينية ، والوصايا الايمانية .

٢ – ارشاد العباد الى سبيل الرشاد .

والمؤلفان تنطعا لارشاد الناس الى ما فيه خير الدنيا والآخرة . فلنعد اليهما لنرى ماذا عساهما يوجهان الى المرأة من النصائح لنتخذ من هذه النصائح اضواء تعيننا على تعيين منزلتها وقتئذ في الهيئة الاجتماعية .

يقول الاول في معرض نصح الرجال : « وكذلك لا ينبغي له ان يملك المرأة امره ، ويوليها نفسه وماله، كما يفعله بعض الاغبياء . وذلك من الامور المستقبحة شرعاً وعقلاً . فان المرأة حكمها حكم **المملوك التابع** . فمن جعل المملوك تابعاً ، والتابع متبوعاً فهو معكوس منكوس . »

ويقول الثاني في سياق الحديث عن واجبات المرأة : « وينبغي لها ان تعرف انها **كالمملوك للزوج** ، فلا تتصرف في شيء من ماله الا بأذنه . بل قال جماعة من العلماء انها لا تتصرف في مالها الا بأذنه لانها كالمحجورة له !

وقال بعضهم يجب على المرأة دوام الحياء من زوجها ، وغضّ طرفها قدامه ، والطاعة لامره ، والسكوت عند كلامه ، والقيام عند قدومه ، وعند خروجه وعرض نفسها عليه عند النوم ، والتعطر له ، وتعاهد الفم بالمسك والطيب ، ودوام الزينة بحضرته ، وتركها في غيبته ، وترك الخيانة عند غيبته في فراشه أو ماله ، واكرام اهله وأقاربه ، ورؤية القليل منه كثيراً . » الى ان يقول : « وينبغي للمرأة الخائفة من الله ان تجتهد في طاعة الله ، وطاعة زوجها ، وتطلب رضاه . فهو جنتها ونارها . »

وهذه الوصايا التي انبثقت من روح العصر وأمثالها تشير صراحة الى ان المرأة كانت وقتئذ ، في نظر الرجال ، وفي نظرها نفسها ايضاً ، على مرتبة وسطى بين الاحرار والعبيد . على ان هذه النظرية ظلت قائمة حتى عهد قريب : فقد روت لي سيدة قبل نحو ربع قرن أن شيخاً نصب نفسه في مسجد من مساجد دمشق مدرساً للنساء . وكانت نصائحه على هذا النحو من الوصايا ، ثم لم يتورع عن ان يزيد في توصية تلميذاته بتنظيف الحوض !.. والطواف حول سرير الزوج قبل النوم ثلاث مرات مشفوعة بسؤاله عمّا اذا كانت له حاجة !.. وعلقت محدثتي على ذلك : ان احدى الخبيثات ، اللواتي كن يتغامزن عليه تجاهلت مراده بغية الاستزادة من سخافته ، وقالت له : « سيدي اذا زرتنا وجدت الحوض في حديقة دارنا نظيفاً في كل وقت ! » فكان الشيخ يحاول ان يكشف ، بتلميح آخر ، عما يريده ، وكان الخبيثات يحاولن ان لا تبدو عليهن علائم الضحك .

ولولا البقايا التي ظلت ماثلة امام أعيننا لقلنا ان معاملتهم للمرأة كانت خيراً من وصاياهم . والواقع ان المعاملة ، التي ظلت متبعة حتى وقت قريب في العالم الاسلامي ، كانت تتنافى مع استقلال المرأة ، وحريتها وكرامتها .

فأي استقلال لامرأة ، كانت اذا دخلت دار زوجها لا تبرحه الا محمولة على آلة حدباء ؟

وأي مساواة لامرأة يأنف زوجها مجالستها الا لقضاء حاجة ، ويستكبر مواكلتها على مائدة واحدة ؟

واية حرية لامرأة ، اذا قدر لها ان تخاطب رجلاً طرق باب الدار خاطبته من وراء حجاب ، وقلّبت صوتها ، وسترت يدها ؟

واية كرامة لامرأة يتعيّن عليها اذا خرجت مع زوجها ان تمشي وراءه ملفوفة من قمة الرأس الى القدم . ثم اذا وقف وقفت بعيداً عنه ، وإذا مشى تبعته دون ان يكون لها ارادة فيما تفعل ؟

وقد اتيح لي أن اشاهد بنفسي واسمع امثلة كثيرة على تلك العادات التي كانت شائعة في الشرق حتى اوائل القرن العشرين حينما كانت المرأة الغربية اخذت تتبوأ مقاعد النيابة والتشريع والأحكام ، وتساهم في خدمة الوطن .

واذا بدأنا ببلادنا السورية اذكر ما كان عليه الرجل ، في بعض المدن ، إذا تعرض للتحدث عن شيء يتعلق بزوجته يقول : « الجماعة » حرصاً منه على ان لا يذكر الزوجة امعاناً منه في ابعادها عن الاذهان .

وقد سمعت صراخ امرأة في قرية بغوطة دمشق تستجير وتصرخ لان زوجها كان يضربها ضرباً مبرحاً . فدنوت منهما ، وسألته عما اقترفته من ذنب ، فتبسم ، وقال : « لا شيء ، سيدي » وافضى اليّ بجدّ انه يتلذذ بضرب النساء !

وزرت في ذلك العام (١٩٢٩) قرية ضمير من أعمال دمشق ، واضفت رجلاً من أهاليها كانت لنا به صلة. وكان قد غادر البيت لحاجة فاستقبلتنا امه العجوز وسامرتنا . وكان مدار حديثها عن ابن آخر لها سُجن . فقالت في معرض الحديث : « ان السلاسل الحديدية للرجال ، كما ان السيف لرقبة المرأة. » وسمعت مثل ذلك في مضارب بدو العقيْدات النازلين على مقربة من دوما ، سمعت نشيداً للنساء مطلعه :

علاّ سمراني علاّ سمراني   يلـّلي سلامه بالخيزراني

وفي ذلك الوقت حطت بي الرحال في مدينة من مدن الشام ، ونزلت ضيفاً عند احد الاصدقاء من الاعيان . وكان مقامي عنده في جناح مستقل عن الدار . فلاحظت ان الدار كانت هادئة ساكنة ، كأنها فارغة خاوية ، ابان وجوده في المنزول ، ولكنها تصبح في الضوضاء كحمام انقطع ماؤه اذا غادرها لحاجة ، او ككتـّاب للأولاد غاب عنه المعلم ، مع علم أهل البيت بوجود ضيف في المنزول . وعلاوة على ذلك لاحظت ان رب الدار لم يكن يمنح الثقة لاهله الى حد انه كان يحتفظ بمفتاح خزنة المؤنة . فكن اذا احتجن الى شيء منها للمطبخ يأتي الولد اليه ، ويتناول المفتاح ، ثم يعيده .

وبيروت نفسها ، التي سبقت سواها الى التمدن الحديث ، لم تكن قد تحررت في نهاية القرن التاسع عشر من هذه المخلفات . وحسبي ان أنقل هنا ما أوردته في كتابي : « فتاة الشرق في حضارة الغرب » : وهو حديثي مع اولى طبيبات الشرق العربي الدكتورة انسطاس بركات باز . فقد اردت أن أعرف ما حملها على اختيار هذه المهنة دون سواها . قالت : « كنت تلميذة بمدرسة الانكليز للبنات في بيروت . وقد استرعى نظري في يوم من الايام نحيب زميلتي فاطمة .. . فتقدمت منها باشفاق ، ورجوتها أن تخبرني عما يبكيها . فأعلمتني،

بصوت متهدّج ، انها حزينة ، وحزينة جداً . ولما كررت عليها السؤال عن السبب ، أعلمتني ان والدتها مريضة ، وفي حالة خطر . سألتها عن الطبيب الذي يعالجها فقالت فاطمة باستغراب : « كيف نستدعي الطبيب ؟ وهل يسمح العرف والعادة بأن يكشف الرجـــل على المرأة ؟ » قلت بسذاجة : « استدعوا اذن طبيبة . » واذا بفاطمة ، عند سماعها جوابي هذا ، تتحول عن البكاء الى الضحك . ولماذا كان ذلك ؟ كان للغرابة الشديدة التي وجدتها في قولي . ثم لم تتمالك عن كشف مصدر ضحكها بقولها لي : « يا للعجب أتكون المرأة طبيبة ؟ »

ودار الزمان دورته الى الامام . ومع ذلك بقي لفيف الشعب يتأذى من سماع تحرير المرأة . فقد دعيت الى طرابلس سنة ١٩٢٨ لالقاء محاضرة في هـذا الموضوع . وما تسنى لي وقتئذ ان أعلم تأثيرهـا . حتى إذا عرضت مناسبـة قبل بضع سنين ذكرتني بها السيدة حبيبة يكن رئيسة «جمعية الشابات المسلمات» مشيرة إلى ما كان لها من الاثر السيء على المتعصبين ، وإلى انهم لولا العقلاء الذين ردوهم عن مؤامرتهم عليّ لتعرضوا لي بالاذى.

وأما في مصر فكانت حالة المرأة ، في ذلك الزمن ، أدهى وأمر . واذا سمح لها في الاوساط العالية أن تتعلم فلا يتعدى هذا السماح تلاوة القرآن . وقد كتبت لي ميّ (ماري زيادة) في هـذا المعنى رسالة استـدلت فيها على قولها بالحادثة التالية :

« أخبرتني سيدة هي ابنة أحـد أعاظم المصريـين ، وهي اليوم سائرة في طليعة موكب الرقي النسائي ، انها في سن الحادية عشرة كانت تتعلم مع حقيقتها وأولاد آخرين على معـلم يلقنهم دروس القرآن في السـلاملك (دار الاستقبـال) في حضرة اللالا (الآغـا) . واذ سمعت المعلم يومـاً يقرأ في كتاب غير مشكل ، ويلفظ الكلمات محركة بسهولة كلية سألته عن سرّ فنه ،

ولماذا لا تستطيع هي أن تفعل فعله ، فأجاب ان كل السرّ في انه يعرف قواعد اللغة . فطلبتْ اليه ان يجيئها بالكتب اللازمة لتتعلم القواعد ، ففعل في اليوم التالي . واخذتْ تقلّبها فرحة بعلمها المقبل. فاستعلم اللالا عن الغرض من تلك الكتب ، وافضت اليه برغبتها . فما كان منه الا ان تناول الكتب ، وأبعدها عن الفتاة قائلا : «ما لك ولهذه الكتب؟ اتريدين ان تصيري افوكاتو؟» وعلقت ميّ على هذه الحادثة بقولها : « ومن عرف سن هذه السيدة الشابة علم ان الحادثة المذكورة قريبة العهد . »

واذا علمنا ان المصرية ظلت الى اوائل القرن العشرين تتسكع في دياجير الجهل قدرنا ما كانت عليه منزلتها في المجتمع حتى حين . ولا بدع ففي احصاء ١٩١٧ كان عدد الاناث المتعلمات بمصر لا يزيد عن ٢١ في الالف ، كما ان الذكور المتعلمين لم يكن عددهم سوى ١٣٦ في الالف . (مجلة المقتطف م ٥٩ ج ٥) .

واما العراق فلم تكن حالة المرأة فيه خيراً من مصر . واني اجتزىء من كتابي « الانتدابان في العراق وسورية » بعض الادلة على تخلفهم في هذا المضمار ، وعلى منزلة المرأة عندهم في أعقاب جلاء العثمانيين عن هذا القطر الشقيق .

لما عنيت حكومة الملك فيصل الاول بفتح مدارس للبنات انتفض الشعب ، وتظاهر ، وكان ينادي : « القبر ولا المدرسة » .

ولما انشأت اسمى الزهاوي شقيقة جميل صدقي الزهاوي منتدى للنساء في بغداد ثار الشعب ، وحطم لوحة النادي قائلاً : « متى كانت المرأة تعلن عن نفسها خارج الدار » ؟

وحينما دعيتُ لالقاء محاضرة في بغداد سنة ١٩٢٧ في موضوع المرأة حاولت

الحكومة ان تردني عن عزمي خوفاً عليّ من القتل لان الشعب لم يكن يألف سماع مثل هذه المحاضرات [1] .

والى هذا فحسبي ان اشير هنا الى ما كان يقوله بعضهم وقتئذ في العراق اذا ما وقفوا موقف التعزية بالزوجة . حسبي هذا للدلالة على منزلة المرأة عندهم . ان بعضهم كانوا يقولون لبعلها : « فراش جديد » اشارة الى ان الله هيأ له بموتها فراشاً جديداً !

واما المرأة في فلسطين فأنا نترك الكلام عنها لاهلها : فقد كان عزمي بك أحد ولاة بيروت خلال الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨ م) انتدب كلًا من رفيق التميمي ، وبهجت كاتبي ، لوضع كتاب عن ولاية بيروت التي كانت تمتد من اللاذقية الى القدس . وقد اضطلع الاول بمهمة الكتابة عن بلده فلسطين . وهاك ما كتبه عن مدينته نابلس وما حولها حرفياً :

« ان حياة العائلة في نابلس تتجلّى بمظاهر مؤلمة جداً ، فيمكننا ان نقول انه ليس للمرأة هنا حكم او تأثير مطلقاً اسوة بباقي الانحاء من بلادنا . فيحبون حرمان كل شيء لهذا المخلوق الذي لا يريدون ان يخرج من بطون الامهات الى هذا العالم . ومن الواجب ان يكون تعليم الابنة ناقصاً . بل أي حاجة تقضي بتعليم المرأة ؟ ولو فرضنا أنهم احسنوا اليها ، وأدخلوها احدى المكاتب فانهم

---

(١) لمناسبة زيارتي الاخيرة للعراق ١٩٦١ تلطفت جريدة الزمان البغدادية واشارت الى وصولي لبغداد في عددها ٢٩ — ٤ — ١٩٦١. وقالت فيما قالت :« ومما يذكر ان الاستاذة صبيحة الشيخ داود في كتابها « اول الطريق » اشارت الى مجهود الاستاذ بيهم ، وانتصاراته الرائعة البارعة ، كما اشارت الى بعض المواقف التي تعرض لها في بغداد بالذات قبل اكثر من ثلاثين سنة . »

يقيمون سداً في وجه تعليمها بعد ان تتمّ ختم القرآن الكريم ، فيخرجونها من المكتب قبل ان تتعلم جمع الأعداد البسيطة بصورة تامة . وتبقى الابنة في البيت الى الخامسة او السادسة من عمرها وليس لها من الاهمية شيء . ويُنظر اليها بكل اشمئزاز وعدم اعتبار لانها ابنة . وخصوصاً اذا كانت سبباً لدخول ضرّة على امها في البيت . فان حياة البنت تصبح حينئذ نقمة زائدة عليها . فتضرب وتصفع » .

الى ان يقول: « فاذا ما دخلتْ في السنة السادسة من عمرها يصبح خروجها لظاهر الدار امراً ممنوعاً مطلقاً ، ويحكم عليها بأن تتنشق الهواء الرطب المتعفن المظلم ، وهي في دارها . واذا تيسر لها الخروج من الدار مرةفي السنة صحبة والدتها ، فمن القواعد المتبعة ان تطرق البنت رأسها في الارض ، ولا تلتفت لجهة من الجهات . وبعد خمس سنين أو ست ترسل هذه البنت المسكينة ، التي لا تعرف من العالم سوى تعداد أحجار الازقة ، الى دار غريبة عنها تماماً تجهل فيها كل شيء ، فتصبح هناك آلة للولادة ، وخادمة للرجل ، وجارية للحماة ، ولابنة عمها . وتجبر تلك المرأة الصغيرة التي القيت بين ايدي الاغراب ، على أن لا ترفع صوتها بالشكوى ، لا من حالتها ، ولا من دارها الجديدة ، ولا من زوجها . ولا سبيل لها الا الرضاء والتسليم بحياتها كما هي . ومع هذا فانه لو فرضنا انها تحملت كافة هذه المشاق ولم تعرف لنفسها قصوراً او هفوة فانها لا تلبث ان ترى في يوم من الايام ضرّة تشاركها في حياتها . فينفذ حينئذ صبرها ، وتبدأ بالشكوى والتذمر من حالتها التعيسة ، فيختلط الحابل بالنابل : ما بين حماة وابنة عم ، وزوجة اولى ، وزوجة ثانية ، ورجل وأولاد الزوجات المختلفات ، فتصبح تلك الدار حينئذ دار أغراب ، وتبدأ حياة المرأة بالذبول ، ويذهب عمرها ضحية . ومن العادة في نابلس ان لا يُهتم بمرض المرأة . حتى انه ليس من العادة عندهم ان يُستحضر طبيب أو يُشترى علاج للمرأة اذا مرضت . فان اشتد المرض استحضر الطبيب مرة او

مرتين . ولكن الزمن ، الذي يمكن للطبيب فيه انقاذ حياة المرأة ، يكون قد مضى ، فتذهب تلك المرأة المسكينة تاركة وراءها اطفالاً يرثى لهم . على ان تلك المرأة تكون قد تماسكت بالحلقوم مع اولادها وهم اطفال . تموت المرأة فلا يهتم الرجل لوفاتها . وفي اليوم الثاني يذهب فيتزوج ثانية . وليس من العادة ان يذكر اسم المرأة المتوفاة على قبرها . ومن الصعب ان يوجد اسم امرأة مكتوباً على قبور نابلس . ويعتقد النابلسيون انه من المعيبات ذكر اسم المرأة المتوفاة . »

وهكذا فقد وصف ابن نابلس المرأة في بلده وفي قطره من المهـــد الى اللحد ، وهو ، فى الواقع ، انما كان يصف نساء ذلك الزمن فى أكثر البلاد الاسلامية . وقد اشار الى ان البنت اذا بلغت السادسة من العمر دفنت حية في بيتها ، ثم عقب على قوله هذا ، بتعيين المكان المباح لنزهة نساء بلده ، وهي المقبرة . فكأنما قضي عليها ان تخرج من قبر الى مقبرة . قال :

« والمقابر هي اكثر المحلات اباحة لزيارة النساء النابلسيات ، ولا ينسينها ، ويكررن ذلك كل اسبوع ، ويذهبن الى المقابر وفي ايديهن أغصان الآس ، وطاقات الزهور ، فيزين القبور التي يزرنها . »

ويبدو لي انه لولا ما في زيارة النساء للمقابر من تزلف للرجال ، وذلك اما بزيارة الأموات منهم ،او بزيارةموتى اقرباء الاحياءلما افسحوا المجال لهن للخروج اليها ؛ والنزهة فيها فوق اجداث الاموات .

واما في قرى فلسطين وغيرها من البلاد العربية فكانت المرأة فيها على مرتبة لا ترتفع كثيراً عن مرتبة الانعام . وحسبك ان تقرأ في هذا الكتاب نفسه قوله عن ضاحية طول كرم : « اذا ارادوا في بعض القرى ان يذكروا اسم المرأة يقرنون معه كلمة : « اجلـّك الله ! »

على ان اهل البلاد الاخرى وان اطلقوا للنساء بعض الحرية ، واباحوا لهن مغادرة البيوت متحجبات للتزاور ، او للقيام بالواجبات الاجتماعية من تهنئة ، او تعزية ، او عيادة مريضة ، او لشراء بعض الحاجيات ، فانهم ظلوا يعتبرون البنات حتى نهاية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) معفيات من اداء هذه الواجبات ، وكأنهن ، وان ادركن سن الرشاد ، لا يزلن قاصرات. وماذا ينتظر اكثر من ذلك من رجال كان السواد الاعظم منهم متحجري العقول ولو تعمموا ، وجهلاء ، ولو تسنموا ارفع المراتب . اما هذه الحرب فقد كانت نقطة انطلاق للمرأة على وجه عام ، وفي العالم العربي على وجه خاص، ذلك بأن حزب الاتحاد والترقي الذي كان يسيطر على السلطنة العثمانية فتح الباب على مصراعيه ودفعها الى خارج خدرها . وكانت ظروف الحرب ملائمة لهذا الحزب ولدعوته فانطلقت المرأة العربية ،منذ ذلك العهد ، حتى ادركت المنزلة التي تحتلها الآن بثقافتها وجهودها [١] .

وختاماً فانني لا اترك القلم دون ان اذكر حسنة جارية لهذه الحقبة ، حقبة العهد العثماني التي اشبعتها انتقاداً . أليس في اواخرها انطلقت النهضة النسوية في العالم العربي انطلاق القنبلة الذرية فقلبت الاوضاع رأساً على عقب ، واضاءت في ذلك الظلام الدامس ، سبيل اختنا المرأة فسارعت سراعاً وبخطى ثابتة الى مستوى نساء العالم الراقي ؟

بلى ، واني لسعيد اذ شاهدت بأم عينيّ ما طالما تمنيت . واني لأرجو ان أوفّي موضوع النهضة النسائية حقه في كتاب لاحق . وعلى الله الاتكال .

●

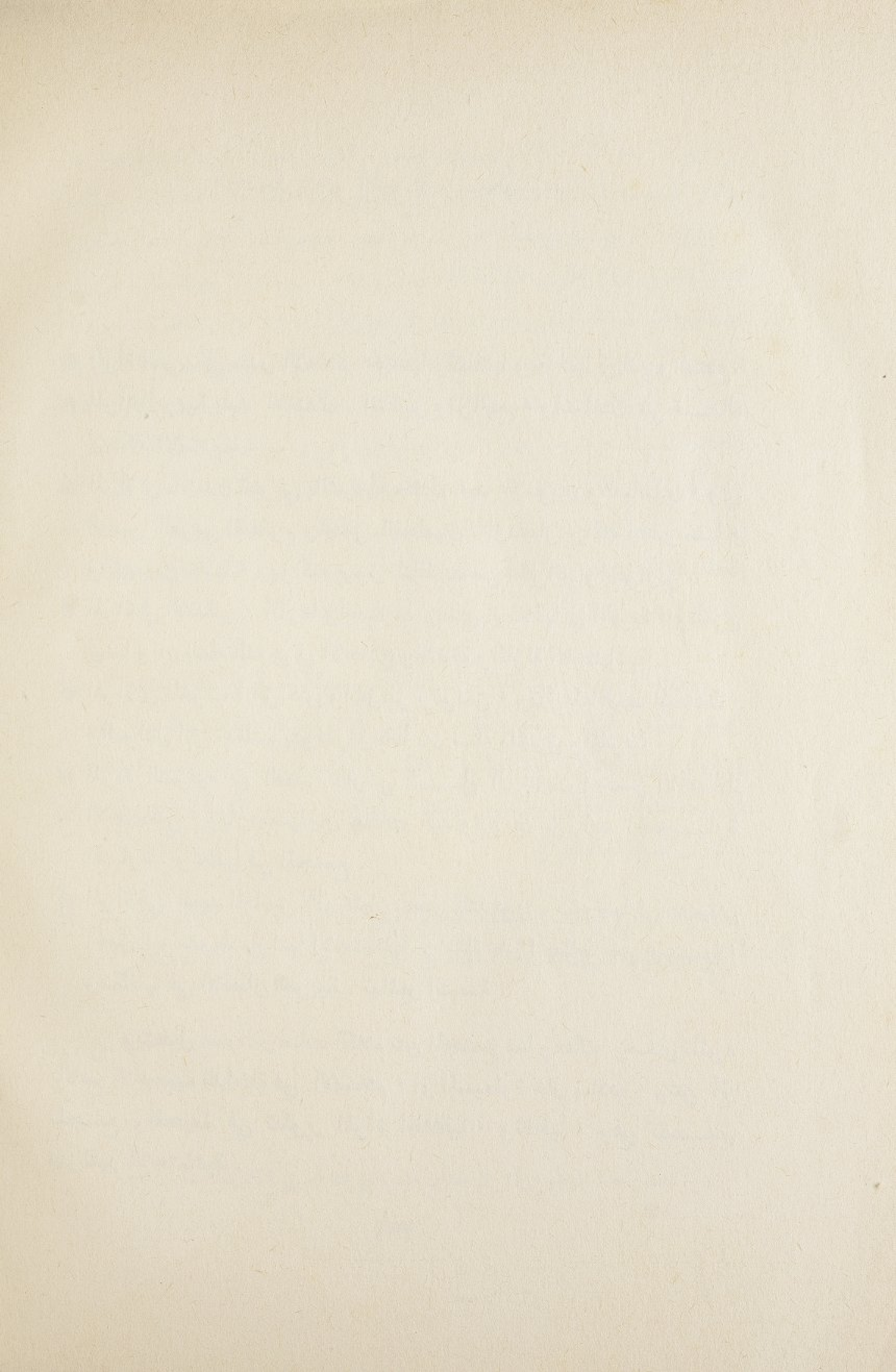
---

١ تفصيل هذا الموضوع يأتي في مقالين نشرا في مجلة العربي الكويتية سنة ١٩٦٠ .

مجمل مواضيع الكتاب

- المرأة العربية في صدر الاسلام. اخلاقها وثقافتها ومنزلتها في الدين والمجتمع.
- المرأة العربية عهد الانتقال. انتكاس وتراجع، واستغلال الرجال لاحكام الاسلام.
- المرأة في التمدن العربي بالشرق، خلال عهد الامويين والعباسيين، وفي العصر العربي المخضرم وعصر الفاطميين. ازدهار يرافقه الحذر منها، والتضييق عليها، ويواكبه بروز النافذات من الحرائر والجواري.
- المرأة في الاندلس. آثارها وأخبارها ومدى انطلاقها في الحرية، والفرق بينها وبين نساء الشرق في الاخلاق والثقافة والمنزلة الاجتماعية.
- المرأة في المغرب: مراكش والجزائر وتونس، وتأثرها بالمحيط المحافظ، والعوامل التي جعلتها بتونس وسطاً بين نساء المشرق والمغرب.
- المرأة الشرقية في العصر التركي قبل آل عثمان: عصر الانحطاط الاجتماعي، وتأرجحها بين مخلفات البداوة وبين مؤثرات الحضارة المنهارة. وتخلفها في المجتمع.
- المرأة في العهد المعاصر لآل عثمان: عصر التدهور. سقوطها في حضيض الجهل، وسقوط منزلتها الاجتماعية. أمثلة على انحطاط مواهبها، ومكانتها في الاقطار العربية. تباشير النهضة.

ويتخلل هذه الدراسات الكلام عن المجتمع هنا وهناك ومدى تأثره بالامم الاعجمية الداخلة في الاسلام، او المسيطرة على بلاده، وعن أثر المجتمع والمحيط في تطوير المرأة اخلاقياً، وثقافياً، وفي تقدير منزلتها الاجتماعية.



فهرست الكتاب

رقم الصفحة

---

(١) وقع خطأ مطبعي في ترقيم هذا الفصل فأثبتناه على حاله ، وجعلناه فصلاً مكرراً .

الفصل الحادي عشر

المرأة فى التمدن العربى بالشرق

العهد المعاصر للسلطنة العثمانية – عهد التدهور

كتب المؤلف العربية

•

فى القضايا النسائية

		سنة	عدد الصفحات
المرأة فى التاريخ والشرائع	مصوّر	١٩٢١	٢٧٦
المرأة في التمدن الحديث	«	١٩٢٧	٢٨٠
فتاة الشرق في حضارة الغرب	«	١٩٥٢	١٣٥
المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة		١٩٦٢	٣٢٦

فى القضايا السياسية

فلسفة التاريخ العثماني (الكتاب الاول)	مصور	١٩٢٥	٣٠٤
أوليات سلاطين تركيا	«	١٩٣١	٠٨٠
الانتدابان في العراق وسوريا		١٩٣١	١٣٧
فلسطين اندلس الشرق	«	١٩٤٦	٢٨٢
فلسفة التاريخ العثماني (الكتاب الثاني)	«	١٩٥٤	١٩٠
واشنطن تعبد الطرق لموسكو في بلاد العرب والمسلمين	«	١٩٥٤	٠٨٩

	سنة	عدد الصفحات
العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب	١٩٥٧	٢٢٧
اسرار ما وراء الستار الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية كأنك تراهما. مصور	١٩٥٨	٢٨٢

فى القضايا العربية

قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور الجزء الاول	مصور	١٩٤٨	٢٣٠
قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور الجزء الثاني	«	١٩٤٩	٢٦٤
الحلقة المفقودة في تاريخ العرب		١٩٥٠	٢٢٠
العروبة والشعوبيات الحديثة		١٩٥٧	٢٢٢

فى القضايا الاسلامية

فلسفة تاريخ محمد	١٩٦١	٢٥١

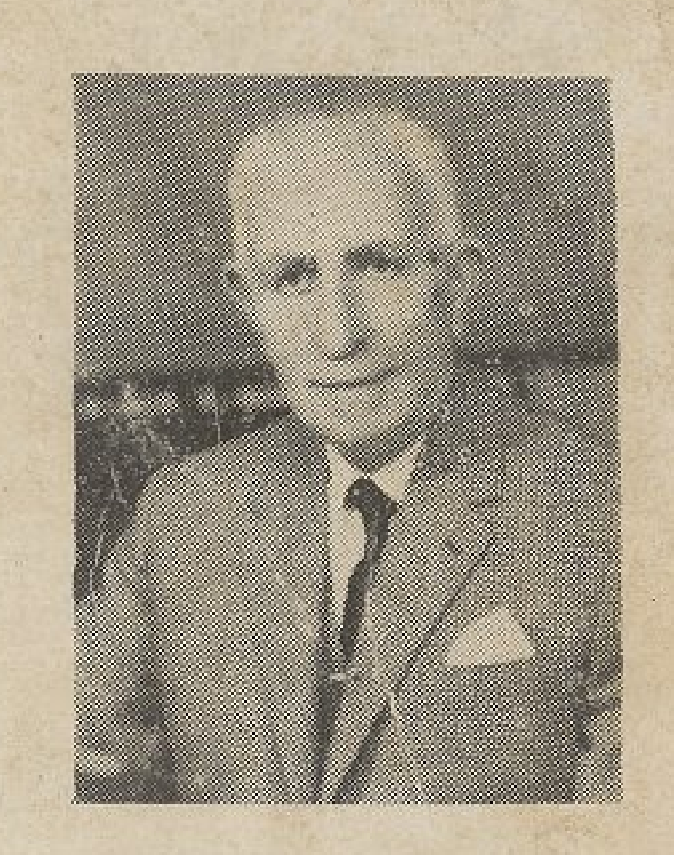
★

تطلب هذه الكتب من « دار النشر للجامعين » ومن المؤلف



طبع على مطابع شركة الطباعة الحديثة
شارع مستشفى الروم – الجعيتاوي





«وجيه الادباء، وأديب الوجهاء» هذا اللقب الذي طالما أطلق بحق على مؤلف هذا الكتاب العلامة محمد جميل بيهم. فهو من اسرة بيروتية شهيرة. الف كثيراً من الكتب. صدر منها حتى الان ١٧ كتابا في مواضيع سياسية واجتماعية، وتاريخية، مختلفة. وتقديراً لجهوده العلمية انتخب رئيساً للمجمع العلمي اللبناني، وعضواً مراسلا للمجمع العلمي العراقي فضلا عن بعض المؤسسات الأخرى العلمية الأجنبية.

وقد طاف المؤلف العالم باحثاً دارساً منذ مطلع شبابه فاستفاد وافاد بكتاباته المتواصلة التي ما برح يطالب فيها باصلاح المجتمع. وكان على رأس ذلك دعوته، منذ اوائل هذا القرن، الى تعليم المرأة وتهذيبها واعدادها للتحرر والمساواة. وهو يرى في تسميته نصيراً للمرأة خير مكافأة له على ما لاقى في هذا السبيل من الجفاء والعناء.

وقد اصطفى الاستاذ بيهم دارنا باصدار هذا الكتاب الذي يستعرض تطور المجتمع الأسلامي منذ البعث حتى الآن وذلك خلال التحدث عن المرأة في حضارة العرب في المشرق والمغرب.

ونحن اذ نرجو ان ينال هذا السفر النفيس ما يستحق من الاقبال نزجي شكرنا للمؤلف الفاضل.

الثمن: ٥٠٠ ق.ل. ٦٠٠ ق.س.
٦٠٠ فلس عراقي